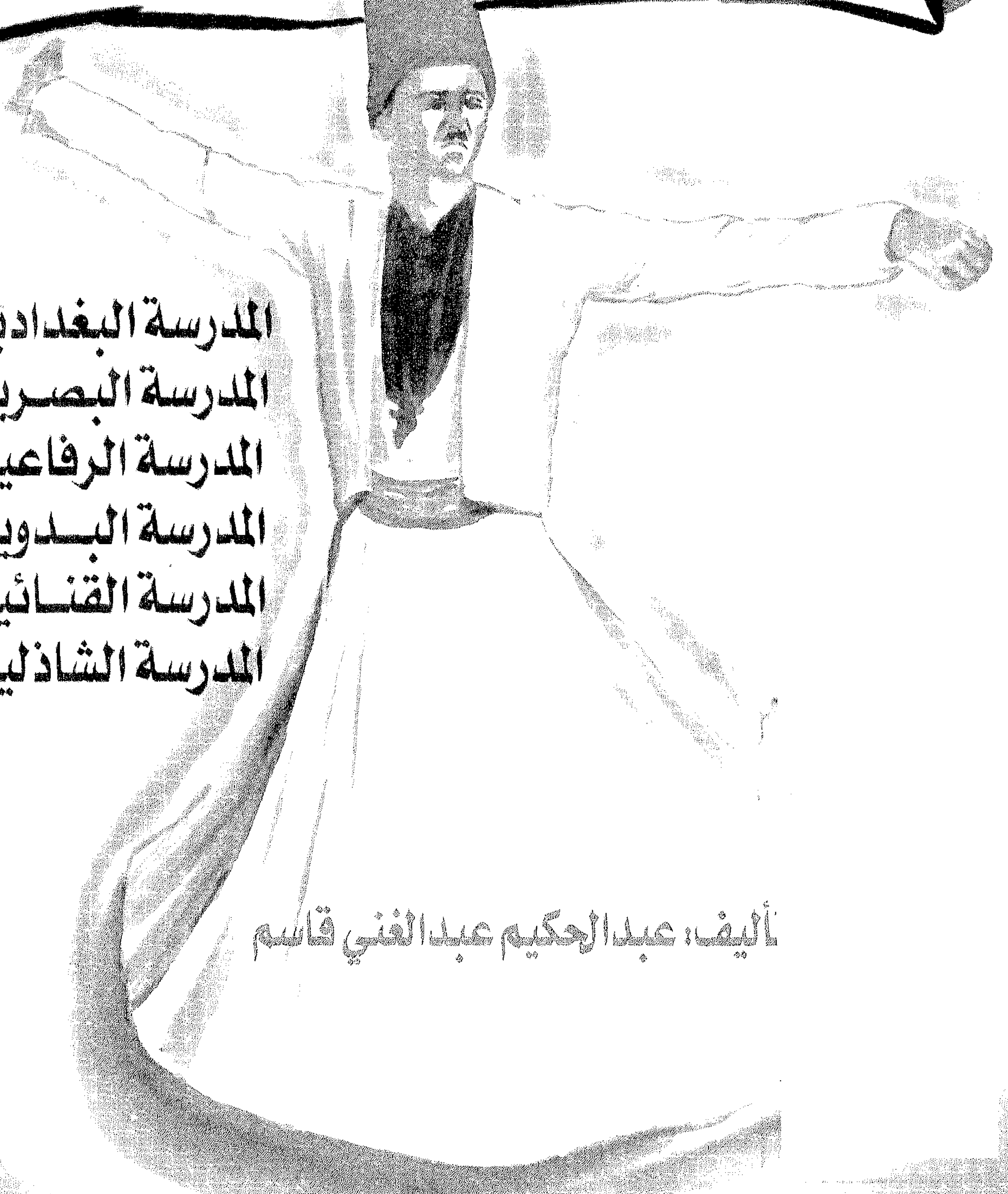
المذاهب الصوفية ومدارسها



المدرسة البغدادية
المدرسة البصرية
المدرسة الرفاعية
المدرسة البدوية
المدرسة القنائية
المدرسة الشاذلية

أليف: عبدالحكيم عبدالغني قاسم

المذاهب الصوفية

ومدارسها

المدرسة البغدادية
المدرسة البصرية
المدرسة الرفاعية
المدرسة البدوية
المدرسة القنائية
المدرسة الشاذلية

تأليف: عبد الحكيم عبد الغنى قاسم

مكتبة
مدبولى
١٩٩٩

الكتـــــاب: **المذاهب الصوفية ومدارسها**

الكـــــاتب: **عبد الحكيم عبد الغنى قاسم**

الطبعـــــة: الأولى ـ ١٩٨٩ ـ الثانية ١٩٩٩

النـــــاشر: مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ ـ فاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

التجهيزات الفنية: «زهران» للخدمات الإعلامية والدعاية والإعلان

تليفون: ٣٣٧٧٦٧٨ ـ ٤٣٢٠١٧٧

لـــوحة الغلاف: محمد لطفى

رقم الايـــداع: ١٧٤٢٣ / ٩٨

الترقيم الـــدولى: X / 256 / 208 / 977

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نحمدك اللهم إقرارا بربوبيتك، ونستعين بك مفتقرين إلى هدايتك التى تكشف لنا حجب الظلام عن قلوبنا فتكون أمنا وسلاما لنا ولمن أستجاب لها، وبرهانا قويا لمن تحدث بها وعبرة لمن أخذ منها واتعظ من خلالها، ونجاه لمن صدق. اللهم صلى وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء والرسل جميعا وبعد:

قرأ الناس كثيراً عن علماء الصوفية وعن تاريخ حياتهم، وتابعوا بشغف وبدقة سيرهم فى أعجاب شديد، وتعرفوا على عناصر تفوقهم ونبوغهم ومسالكهم فى الحياة وموقفهم من المشكلات التى اعترضت المجتمع الإسلامى. هؤلاء العلماء كانوا رابطة قوية للمسلمين وقتئذ، وكونوا مدارس لها مشارب مختلفة لا تحيد عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونحن الآن فى أشد الحاجة إلى دراسة عميقة لهذه المدارس. فهى صورة ناصعة للحياة الإسلامية ورابطة قوية للمسلمين.

وكتابى هذا صورة صادقة عن علماء الصوفية وعن مبادئهم وأخلاقهم وكتبهم والحوادث التى ظهرت بينهم وبين معارضيهم، وما أطرحه لك يا عزيزى القارئ من صورة صادقة عنهم يعد ضئيلا محدودا بالنسبة لما ذكره تاريخ حياتهم العلمية والعملية وما غرسوه فى نفوس تلاميذهم أثناء الدرس والتحصيل فى مدارسهم.

يسرنى أن تخرج هذه الطبعة الجديدة بعد مراجعتها، وأرجو من الله أن يهدى القارئ إلى معرفة الحقيقة العلمية والوقائع التاريخية من خلال كتابى هذا.

فى دنيا الصوفية يحس الإنسان المؤمن العابد المحب لله بالسعادة التى تعمل على صفاء نفسه وعلو مقدرته بين المؤمنين.

فى دنيـا الصوفـية تحس يا عـزيزى القارئ بأنفـاس العاشـقين كـرابعة العـداوية، وابن الفارض، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومى، وحافظ الشرازى والحسن البصرى.

فى دنيا الصوفية ترى قطبها وغوثها عاش يـعبد ربه ويسعى لمحبته ويطلب رضاه وحبه هو «أبو يزيد» السطامى.

فى دنيا الصـوفية تسمع عن مـرسى أبو العباس وعطاء السكندرى وتحس بأنفـاس بشر الحافى الذى قال عنه حجة الاسلام الأمام الغزالى رحـمه الله: «ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها غير بشر».

فى دنيا الصوفية كثير من علماء الصوفيـة ذكروا الله كثيراً فأحبوه وأحبهم وأخلصوا له فارضـاهم.. تركوا حـياة المادة ومـا فيـها من أحـقاد وشـهوات وبريق أخـاذ جذاب مـدمر سيطرت عليه الشـياطين، تركوا هذه الحياة رغـبة ورهبة من الخالق وطمعاً فى حـياة أفضل من الله فأعطاهم الله مار غبوا فيه سيرة طيبة يذكرها لهم تاريخهم المجيد، وعلماً واسعاً فى الأدب والأخلاق يرى فيه البـاحـث ضالته الدسمة، والأديب وما يسعـد به، والضال ما ينير طريقه إلى حياة أفضل ليس بها رمال مادية مدمرة.

إلى كل روح محبة للصوفية. وإلى علمـائها الأفاضل أهدى كتابى هذا لعل وعسى أن يكون حافزا للباحثين لسد فراغ هذه الفترة من التاريخ الإسلامى.

وبكتابى هذا أرجو من الله أن أكـون قد حققت عملا طيبـاً يضاف إلى درجاتى يوم أن ألقاه. فإن كنت قد أحسنت عملى رجـوت أن يكون دليلا منى على حسن الوفاء، وإن كان قد فاتنى فيه شئ فهو جهد مبتدئ.

والله وحده ولى التوفيق

عبد الحكيم عبد الغنى محمد قاسم

إهداء

أهدى كتابى:

إلى حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم

عبد الحكيم عبد الغنى قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

ما زال كل ما نعرفه حتى يومنا هذا عن الصوفية ضئيلا ومحدودا بالمقارنة بما ذكره علماء وفقهاء الصوفية فى كتبهم، وحتى هذا الجزء الضئيل من المعرفة بالصوفية غير معروف إلا لفئة متخصصة فى جامعاتنا، ويرجع ذلك إلى عدم الإلمام بمعانى الألفاظ الصوفية لدى الكثير من المتعلمين والمثقفين.

وكتابى هذا لا يحتوى على تفسير لمعانى الألفاظ الصوفية أو توضيح مواجيداهم وليس تأييداً أو معارضة للفكر الصوفى واتجاهاته ومجالاته ومدارسه وعلمائه وفقهائه، وإنما هو بداية جديدة من نوعها فى طريق شاق من الصعب اجتيازه بسهولة نحو بحوث كثيرة فى مجال الفكر التربوى الصوفى الإسلامى فى المستقبل.

ولقد دفعنى حبى لله العزيز الحكيم ولرسوله عليه الصلاة والسلام وغيرتى على الإسلام كعقيده آمنت بها أتحمل تبعة شاقة تشتمل على قراءة كتب الصوفية باستيعاب وفهم وحرص شديد لأتعرف على ما هيه الصوفية وموضوعاتها ومواجيدها ثم قراءة الكتب التى تؤيد فكرهم أو تعارضه. سواء كانت هذه الكتب بلغتنا أو بلغة المستشرفين، وفى النهاية خرجت من هذه القراءات بموضوع كتابى «المذاهب الصوفية ومدارسها».

وفى الحقيقة وجدت صعوبة شاقة من متابعة الفكر الصوفى التربوى فى كتب الصوفية أو المعارضة والمؤيدة، ويرجع ذلك إلى ضآلة تلك الموضوعات فى داخل الكتب الصوفية، ولقد دفعنى الله عز وجل أن أحصل على ما أقدمه فى كتابى هذا.

وكانت خطتى فى بحثى ذات محورين. أولهما: المحور التاريخى الذى يقوم على متابعة الحقائق التاريخية التى أثرت فى هذا الفكر وأدت إلى تطوره. ثم تتبع عوامل قيام

مدارسه خلال الفترات التاريخية، ومحاولة ربط هذه الحقائق والعوامل بالقوى الثقافية فى عصره. سواء كانت هذه القوى أجنبية أو إسلامية. ثم يحلل كل ذلك فى إطار القرآن الكريم والسنة حتى تتيح لنا صورة واضحة شاملة فى الفكر التربوى الصوفى ومدى تطور هذا الفكر خلال العصور المختلفة.

وثانيهما هو المحور الفلسفى الذى يقوم على تتبع التصور الإسلامى للفكر التربوى وهو ما نطلق عليه بمصطلح «الأيديولوجية الصوفية التى تشتمل على عدة نقاط هامة تتركز فى: الزهد ـ الاستغفار ـ الحب الإلهى ـ التوبة ـ الولاية ـ الذكر ـ الإخلاص ـ الجهاد ـ الورع ـ الفقر ـ التوكل ـ المشاهد».

ومن خلال هذه النقاط نصل إلى الفلسفة التربوية الصوفية التى أخذ بها فقهاء الصوفية فى تربية طلابهم الذى لعبوا دوراً هاماً فى المجتمع الإسلامى، والذين وقفوا فى وجه أعداء المسلمين حينما تعرضت الدولة الإسلامية لهجماتهم خلال الفترات التاريخية المختلفة.

ويتبع هذ المحور أيضا مدلول معنى التصوف حتى يصل إلى معرفة أصلة ونشأته حتى يأخذ القارئ فكرة واضحة عن الصوفية، ويكون معداً لمعرفة الفكر التربوى الصوفى.

فإن كان كتابى هذا قد وفى بما كنت أرجو له من منفعة للمسلمين والإسلام يكون ذلك فضل وكرم من ربى العزيز القدير قد منحنى إياه ووفقنى خيرا، وإن اختلفت مع وجهة نظر القارئ فيه فحسبى أننى اجتهدت ولى أجر عند الله.

وحسبى أننى وضحت الملامح الأساسية للفكر التربوى الصوفى، وأضعها أمام نظر الآخرين للقيام ببحوث كثيرة فى هذا الميدان الكبير الصعب، وفقنى الله وأياكم لمنفعة الاسلام والمسلمين والدعوة الإسلامية.

عبد الحكيم عبد الغنى محمد قاسم

الباب الأول

الإسلام دعوة عالمية

تعاريف الصوفية ومدارسها

الديانات وفكرة التصوف

الفلسفة اليونانية

وأثرها على التصوف

الزهد

الفصل الأول
الإسلام دعوة عالمية

دارت الحرب بين الفرس والروم مع بداية القرن السادس الميلادى، وكان القتال بينهما على أشده على حدود بلاد الشام وأطراف شبه الجزيرة العربية على مراكز تموين الجيوش وقواعد تجهيزها وإعدادها للحرب.

شاركت بعض شعوب العالم فى هذه الحروب لتبعد عن نفسها شبح العبودية، أو طمعاً فى جمع الغنائم والأسرى أو طلبا فى نيل حظوة كبيرة لدى الإمبراطورية المنتصرة.

وعلى رمال صحراء شبه الجزيرة العربية كانت القبائل العربية تتبع أخبار هذه الحروب دون أن تشارك فيها. فالحرب الفارسية الرومية لا تعنى القبائل العربية فى شئ ولا تحرك لها ساكنا، وإنما الذى يعنيها فى المقام الأول مصلحتها ومصلحة أفرادها.

وطبيعة الصحراء ورمالها المتحركة فى أقصى جنوب الجزيرة العربية تعوق تحركات أى قوات معادية تحاول السيطرة على سكان شبه الجزيرة، ولذا كان كل من العشب والماء من أهم الأشياء فى حياة تلك المنطقة الجرداء ولا يمكن الاستغناء عنهما وقد تشتعل الحرب فى سبيلهما.

ويعتبر التخلى عن هذين الموردين الهامين تخلياً عن أصول الكرامة والشرف. فإذا أجبرت قبيلة ما على التخلى عنهما فإنها تترك المنطقة كلها إلى منطقة بعيدة.

والعقلية العربية لا تتقبل أى فكر جديد إلا بحذر شديد خوفاً على اضمحلال فكرها، والطبيعة الفكرية العربية بسيطة، ولذا لا تجد الأفكار المعقدة أرضا للنمو والأنتشار بين القبائل العربية. بل إن زعماء وحكماء العرب لا يقفون مكتوفى الأيدى إزاء هذا الهجوم السافر من جانب تلك الأفكار المتغلغلة إلى تربتهم، ولذا يبذلون الجهد فى القضاء عليها أو محاصرتها وعزل مستورديها.

وكانت العلاقات بين العرب وجيرانها من فرس وروم شبه منقطعة ويشوبها شئ من الأستخفاف والاحتقار من جانب الإمبراطوريتين.

اعتبر كل من الفرس والروم العرب أهل بداوة وبربرية وأقل قوة وحضارة منهم، ولذا أطلقوا عليهم ألقابا ساخرة مثل رعاة الإبل والغنم و«الحفاة العراة الجياع».

أخذت الحمية بعض حكماء وزعماء العرب فقرروا إقامة وحدة على هيئة دولة منظمة بين القبائل العربية المتناحرة المتنافرة يمكنها في المستقبل أن تناهض الإمبراطوريتين وتقاتلهما ولكن هذه الفكرة ضاعت فى مهب الرياح، وذلك أن القبائل العربية لا تتخلى عن حريتها المطلقة لاى سبب من الأسباب ومع ضياع هذه الفكرة ظهر النظام القبلى فى ثوب مهلهل يحمل فى طياته عوامل انهياره وفساده ولا يحقق الأمل المرجو منه فى إمكان خلق الشخصية العربية وقوميتها الأصيلة.

تسرب اليأس القاتل إلى نفوس حكماء العرب لفشلهم فى إمكانية أقامة سلام دائم بين هذه القبائل المتناحرة لأتفة الأسباب وأحقرها، ولهذا كانت النفوس تهفوا إلى ظهور نبى يحقق لهم الأمن والطمأنينة، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

وشاء الخالق عز وجل أن يحقق رجاء هذه الشعوب المغلوبة على أمرها والمستعبدة فى حياتها.. والتى لا تملك إلا قوت يومها بظهور النبى المرتقب.

أصطفى الله سبحانه وتعالى «محمد بن عبد الله» ليكون رسولا ونبيا لأمة العرب خاصة وللبشرية عامة. فظهرت البراعم الأولى الإسلامية حول البيت الحرام فى ظل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة، وقام على رعاية هذه البراعم الخالق سبحانه وتعالى فتقضى على الأشواك التى تعوق نموها.

ساعدت العناية الربانية على انتشار الإسلام بين قريش فآمن به من آمن وكفر من كفر. وعارضت قريش هذه الدعوة بكافة الوسائل التى تملكها.

شد الله عز وجل أزر الجماعة الإسلامية وبث فى روحها القوة والشجاعة ووجه سلوكها حتى صارت لها المناعة والقوة، ودخل الناس فى دين الله افواجاً.

وقفت هذه الأمة الإسلامية بعقيدتها القوية وإيمانها بربها وحبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم تواجه بمفردها الفرس والروم فدحرتهما فى صراع عنيف خرجت منه أقوى الأمم وأعظم الإمبراطوريات فى العصور الوسطى، وتتساءل فى إعجاب شديد: كيف

تمت هذه المعجزة لهذه الأمة وكيف أمكنها التغلب على هاتين الإمبراطوريتين رغم قلة عددها وبداوة تخطيطها؟ هل يرجع نصرها إلى عامل الحظ أم هناك عوامل أخرى؟.

الحظ وحده لا يكفى فى هذه الحروب ولا يؤدى إلى النصر، وخاصة على أكبر إمبراطوريتين فى العالم شهد لهما التاريخ بعظمة وروعة ا.ر الحرب عندهما بل لهما القدرة العظيمة التى لا يعوقها قدرة فى حشد الجيوش وتجهيزها وإعداد مراكز تموينها وقواعد تحركاتها ومقدرة رجال الدولة فيهما من الذكاء فى اختيار قوادهما على درجة عالية من الكفاءة والخبرة العسكرية فى تحريك قواتهما فى القتال لتحقيق النصر.

والغريب فى ذلك الأمر أن العرب الذين أطلق عليهم «رعاة إبل وغنم وحفاة عراة جياع» بدو رحل لهم من فنون القتال بساطة فى الاستعداد وبداوة فى التخطيط وقلة فى القيادة. ورغم ذلك واجهوا الإمبراطوريتين معا فى وقت واحد وانتصروا عليهما.

العربى البدوى لا يفرط فى حريته ولا يتنازل عنها حتى الموت، ولا يبغى غير المساواة بينه وبين افراد قبيلته وبينه وبين القبائل الأخرى فإذا فقدها فقد حياته معها. فهو لا يقبل الذل والهوان بل يدفعهما بكل طاقاته.

الخلافات القبلية عديدة وصعبة، ولكنها تحل أحيانا بشئ من الحكمة واللباقة وقد توقد نار الحرب إذا وصلت الأمور إلى طريق مسدود. فيحمل الجميع السلاح ولا تغمد السيوف فى جرابها إلا اذا ارتوت الأرض بدماء قتلاهم، ولذا أتصف العربى بالشجاعة وحماية الجار وحماية الضعيف.

وعلى أطراف شبه الجزيرة العربية ظهرت المسيحية فأحاطت بالقبائل العربية من كل جانب، وفى القرن السادس الميلادى تكاثرت الجماعات التبشيرية المسيحية وصار لها نشاط كثيف لم يسبق له مثيل من قبل.

نتسائل هل تأثرت العرب منها بشئ؟.. لقد وقفت عوامل كثيرة فى وجه انتشار المسيحية فى شبه الجزيرة العربية. أحداها العقلية العربية الفطرية التى تعشق البساطة وترفض الأمور المعقدة فلا تقدم على تشرب المبادئ المسيحية لفلسفة أسلوب مبشريها وطرق علاجهم للمشاكل، ونظرة العرب الى تعدد مذاهبها وتصارعها حول القضايا الهامة

والكبرى فى الحياة.

والعامل الثالث الفرس ودورهم فى نشر الوثنية فى شبه الجزيرة العربية، والعمل على تثبيتها فى أذهان العرب. بل قامت بمحاربة المسيحية بقوة وبشدة. بل حاربوا معتنقيها بكافة الوسائل وأظهروها أمام العرب بمظهر المفسد للحياة.

خلقت الحرية المطلقة لدى العرب البدو مشاكل عديدة وخطيرة فى المجتمع القبلى، وكان ذلك على حساب الفقراء والضعفاء والوافدين إليها من الحروب المتأججة التى لا تستقر والتى تقلب موازين الحياة فيصير العبد حرا والحر عبدا بين يوم وليلة.

غرقت شبه الجزيرة العربية فى وثنية بغيضة تافهة تستخف العقل عاجزة عن التصدى لأمور الحياة الخطيرة. فلا تمنع ظلما ولا تغلق أبواب الفسوق والفجور ولا تهاجم فكرا منحلاً، ولا تفك قيود العبودية، ولا تنكر أقبال الشباب إلى الملذات والمتعة.. ولا تهدى إلى الخير والفلاح والعمل الصالح فى قليل وكثير، وصارت العقول الناضجة المفكرة تشعر بخطر جسيم يهدد كيانها ويزعزع بقاءها وقدرتها ويطيح بكل ما يملكه الإنسان من روح وعقل وقلب.. فكرت هذه العقول فى أمرها بشئ من الروية والتبصر والحكمة والهدوء.. عرفت هذه العقول المفكرة عوامل الخطر وطرق العلاج، ولكنها عجزت فى أن تفعل شيئا فظلت معرفتها هذه حبيسة الصدور.

ظهرت فئة قليلة فتحت أبواب عقولها على ما حولها وخرجت عن معتقدات أجدادها فالتمس بعضهم المسيحية أو اليهودية، وظل الباقى بلا عقيدة حتى بعث الله «محمد بن عبد الله» نبياً فلبوا دعوته وانخرطوا فى سلك الإسلام ودافعوا عنه وعن العقيدة الإسلامية بكل قوة وضحوا بحياتهم فى سبيل الله حبا فى رضاه أو قربا منه أو رغبة فى النعيم فى أعلى الجنان.

وفئة أخرى تصدت للظلم والظلمة وعقدت حلفا عرب بـ «حلف الفصول» شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاهدوا فيه على أن ينصفوا المظلوم على ظالمه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم».

وهناك الفرس العدو الخارجي يتربص بسكان الصحراء شرا، ويأمل أن تكون أرض العرب فى يديه، ولكنهم كانوا فى معاناة شديدة من مؤامرات واضطرابات حول العرش الفارسى.

أبرهة الأشرم يزحف بجيوشه وفى مقدمتها سلاح جديد ـ لم يعرفه العرب من قبل وهو سلاح «الفيلة» نحو مكة ليهدم «الكعبة» ويدمر البيت الحرام الذى قدسه العرب منذ بعثة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فدمره الله سبحانه وتعالى وقتل جنوده حيث قال سبحانه وتعالى:

«ألم تر كيف ربك بأصحاب الفيل، الم يجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول».

ونتسائل: لماذا أقدم أبرهة الأشرم نحو فعتلته هذه التى دمرته؟.

ويرجع إلى أن العرب أنزلوا ذلك البيت الحرام منزلة كبيرة أقاموا حولة مدينة تجارية عندها تلتقى الطرق التجارية العالمية. فازدهرات حياتهم الاقتصادية ازدهارا لم يعرف له مثيل من قبل فى عالم الاقتصاد.

لقد أفسح النظام الاقتصادى القائم فى مكة لفئة قليلة من شبابها ورجالها أن تمتلك المال والجاه والقصور والجوارى والعبيد، وأن يهيئ هذا النظام الاجتماعى المنبثق من النظام الاقتصادى الجديد للشباب أن يغرق نفسه فى ملذات الحياة ومتعها، ورغم مقومات النظام الاجتماعى إلا أنه عاجز عن أن يفعل شيئا فى تغيير الفكر، ولذا صار الكل يرجو أن تأتى السماء بمعجزة فتأخذ بيدهم إلى الخير.

فى غمرة كل ذلك وصلت الأنباء بظهور نبى من قريش هو «محمد بن عبد الله» صلى الله عليه وسلم.. فالتفوا حوله مؤمنين بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر.

«محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم من أشرف القبائل العربية ومن أعظم بيوتها حسبا وأنبلها نسبا، وقبيلة قريش أهل الحرم وسدنة البيت الحرام لا تمتد إليهم الأيدى ولا الألسن بشئ من السوء فهو من أكرم البيوتات «القرشية» وجده «عبد المطلب» عميد البيت الهاشمى عزيز المكانة حكيم مرموق الجانب. شريف كريم إلى أبعد حدود الكرم. كلمته

مسموعة بين أهله.

«محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تربى فقيراً ويتميًا بين أهله فهم يرحمونه ويكرمونه ويجلونه. أخذ الحكمة وتعلم الصبر. كان ذو خلق نبيل. عاش فى مكة راعيا وتاجرا أدبه ربه فأحسن تأديبة فخرج للحياة وهو فى أدق ذرات الصدق وأرقى أنواع الأمانة.

فهو ذو خلق عظيم أمين صادق، وهذه صفات النبوة «محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم بين الناس مهذب لطيف مهيب الجانب يملك بين ضلوعة قلبا ذكيا ونفسا أبية. له شخصية متكاملة يحترمها كل من يتعامل معه أو يراه أو يتعرف عليه له نفس عالية جذابة فهو لبق الحديث حكيم فى الفكر ثابت فى اليقين رابط الجأش.

هل صفاته هذه وقوة وعظمة شخصيته هى العامل الوحيد الذى أدى إلى توحيد العرب والتفافهم حول رايته وقيام الدولة الإسلامية؟.

أم هناك التعاليم الإسلامية التى بعث بها هى العامل الأساسى فى توحيد العرب وإقامة إمبراطوريتهم الكبرى؟.

الواقع أن أمة العرب قامت على العاملين معاً متمثلة فى قوة شخصية «رسول الله» صلى الله عليه وسلم وخلقة وأمانته وصدقة وقوة العقيدة وعظمة تعاليمها اليقينية.

«محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم له من العظمة الخلقية والروحية ما جعله القدوة الحسنة والمثل الأعلى لأصحابه، وتفوق هذه العظمة تمسكه بالحق وحرصه الشديد على هداية أهله وعشيرته وصبره على أذاهم وعدم إقباله على ملذات الحياة وعدم حبه للملك والمال. كل هذا دفع العرب إلى أن يلتفوا حوله ويقدمون له الطاعة، ولا ننسى خبرته فى معرفة طبائع من حوله وحكمته فى معرفة جوانب الحياة، ويظهر ذلك من بعد نظره ويقظته وسرعة خاطرة، وقوته فى حزم الأمور، وما تفجر منه من علم ومعرفة وبلاغة يقف أمامها كل العالم فى إجلال وهيبة.

هذه الجوانب التى استعرضتها لها الاثر الكبير فى جمع كلمة العرب والتفافهم حول راية الإسلام، وليس هذا وحده بكاف فى إقامة دولة إسلامية كبرى لها استمراريتها واتساعها وازدهارها.

فلولا العقيدة الإسلامية وتعاليم الخالق سبحانه وتعالى لم تقم لهذه الدولة قائمة.. التعاليم الإسلامية فى غاية العمق. ملائمة للبشر مخاطبة للعقل مناسبة لفطرة الإنسان ملائمة لتطور الحياة بل تسعى إلى تطويرها.

فى الحقيقة قرأنا كثيراً فى كتب التاريخ عن أعظم الشخصيات الذين أقاموا دولا على أكتافهم من أعظم الدول وعلى أحدث الأنظمة.. ولكن بنهاية هذه الشخصيات انهار كل شئ ولم يبق إلا الحكام. فالدولة قامت بوجود هذه الشخصيات وانهارت واندثرت بوفاتهم.. أما الدولة الإسلامية فظلت باقية رافعة أعلامها ثابته الأقدام. جذورها فى الأرض بعد وفاة «رسول الله» صلى الله عليه وسلم.

«محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم وقوة شخصيته وأخلاقه التى ذكرها الله فى كتابه القرآن الكريم «وانك لعلى خلق عظيم» لازمة للدولة الإسلامية فى بدايتها ونشأتها وحينما وصلت هذه الدولة إلى طور الرشد والقوة صارت هذه التعاليم الإسلامية هى الطريق المستقيم التى اتخذها العرب نحو إقامة امبراطورية كبرى فى العالم.

لقد اقتحمت هذه التعاليم السامية الجليلة وجدان العرب فخلقت الصفاء فى نفوسهم وربطت قلوبهم بروابط الأخوة، وأشعرتهم بالمساواة. فالفقير والغنى يركع حبا ورهبة وخشوعا لله سبحانه وتعالى فى صف واحد كلهم عباد الله لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

مساواة وإخاء وحب وإخلاص تصفى القلوب وتطهر النفوس وتسمو بها إلى إدراك سنة الله فى الكون. فيشعر المؤمن بصلته بالله فيسبح باسمه ويذكره كثيراً ويدعوه فى السر والعلانية.

الإسلام دعوة إلى أدب النفس وتهذيبها روحيا. أساسه الإيمان بالله واليوم الآخر وقوة العقل وتزكيته، ولذلك لم يكن دين جماعة دون أخرى، وإنما هو دين للبشرية جمعاء و«محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولا لجماعة دون أخرى، وإنما رسولا لكافة البشر، ووطن الإسلام ليس شبه الجزيرة العربية أو العالم العربى إنما وطنه العالم كله ولذا كانت الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ودليل ذلك دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العالم إلى الإيمان به والدخول فى الإسلام.

انتقل «محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وترك أتباعه وأصحابه فاندفعوا فى نشر دعوته فى قوة وصلابة وخشوع. رحبوا بالموت وقاتلوا فى سبيل الله وجاهدوا من أجل العقيدة خارج حدود شبه الجزيرة العربية، ولم تمض إلا سنوات عديدة بعد حروب الردة وقتال المرتدين وإخضاعهم تحت سيطرة الدولة الإسلامية حتى أندفعوا نحو الفرس والروم.

يدعى المستشرقين بأن الذى دفع المسلمين الأوائل إلى الغزو لدولتى الفرس والروم الشهوة فى جمع الغنائم والأسرى.

فى الحقيقة هذا ادعاء باطل. فكيف لأمة قليلة العدد والعتاد تخاطر بحياتها ومستقبل أبنائها فى غزو أكبر إمبراطوريتين فى العالم لهما من قوة السلاح وخبرة فى التخطيط الحربى وكفاءة فائقة فى إعداد الجيوش ومقدرة فائقة فى قيادتها إرضاء لشهوة جمع الغنائم والأسرى وإلى متى يرضى الناس أن يضحوا بحياتهم طمعا فى ذلك، وقد تزهق أنفسهم قبل أن تصل أيديهم إلى ما تهفوا إليه أنفسهم، وإلى متى يرضى الناس بذلك؟.

ألست معى بأن الحرب كانت نابعة من الإيمان الصادق بالعقيدة الإسلامية، ويدفعهم الحب لله ورسوله إلى ميادين الشرف والبطولة حتى يرضى عنهم خالقهم ويدخلهم جناته التى وعدهم بها.

واجه المسلمون الأوائل الفرس والروم وهم فى أوج عظمتهم فانتصروا عليهم وقضوا على الإمبراطوريتين معا، ودحروا عروشهما وسلطانهما، وقضوا على ملكهم وسجلوا لأنفسهم صفحات ناصعة من نور.

نتسائل فى شئ من الإكبار والإعجاب: كيف يتم هذا النصر الكبير للمسلمين مع قلتهم فى العدد وضعفهم فى العتاد. رغم ما لدى أعدائهم من خبرة وكثرة وبأس شديد وحضارة عريقة. أصحاب كفاءة فى القيادة والتدريب والتخطيط والمتابعة، ولهم صفحات فى تاريخهم الحربى تشهد لهم بالحنكة. أما المسلمون فتاريخهم الحربى ضئيل وخطتهم العسكرية بدوية لا تؤدى إلى النصر، وليست لهم كفاءة فى القيادة وإنما حروبهم حروب بدو تعتمد على الكر والفر. فما سر نصرهم. وما سر هزيمة هاتين الإمبراطوريتين؟

سر ذلك كله فى أن العدو الفارسى الرومانى كانوا فى وحدة ظاهرية أوجدتها الأحداث التى كانوا فيها.. لكن نفوسهم كانت مشحونة بالحقد والضيق والإقبال على متع الحياة وزخرفها، وعقولهم معمورة بالمشاكل الشخصية ولم يفكر قوادهم بأن لوطنهم عليهم حقا فلو كتب لهم النصر على المسلمين لعادوا إلى ما كانوا عليه من مؤامرات وفتن واضطرابات وقتال حول العرش وابتغاء الوصول إليه. هذه حقيقة واضحة يقررها تاريخهم بأنهم مختلفون فى السر وفى وحدة ظاهرية نتيجة الحروب مع المسلمين.

هذا هو قائد الفرس العظيم «رستم» وضع فى الحرب وهو غير راضٍ عنها ووضعت أمته حياتها ومستقبلها فى يديه فماذا فعل بهما؟.

نسى هذا القائد كل شئ.. نسى وطنه ومقدساته.. نسى حضارة بلاده ومستقبل أبنائها. عرف نفسه وملذاتها وأطماعها.. عرف مؤمراته وكيف يصل العرش والقيادة فلو عرف رستم أن موته وحياته شئ واحد فى سبيل بلاده لارتفعت نفسه على الأحقاد والمؤامرات والفتن والتكالب على الملذات والشهوات، ولسرى ذلك بين جنوده كما تسرى الكهرباء فى الأسلاك فيندفعوا إلى الموت كاندفاعهم إلى الحياة، ولكن الجنود كقائدهم صارت أرواحهم عندهم أعز من وطنهم ومستقبله.

لقد ساقهم رستم إلى المعركة بنفوس مشحونة بالأطماع والشهوات وحركهم بدون أهداف يسعون إلى الحرب فكيف ينتصروا؟ وأى حق يطالبون به نحو وطنهم؟.

جيش فارسى كثير العدد والعتاد بلا روح ولا هدف أمام جيش تحركه روح عالية مؤمنة بربها ورسوله، ومؤمنة بالموت، ومؤمنة بما أعد لها من نعيم فى الآخرة. فأى الفئتين يحقق النصر فى هذه المعارك.. بالتأكيد كتب الله على الفرس والروم الهزيمة وضياع إمبراطوريتيهما إلى الابد.

اندفع المسلمون فى بقاع الأرض يحالفهم النصر فى غداواتهم ورواحاتهم، ولم تقف فى وجههم أى قوى حتى توقفوا أمام أبواب بلاد الصين شرقا حتى المحيط الأطلنطى غربا فاستقرت التعاليم الإسلامية فى نفوس أهل تلك البلاد.

أقام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم العدل والإخاء والمساواة كما نزلته

السماء بين الناس. فدخلت تلك البلاد فى دين الله أفواجا فى اقتناع، وأحبت الله ورسوله فأعزت الإسلام واعتزت به.

صارت الإمبراطورية الإسلامية لا مثيل لها من حيث القوة والاتساع، ولم يخضع الناس فيها لشعب من شعوبها ولا ملك من ملوكها يسيطر عليهم بقوته، وإنما كانت مثل هيئة الأمم المتحدة تسعى نحو أهداف إنسانية وتسمو بالناس نحو غاية كبرى، وأن تكون هناك روابط بين الناس وهى روابط الحب والرحمة والعدل والإخاء، وأن مقر الحكم فى الدولة الإسلامية مثل مقر الجمعية العامة فى الأمم المتحدة وأن العواصم الإسلامية هى عواصم للعمل والفن والصناعة والتجارة.

بهذا ظلت الدولة الإسلامية قوة متماسكة بتعاليم الله وسنه نبيه عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثانى
تعاريف الصوفية ومدارسها

ظهرت بذور التصوف فى سماء الفكر الإسلامى فى بداية القرن الثانى الهجرى على هيئة نزعات شديدة من الزهد فى متاع وزخرف الدنيا نتيجة ما وقع فيه العالم الإسلامى وقتئذ من حوادث شديدة أثرت تأثيراً كبيراً فى جميع جوانب الحياة. وإن كان بعض الباحثين يرجع ظهور التصوف إلى عاملين. أولهما الذنوب التى يقترفها العاصى المسلم ومحاولته محوها بطلب المغفرة من ربه، والعامل الثانى يتمثل فى الرعب الشديد الذى ينتاب العصاة من اليوم الآخر وما أعد فيه من عذاب شديد لهم مما يجعلهم يطلبون التوبة من خالقهم والزهد فى الحياة.

ولقد تعدد التعاريف لكلمة التصوف التى وردت فى كتب كل من القشيرى ومذكرة الأولياء لفريد العطار ونغمات الأنس لجامى، والتى لا تعطينا معنى شاملا مانعا لكلمة الصوفية، وان كانت هذه التعريفات توضح مدى التطور الذى شمل الفكر الصوفى خلال القرنين الثالث والرابع الهجرى.

ومن التعريفات أن بعض الباحثين يرى أن هناك صلة قوية بين لفظ صوفى ولباسهم الصوفى الذى كان يميزهم عن بقية المسلمين(١).

ويعطينا بعض الباحثين تعريفا آخر بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا رعاة للأغنام وأنهم اتخذوا من أوبارها ملابس تقيهم البرد فى الخلاء.

وهذا الخلاء الواسع الفسيح الذى يغمره الهدوء ويشجع على التفكير العميق فى أمور الدنيا وما فيها من متع وزخرف وما فيها من شقاء وبلاء وفى النهاية زوالها، توصل الأنبياء قبل بعثهم إلى أممهم بأن هذا الكوكب ومن فيه سائر إلى حياة أفضل ونعيم مقيم أعده الخالق لعباده المؤمنين. قد أدى كل هذا التفكير إلى الانقطاع للتأمل والعبادة وللزهد فى الدنيا(٢).

---

(١) التصوف الإسلامى وتاريخه: ترجمة دكتور أبو العلا عفيفى لجنة التأليف والترجمة ص٤ طبعة ١٣٨٩هـ.

(٢) عبد الرازق نوفل: التصوف والطريق اليه: مطبعة الشعب ص١٤

وقد تداولت هذه الكلمة فى القرن الثالث الهجرى، ويقال: أول من استعمل لفظ صوفى هو الجاحظ البصرى عندما كان يتكلم عن النساك فى عصره، وأن أبا هاشم الكوفى أول من لبس الصوف وأطلق عليه متصوفاً، لأنه زهد فى الدنيا وما فيها من متع وزخرف ويقول فيه صاحب نفحات الأنس.

«أنه كان أول من تسمى بالصوفى»

ويحبذ جمهرة فقهاء الصوفية أن هناك صلة قوية بين لفظ صوفى وبين أهل الصفة «وهم فقراء المسلمين فى الصدر الأول الإسلامى» قد انقطعوا للعبادة وملازمة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة وعاشوا على صدقات أغنياء المسلمين عليهم، وذلك لظروفهم التى وقفت حاجزا عن السعى وراء الكسب المادى والرزق.. ظلوا فى المسجد للعبادة لا يسألون أحدا من المسلمين. يحسبهم الناس أغنياء من التعفف قد ذكروا ذلك فى كتاب الله عز وجل.

«للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا»[1].

وهناك رأى ثالث يرجعه صاحبه إلى العصر الجاهلى ـ أى قبل الاسلام بعدة قرون حيث كان يخدم الكعبة رجلا وهبته أمه فى خدمة البيت الحرام، وكان يدعى «الغوث بن بركان» انقطع هذا الرجل للعبادة وخدمة الكعبة والعمل على نظافتها وعنه أخذت قريش فكرة سدنه الكعبة، وقد أطلق عليه «صوفى» وعرف بهذا اللقب طوال حياته ويرى صاحب هذا الرأى أن لفظ التصوف مشتق من اسمه[2].

ويقول بعض الباحثين إن كلمة التصوف مشتقه من لفظ الصفاء الذى يعمر قلوب الزهاد، ويستدلوا على ذلك بقول أحد المتصوفة وهو أبو الفتح البستى حيث قال:

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا

ظنوه مشتقا من الصوف

---

(١) البقرة: ٢٧٣

(٢) التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق: دكتود زكى مبارك. المطبعة العصرية بيروت جـ١ ص٤١

ولست أنحل هذه الاسم غير فتى

صافى فصوفى حتى لقب الصوفى[1]

وقد وصفهم أهل الشام بالفقراء واستندوا على ذلك لقول الله عز وجل:

«يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد»[2].

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام.

«يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»

ويقول أحد المتصوفه وهو «سرى السقطى»:

«لا تأخذ من أحد شيئا ولا تسأل أحدا شيئا، ولا يكن معك ما تعطى منه أحد شيئا».

ويقال إنهم سموا بهذه اللقب لتخليهم عن أملاكهم والرغبة فى العيش فقراء[3].

وقد أطلق عليهم عدة صفات منها «جوعة» لأنهم لا يتناولون طعامهم إلا بنذر ضئيل أو «غرباء» لخروجهم من أوطانهم أو «سائحين» لكثرة أسفارهم أو «متوكلين» لأنهم تجردوا عن إرادتهم وتركوا الأمر كله لله عز وجل[4].

وقد حاول بعض الباحثين أن يربط بين كلمة صوفى العربية إلى كلمة صوفيا اليونانية ومعناها الحكمة، وأن يقارن بين الكلمتين وما يضفيان على أهلهما من حكمة وأقوال مأثورة[5].

ويرى معروف الكرخى (المتوفى ٢٠٠ هـ) أن معنى التصوف فى الحقائق التى يحصل عليها الصوفى، والعفة عما هو موجود عند الناس من منصب مال أو جاه فقال:

«التصوف الآخذ بالحقائق واليأس عما فى أيدى الخلائق»

أما سليمان الداراني (المتوفى ٢١٥ هـ) فقد صور لنا أن أعمال الصوفية من عند الله الخالق سبحانه وتعالى، وأنه مع الخالق دائما وأن حاله لا يدرى بها إلا الله سبحانه وتعالى بقوله:

---

(١) التصوف على مذهب التصوف: أبو بكر الكاباذى تحقيق محمود النواوى ص٣٣

(٢) فاطر: ١٥

(٣) محمد يوسف محمد: الصوفية وأثرهم ـ رسالة الماجستير ص١٣

(٤) التصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث: دكتور مصطفى حلمى ص١٠

(٥) ذو النون المصرى: طبعة أولى دار الشروق: بالقاهرة: السيد أبو حنيف ص٤٣

«التصوف أن يجرى على الصوفى أعمال لا يعلمها إلا الحق، وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو».

أما بشر الحافى (المتوفى ٢٢٧ هـ) فقد وضح أن أهم مواصفات الصوفى هى صفاء القلب من الحقد والضيق والهم والقلق، ومن أى رغبة من رغبات الحياة المتمثلة فى المال والمنصب والشهرة بقوله:

«الصوفى من صفا قلبه لله».

ويوضح لنا ذو النون المصرى المتوفى (٢٤٥ هـ) بأن أحوال ومعاملة وكلام الصوفى هى حقيقته الواضحة وأن علاقاته الدنيوية من متاع وزخرف ومتعة منقطعة تماماً.. وأن أحواله ومعاملاته وكلامه تدل على ما فى داخله بقوله «الصوفى هو إذا نطق كان كلامه عن حاله. فهو لا ينطق بشئ إلا إن كان هو ذلك الشئ».

«وإذا أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن أحواله وكانت ناطقة بقطع علائقة الدنيوية عن حاله».

ويرى سرى السقطى (المتوفى ٢٥٧ هـ) بأن العلم والورع مكملان لبعضهما، وأن الكتاب (القرآن الكريم) والسنة هما أساس العلم الصوفى، وأن الكرامات التى تعطى للصوفى لا تعطيه الحق فى إباحة محارم الله.. فيقول:

«التصوف اسم لثلاثة معانٍ وهو الذى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله».

ويرجع سهل بن عبد الله التسترى (المتوفى ٢٨٣ هـ) التصوف إلى عدم النهم فى الأكل والاتجاه إلى الله والفرار من الناس وما يخوضون فيه حيث قال:

«التصوف قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس».

وقد وضح الجنيد البغدادى (المتوفى ٢٩٧ هـ) صفات الصوفى كاملة بقوله:

«التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم

الحقيقة، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصح الخالص لجميع الأمة، والإخلاص فى مراعاة الحقيقة».

واتباع النبى صلى الله عليه وسلم فى الشريعة[1].

وقد وضح لنا المستشرقون معنى التصوف وخصائصه العامة بأنه فلسفة حياة، وطريقة فى السلوك الفردى لتحقيق المثالية الاخلاقية والسعادة النفسية، ويصعب التعرف على حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية ذاتية[2].

ويرى كبار الباحثين فى التصوف ومنهم عالم النفس الأمريكى وليم جيمس أن للتصوف عدة خصائص هى:

١ ـ أحوال إدراكية وهى إلهامات تأتى للمتصوف وليس معرفة برهانية.

٢ ـ أحوال وجدانية يصعب نقلها إلى الآخرين فى مضمون لفظى دقيق.

٣ ـ بقاء هذه الأحوال وهى قصيرة فى ذاكرة المتصوف.

٤ ـ لا تحدث بإرادة المتصوف وأنها خاضعة لقوة خارجية تسيطر عليها.

إن كلمة تصوف من الكلمات الغامضة التى تعددت تعريفاتها ومفاهيمها، ويرجع ذلك إلى تداولها بين الديانات المختلفة والحضارات الإنسانية على مر العصور التاريخية. كما أن كل صوفى يخضع تعبيره للتجربة التى خاضها فى إطار ما يسود عصره من أفكار، ولا يخضع لحضارة مجتمعه من تطور أو اضمحلال، وأن هذه الكلمة لا ترد فى اللغة العربية كما لا يوجد لها أصلا فى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. كما أن الباحثين لم يجمعوا على تعريف شامل جامع لها.

---

(١) انظر كتاب: فى التصوف الإسلامى وتاريخه. ترجمة أبو العلا عفيفى طبعة لجنة التأليف والترجمة ص ٢٨ ـ ٤١

(٢) انظر مدخل الى التصوف الإسلامى. دكتور أبو الوفا الغنيمى ص١٠ ـ ٢٥

مدارس البحث الصوفى

لم يفكر العالم الإسلامى فى إقامة مدارس للبحث العلمى تبحث الفكر الصوفى، بل إن ما يقدم الآن مبنى على القدرات الفكرية الفردية.

أما فى الغرب الأوربى فقد قامت المدارس المختلفة لإخضاع الفكر الصوفى الإسلامى للبحث العلمى، وقد قدمت هذه المدارس بعض البحوث التى قامت على الأسلوب الذاتى وليس الموضوعى.

عمدت هذه المدارس إلى إيجاد صلة بين التصوف وبين المسيحية وبين الديانة الهندية والفارسية. وقد تعرضت هذه المدارس لدراسة الجانب التصوفى لأغراض استعمارية، أو أظهار المسلمين فى صورة مرضى نفسيين وأنهم يعيشون فى غيبوبة مستمرة وتشنجات شديدة نتيجة ما يحدث لهم فى حلقات الذكر التى تقام فى المساجد ومن أهم هذه المدارس هى:

١ ـ المدرسة الإنجليزية:

تقوم هذه المدرسة ببحث أصول التصوف وجذوره الممتدة إلى الرهبنة ورياضيات الهنود ومنهجها الاستقرائى، والتصوف الإسلامى فى نظرها ظاهرة من الظواهر الجزئية لتصوف عام.

٢ ـ المدرسة الألمانية:

تبحث هذه المدرسة فى المؤثرات الداخلية فى التصوف بسبب اتصال المسلمين بالديانات الهندية والفارسية واليهودية والمسيحية، ومنهجها المنهج الفلسفى، ودراستها للتصوف على أنه ظاهرة نفسية.

٣ ـ المدرسة الفرنسية:

دراسة هذه المدرسة منصبة على أن التصوف الإسلامى يشبه تماماً.

التصوف المسيحى (الرهبنة) وأن جذور التصوف الإسلامى ممتدة إلى المسيحية، وتؤخذ عنها، ومنهج المدرسة المنهج الروحى وهو منهج غير علمى.

٤ - المدرسة الأسبانية:

تشبه المدرسة الفرنسية فى ايجاد أصل التصوف الإسلامى من التصوف المسيحى، والمنهج نفس المنهج فى المدرسة الفرنسية. دراستهما منصبة على أن التصوف ظاهرة اجتماعية.

مراحل التطور الصوفى

قسم علماء التصوف والباحثين فيه مراحل التطور الصوفى إلى مراحل ثلاث هى:

المرحلة الأولى:

ظهر التصوف فى هذه المرحلة على أنه زهدا فى الحياة الدنيا والبعد عن متعتها واختيار الحياة الأخرى وما فيها من نعيم مقيم للمؤمنين، ويقوم المسلم على مجاهدة نفسه على الاستقامة والطاعة لله عز وجل واتباع ما جاء فى الكتاب والسنة، وقد ظهرت هذه المرحلة فى الصدر الأول - القرن الأول والثانى الهجرى.

المرحلة الثانية:

دخلت بعض الأمم الإسلام نتيجة الفتح الإسلامى لها، وأقبل الناس على الحياة من متع وملذات، وتكالب الخلفاء على الحكم، وانقسم المسلمون بين معارضين ومؤيدين للحكام فكان لابد أن يواجه علماء التصوف هذه الظواهر التى جدت على المجتمع الإسلامى فأضافوا إلى التصوف تعبيرات جديدة. هذه التعبيرات مستمدة أيضا من الكتاب والسنة مثل الفقر، ثم أرادوا أن يميزوا بينهم وبين بقية المسلمين فاختاروا الملابس الصوفية التى عرفوا بها على مر العصور المختلفة.

المرحلة الثالثة:

امتزجت الثقافات الوافدة إلى المسلمين من الدول التى دخلت الإسلام مع الثقافة العربية، وأعلنت عن مولد ثقافة جديدة هى الثقافة الإسلامية فكان لابد أن يواجه علماء التصوف هذه الظاهرة بإدخال بعض التغييرات وبعض الظواهر من حيث ترتيب المقامات والأحوال ونظام السلوك والآداب التى فى الكتاب والسنة وتوافق الشرع وتؤكد السير عليه.

الفصل الثالث
الديانات وفكرة التصوف

تعددت الآراء حول قضية مصادر التصوف الإسلامى ومنها أن التصوف قد ظهر فى بادئ الأمر بخراسان. وهى إحدى مدن فارس القديمة حيث تلاقت فيها معظم الديانات والثقافات الشرقية، ولما دخل الإسلام نتيجة الفتح الإسلامى لها يقال إنها صبغت بعض المبادئ الإسلامية بالصبغة الصوفية القديمة التى كانت تؤمن بها خلال فترات تاريخها القديم.

أما الرأى الثانى فيوضح لنا أن أحتكاك العرب فى شبه الجزيرة العربية بالمسيحية المجاورة لها. سواء كان ذلك أيام التجارة القديمة أو أيام الفتح الإسلامى لدول المنطقة المجاورة أدى ذلك إلى دخول بعض المسيحيين الإسلام ونقلوا معهم بعض الأفكار المسيحية عن الرهبنة إلى الزهد الذى تطور إلى التصوف.

أما الرأى الثالث فهو أن الصوفية قد نقلت أفكارها نتيجة حركة الترجمة التى قام بها العرب المسلمون للعلوم اليونانية القديمة ونقلوا معها الحكمة اليونانية. بل يرجع أصحاب هذا الرأى إلى ذى النون المصرى أحد المتصوفة ـ أنه كان على علم بالحكمة اليونانية فى عصره.

ويؤكد هذا القول صاحب كتاب التصوف الإسلامى الأستاذ رينولد.

«لكنى على يقين من أننا اذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التى أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ـ استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندى أو فارسى، ولزم ان تعتبره وليد اتحاد الفكر اليونانى والديانة الشرقية أو بعبارة أخرى وليدا لاتحاد الفلسفة الأفلاطنية الحديثة والديانة المسيحية».

وعلى هذا وجب علينا أن نستعرض الديانات. وهل لها صلة بالتصوف؟ حتى نعد الأذهان لتقبل الفكر التربوى الصوفى.

أولا ـ الديانة الفارسية

انتشرت الديانة الزرادشتية فى ربوع بلاد إيران وكانت هذه الديانة فى الأصل هى دين

الميـدين والفرس. ومـا أن مات صـاحب هذه الديانة والداعى إليـها حـتى هجم دارا الأول ملك الفرس والمـيدين بجيـوشه الجرارة على شـبه جـزيرة بلاد اليونان وحطم عـاصمتـها، وأصبحت هذه الشعوب فى يوم وليلة تدين بهـذه الديانة. بل تعمل على نشرها والتعصب لها.

وقد بلغت الدعوة لـلديانة أوج عظمتها فى عهـد الإمبراطورية الاكمنيـة وكانت تشـمل شعوب بكتريا وميديا وفارس، وقد اندمجت هذه الشعوب فى تلك المناطق وصارت تدين بهذه الديانة وتدافع عنها وتتعصب لمبادئها وقيمها وأساليبها.

ولما فكر الإسكندر الأكـبر المقـدونى فى غـزو فارس وتحطيم مملـكتهـا انتقلت الدعـوة الرسمية إلى أيدى رجـال الدين، وهم طبقة الكهنة فى الديانة الزرادشتيـة الذين قاموا بنشر هذه الديانة فـأوفدوا المبـشريـن إلى جمـيع بقاع الدول التى تـقيم فى المناطق المجـاورة لهم ونتيجـة لذلك خضعت كل من أرمـينية وكبال ودوشيـال وليسيا تحت نفـوذ الديانة الوافدة إليهم.

وقد جمعت جميع التعاليم لهذه الديانة فى كـتاب سمى بالأبستاق والذى قام بجمعها «اويستـر» ملك من ملوك الساسـانيين وهو الذى أقـام الحكم الساسـانى فى فارس.. وفى عـهد الملك شـاهيـور انتـهى من الشكل الكامل لكتـاب الأبسـتاق، ثم حـطمت الجيـوش الإسلامية المملكة الفـارسية وانتشر الإسلام فى ربوعها وقـضى على الديانة الزرادشتية. بل اعتنق كثـير من الزرادشتين الديانة الإسلامـية وهاجر جزء منهم إلى الهند، وحـملوا معهم معتقـداتهم الدينية وقد أطلق عليهم اسم «مجـوس الهند» وقد صار لهم ثروة كبيـرة نتيجة القيام بالأعمال التجارية فى الهند، وكونوا طبـقة خاصة لا يقبلوا فى جماعاتهم أى أجنبى. وظلت الديانة المجوسية كما هى لم تتأثر بأى معتقدات أخرى حتى يومنا هذا.

وتؤمن الديانة الزرادشتية بوجـود ألة أعظم يعلم الماضى والحاضر وهو خالق الخلق كله ويطلقون عليه اسم «اهرمزدا» ومخاطبة زرازشت للإلة كـما يخاطب صديق حميم له كما يوضح لنا فى الأبستـاق أنه حبيب الإله، وأنه سـيظل يمدح الإله حتى يمـوت، أما الملائكة فى نظره فـهم الذين يتـقبـلون الصلاة من الإنسـان فى مـعـابد النار لهـداية المؤمنين الذين

يزورون هذه الأماكن المقدسة.

ويعتقد زرادشت أن الفيصل بين الخبيث والطيب هو النار. كما أن الخير فى نظره هو الإله أما الشر فى نظره فيرجع إلى «اهرمن» وهو الشيطان وأكدت الديانة أن الخلاص من القيود المادية إلى الحياة الروحية لا يتحقق إلا عن الطهارة الخالصة التى تأتى عن طريق التحرر النهائى من الجسد وقيوده.

وتؤمن الديانة الزرادشتية بالأشياء الروحية والمادية التى يتألف منها الكون. هذا جوهر الديانة الزرادشتية.

أما رأى الباحثين بأن التصوف الإسلامى قد تأثر بالديانة الزرادشتية مثله مثل السياسة، ويستدلون على ذلك بقولهم إن منصب الخلافة فى العصر العباسى قد انتقل من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين وقد أنشئ منصب الوزارة وأسند إلى الفرس الذين ساهموا فى إقامة الدولة العباسية وأسند إليهم أيضا مهنة التدوين والترجمة بالرغم من أنهم دخلوا الإسلام ودافعوا عنه، فقد نقلوا أفكارهم الفارسية إلى المجال الإسلامى فى كل شأن من شئون الحياة، والدليل الثانى أن هناك صلات بين العرب والفرس موجودة منذ دخول الفرس الإسلام ولهذا اتصل شيوخ الصوفية بالفرس كما أن جزءا كبيرا من الشيوخ أصله فارسى، ومن هنا يكون التصوف الإسلامى قد تأثر إلى حد كبير بأفكار وقيم ومبادئ الفرس.

أما أصحاب الرأى المعارض فى ذلك فيرون أن هذه الأدلة ليست قاطعة فى حد ذاتها مستدلين بأن الدولة المغلوبة دائما تتأثر بالدولة الغالبة وأن المسلمين من الفرس آمنوا بالإسلام بدون ضغوط تاركين معتقداتهم القديمة مستقين أفكارهم من المنبع الجديد «القرآن الكريم» وهو المنبع الأصلى للصوفية ويغنى عن كل منبع آخر.

ثانيا ـ الديانة الهندية

الهند مهد حضارة قديمة منذ ثلاثة آلاف سنة وهى ذات تاريخ مجيد وحضارة متماسكة الحلقات والذى يمهنا من الحضارة هى ديانتها القديمة وقوامها عبادة «البترا» معبود مقدس تقدم اليه الهدايا ويعمل الكهنة فى خدمة هذا الإله مع إقامة الطقوس الدينية،

ولم تكن هذه العبادة لوحدها. بل توجد ديانات أخرى مثل عبادة الشمس والحيوانات المختلفة.. أما جوهر الديانة فهو الإيمان بعالم الأموات، وهو عالم له تأثير قوى على الكون والمشاركة فيه(١).

وبعد فترة ظهرت ديانة جديدة وهى البوهمية وقد قامت على أنقاض الديانة السامية والبوهمية قسمت الهنود إلى عامة وخاصة والخاصة موحدون والعامة وثنيون فالخاصة يعتقدون أن معبودهم واحد. أما العامة فيميلون إلى عبادة الأوثان وهى مؤثرة فى الأرض وبلغت عدد الألهة عندهم ثلاثة وثلاثون ثم انحصرت فى ثلاثة آلهة.

والنفس عند البوهمية جوهر الحياة خالدة صافية. فاذا اتصلت بالجسد تغيرت بين الصفاء إلى العكار، وهى فى نظرهم باقية لا يتخللها الفناء ولا تصاب بالبلى وتنتقل من جسد لآخر، وهذا ما يطلق عليه «تناسخ الأرواح».

وقد سيطرت تلك الديانة على الفكر الدينى الهندى وأثرت فى حياته وظلت الهند تدين بهذه الديانة حتى ظهر بوذا الذى أوجد الديانة البوذية(٢).

لم يكن بوذا صاحب رسالة أو منشئ دين كما يعتقد بعض الباحثين.

وإنما كان مفكرا مستنيرا يعرف الحياة واسرارها، سيطرت على فكره عملية الخلاص من متابعه، فلما هيئ له أنه وصل إلى ما يرمى إليه، قرر أن يقود غيره فى نفس الطريق الذى سلكه، وقد تبعه طلابه فى هذا المجال، وتعاليمه لم تدون فى حياته بل دونت عقب وفاته وهدفها الخلاص من متاعب الحياة وآلامها.

وعلى الإنسان الذى تصبو نفسه إلى النرفانا (السعادة) أن يقرر كيف يصل إلى الفناء ولا يأتى إلا عن طريق التحرر من القلق.

لم يهتم بوذا بالبحوث العقلية وإنما يسعى إلى الاهتمام بالبحوث النفسية ومعرفة أمراض النفس وكيفية علاجها، ويرفض بأى شكل من الأشكال كل ما يتعارض مع فكرته يحث الرهبان البوذيين أن يعيشوا فى الأديرة والصوامع بعيدين عن زحمة الحياة.

ولا يعترف بوذا بالارتباطات الأسرية، فالمرأة فى نظرة أقل منزلة من الرجل فيحتقرها

(١) مقارنة الأديان ـ الديانات القديمة، الإمام محمد أبو زهرة دار الفكر العربى ص٢٢ ـ ٢٣

(٢) مقارنة الأديان ـ الديانة القديمة ـ الإمام محمد أبو زهرة ص٥١ ـ ٥٢

ولا يعيرها أدنى اهتمام عنده.

وأقر أن ثروة الإنسان في الحياة هي الأخلاق الطيبة والسيرة الطاهرة والذكرى الحسنة فإذا أراد الإنسان السلام والراحة والطمأنينة فعليه أن ينشد كبح جماح نفسه وشهواتها وأطماعها.

وكل التعليمات البوذية تدعو إلى التأمل والتركيز الباطنى، وهذا فى رأيهم يؤدى إلى خلق الملكات الروحية.

ويرى الباحثون أن تلاقي الصوفية الإسلامية مع الديانة البوذية فى حالة الفناء عند الصوفية توازى النرفانا، وأن فكرة الحلول والاتحاد توازى لديهم التناسخ فى الأرواح(١).

وقد ذكر البيرونى أن الصوفية فى الإسلام قد أخذوا من التناسخ حين قالوا «فى الدنيا نفس نائمة ونفس يقظة»(٢).

ويخبرنا الدكتور عبد القادر محمود بأثر البوذية فيقول:

«إن أثر البوذية فى الأفق الصوفى الإسلامى قد بدأ قبل الميلاد بخمسمائة عام وقبل الفتح الإسلامى للهند، وفى القرن الرابع للهجرة كان للبوذية أثرها الضخم فى فارس مما يصل المصدر الهندى بالمصدر الفارسى(٣).

ويرد أصحاب الرأى المؤيد للصوفية بأن هذه ليست أدلة كافية، وليس التناسخ يشبه الفناء لأن التناسخ معناه حلول الأرواح من جسد لأخر أما الفناء فمجرد نظرية فلسفية فقط، وأن الصوفية نشأت إسلامية مستمدة تعاليمها من الكتاب والسنة وفيهما غناء عن أى شئ آخر.

ثالثا ـ الديانة اليهودية

لقد تأثر اليهود بالديانة الزداشتية نتيجة ما حدث لهم فى بابل ٥٨٦ ق.م من أسر ونفى خارج بلادهم وظلوا أسرى حتى جاء قورش المجوسى ملك الفرس وقام بغزو بابل وفك أسر اليهود وأعادهم إلى بلادهم وظلوا تحت الحكم الفارسى حتى ظهر الإسكندر الأكبر المقدونى الذى ضم الفرس تحت لواء مملكته فصاروا بالتبعية رعايا الإمبراطورية المقدونية.

---

(١) الحياة الروحية فى الإسلام. دكتور مصطفى حلمى.

(٢) البيرونى: تحقيق، بالهند من مقولة، مقبولة فى العقل أو مرذولة ص٨٢

(٣) دكتور عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية فى الإسلام ص١٧

لقد نـقل اليهود بعـض أفكار الديانة الزراشتـية عن الاعتـقاد بالأرواح الشـريرة والملائكة، وفكرة الشر فى ضرواتها لم تكن موجودة فى كتابهم قبل عميلتى السبى الأول والثانى لهم ولكن نقلوها بعد فك أسرهم وعودتهم إلى بلادهم على أيدى ملوك المجوس.

ان الباحث جولد تسهير وهو يهودى الأصل يعتقد أن الصوفية الإسلامية قد تأثرت إلى حد كبير باليهودية، ويستدل على ذلك بأن بعض اليـهود قد دخلوا الإسلام ووضعوا كثيراً من الأحاديث التى تسمى بالاسرائيليـات وأن نظريتى التشبيه والتجسـيم لدى اليهود تشابه نظرية الاتحاد الحلول لدى الفلسفة الإسلامية. حيث يقول الشهر ستانى فى شأنهم «وجدوا التوراة مملـوءة بالمشابهات مثل الصورة والمشـافهة والتـكلم جهرا والنزول من طـور سيناء انتقـالا والاستواء على العـرش استواء» ويعـترض مؤيدى الصـوفية عـلى هذه الأدلة بأنها ليست كافـية ولا تدل أن التشبـيه والتجسيـم والتكلم جهرا والانتقال والاسـتواء من أفكار الصوفيـة، وإنما هذا دخيل عليها وملتصق بها حتى يعـتقد الناس أن الصوفـية خرجت من المنهج الإسـلامى وينادى مؤيدو الصـوفيـة بقولهم إن هناك فـرقا بين التـصوف والفلسـفة فالصوفية قد أخذت من المنبع الأساسـى الإسلامى أما الفلسفة فهى ناقلة عن المنبع اليونانى القديم.

رابعا ـ الديانة المسيحية

لست فى حـاجة لموضـوعى هذا أن أسـتعـرض الديانة المسيـحـية بالتـحليل وإنما الذى يخصنا أن نستعرض أهم النقاط الأساسية المتصلة بموضوعى كالرهبنة وطبيعة السيد المسيح لدى المذاهب المسيحية المختلفة. لنرى هل هناك علاقة بين المسيحية والتصوف الإسلامى؟

ارتبط العرب بالنصـارى فى بلاد الشام فى العـصر الجاهلى، ويقـال إن الفتن والحروب والكوارث الشـديدة فى شبـه الجزيرة أدت إلى هروب بعض العـرب إلى الأديرة واعتنـقوا المسيـحية ودخلوا الرهبنة.. ولـما جاء الإسلام دخل بعض المسيحيين فى دين الله أفـواجا. وليس مـعنى ذلك أن أفكارهم ظلت متلصـقة بهم. بل نـبذوها مرة واحـدة عند إسلامـهم وتقبلوا تـعاليم الإسلام وعـملوا على اتباعـها وانخطروا فى الجيـوش الإسلامـية مرافـقين المسلمين والاسلام بصفتهم اعضاء فى الأمة الإسلامية الجديدة.

الرهبنة المسيحية لم تتغذ من رفض العالم الأرضى بما فيه من مباهج وملذات، وإنما جاءت برفض كل شئ من جانب «قيصر» ترقبا منها لمجئ ملكوت الله.. انتشرت الرهبنة أول ما انتشرت فى صحارى مصر الشرقية هربا من الرومان وتعرضهم لمخالفى عقيدتهم بالتعذيب والقتل والسجن.

ومن هنا كثر الرهبان والنساك المسيحيون نجاة بأنفسهم وهربا من الدنيا ومتاعها وقطعوا كل صلتهم بالعلائق البشرية.

ثم زاد التعذيب للمسيحيين، ويسمى هذا العصر بالاضطهاد الدينى فاكتفوا بالصبر. بل أكثر من ذلك ضحوا بحياتهم متمثلين بالسيد المسيح تقربا وقربانا ووصولا إليه. وبعد فترات التعذيب عادت الحياة طبيعية اليهم فانغمسوا فى الملذات وأقبلوا على الشهوات وانحرفوا وراء كل علاقات شاذة، ومن هنا هربت فئة قليلة فتنسكت هربا وخوفا من هذه الحياة، وكانت نتيجة هذا الهروب ظهور الأديرة التى كانت مأوى لهم من الترف إلى عالم جديد عليهم هو العالم الروحى.

وقد أخضع الراهب فى الدير إلى عمليتين. هما الطهارة والفقر.

والطهارة فى الدير ليس معناها طهارة الجسد أو الملابس، وإنما هى طهارة بقطع العلاقات بالحياة حتى يكون على قدرة كافية لخدمة البشرية. أما الفقر فى قانون الرهبنة فهو التحرر المطلق من كل شئ، ورفض الماديات من أجل خدمة الإنسانية. هذا هو جوهر الرهبنة.

أما طبيعة السيد المسيح عليه السلام فى المسيحية أو بالمعنى الأصح فى المذاهب المسيحية الثلاثة الملكانية والنسطورية واليعقوبية فتتلخص فيما يلى:

١ ـ المذهب الملكانى:

ساد هذا المذهب بعد الفتح الإسلامى فى المنطقة العربية، ويعتقد هؤلاء أن الله ثالث ثلاثة ـ أى أن الصورة الإلهية هى الأب والابن والروح القدس. ويقوم هذا المذهب بعملية المزج بين الثلاثة معتقدا بأن الجوهر «الله».«أما الملكوت الكلى فهو جسد المسيح» وهو قديم أزلى لأن الجسد «الله» فهو قديم ازلى والكلمة هى العنصر الثالث من عنصر الوجود

اتحدت بجسد المسيح وتعلقت بناسوته. فمريم إذن ولدت جسداً إلهيا، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت وهذا رأى الملكانية.

٢ ـ المذهب النسطورى:

أن المسيح عليه السلام إنسان وأن مريم إنسان جزئى ولا يلد الإنسانى الجزئى إلا إنسانا جزئيا مثله وحدثت النعمة الالهية فاتصل اللاهوت بهذا الإنسان الجزئى كما اتصل من قبل بسائر الأنبياء فى نظرية التسلل، ولكن صلته بالمسيح كانت أكثر دواما واستقرارا[1].

٣ ـ المذهب اليعقوبى:

أن المسيح فى نظرها جوهر واحد فيه الإنسان والإله وأن اللاهوت والناسوت اتحدا اتحادا كاملا فى شخص المسيح، وأن القتل وقع على الجوهر من حيث إنسان وإله.

ويرى الباحثون الغربيون أن التصوف له صلة بالمسيحية نتيجة اتصال العرب بالنصارى فى بلاد الشام ودخولهم الرهبنة، ولما دخلوا الإسلام نقلوا بعض المبادئ المسيحية إلى التصوف الإسلامى. ومنها:

١ ـ الزهد فى الدنيا نتيجة كثرة انغماس الناس بالملذات.

٢ ـ الهروب من الفتنة والاضطرابات.

٣ ـ نقل فكرة الحلول والاتحاد إلى التصوف الإسلامى.

إن الزهد فى الدنيا قد ورد فى القرآن والسنة، وليس غريبا أن تأخذ به الصوفية كقاعدة أساسية له.

خامسا ـ الاسلام

أعتمد الإسلام على مصدرين هامين هما الكتاب والسنة اعتمادا كاملا، وقبل أن نتعرض لما جاء فى هذه المصدرين من أفكار عن الزهد يجب أن نلقى عليهما الضوء قليلا لنعرف أهمية كلا المصدرين للمسلمين عامة وللمتصوفين خاصة.

أولا ـ الكتاب: (القرآن الكريم)

بعث الله سبحانه وتعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فى شبه الجزيرة العربية بنفس

(١) الفلسفة الصوفية فى الإسلام: دكتور عبد القادر محمود ص٣٤ ـ ٣٥

المهمة التى بعث بها من قبل رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام. فكانت دعوته عليه الصلاة والسلام لكافة الناس بما فيهم أتباع الأنبياء السابقين، ومهمته دعوة الناس إلى المنهج السليم وتبليغهم هداية الله من جديد وجعل من آمن به وبهذه الدعوى أمة واحدة يقيم هدايتها وحياتها على هدى من الله، ثم تخرج لهداية الدنيا وإصلاحها، وأن «القرآن الكريم» هو كتاب الدعوة الذى أنزله الله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام فيه هدى ونور، يهدى به من يشاء من عباده.

وموضوع القرآن الكريم «الإنسان» وهو محور نجاته وسعادته ومحور خسرانه وشقائه، ويقدم لنا القرآن الكريم الآيات التى ترفض كل ما كان يدور فى ذهن الإنسان قبل نزوله ، أن النظريات العلمية القديمة من صنع الإنسان نفسه، وكانت تبحث عن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن الإله وعن ماهية الإنسان ـ وعن المجتمع المثالى. وعن اليوم والأمس. هذه النظريات كانت سحطية وتقديراتها خيالية وخاضعة لأهواء الإنسان ذاته وأنها باطلة ومهلكة له، وجاء القرآن الكريم ليعرفنا الإنسان بأنه خليفة الله فى الأرض، وبموجب هذا المبدأ وضع له المنهج السليم الذى يقدم الصحة ويوصل إلى العاقبة الحسنة.

يحدثنا القرآن الكريم عن السماء كيف صنعت؟ وعن الإنسان كيف خلق؟ وعن المشاهدة فى الكون وعن الأمم السالفة وقصصها فى أسلوب خلاب جذاب مؤثر فى النفوس مستعرضا أعمالها المختلفة وسلوكها وعقائدها. مبينا مدى تعارضها مع المنهج الصحيح. ذاكرا الشئون والمسائل التى وراء الطبيعة. ومن خلال ذلك يوضح ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحق.

مقررا فى أذهانهم الحقيقة الواقعية عن الحياة، وبأن المنهج الإسلامى هو المنهج الذى يلائم الحق ويأخذ إلى الطريق السليم.

وأن القرآن الكريم ليس كتابا يحتوى على نظريات مجردة وأفكار موضوعة لتدرس وتفهم تبحث فى اللاهوت فتحل جميع أسراره وإنما هو كتاب دعوة لخلق الرجل السليم ذى الأخلاق العطرة. كما عمل كسر قيوده وإعداده للوقوف فى مواجهة العالم الذى انصرف عن الحق، وجعله يقارع الباطل ويحارب أئمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال.

لقد انتـزع القرآن الكريم كل رجل كريم وكل نفس زكـية من كل بيت وجمـعهم تحت لواء صاحب الدعوة. فهو الذى أخرج غيظ كل مفسد وجعله يقاتل أنصار الدعوة. ليهلك كل من هلك عن بينه ويحيى كل من أحب الإيمان على بينه.

هذه صورة واضـحة عن الكتاب الكريم الذى اسـتقت الصوفـية منه أفكارها واعتـبرته أساسا لدعوتها ومنهجها وإذا خالفته فليست من التصوف بشئ فهو الذى يرشدها ويوضع مقاماتها.

ويقول عز وجل أيضا «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً».

ويقول أيضا:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كبيرا».

ويقول أيضا:

«واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً».

ويقول أيضا: (وسنجزى الشاكرين).

ويقول أيضا: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

إذا أمعنا النظر فى هذه الآيات نجدها تحمل ما يلى:

هى أفكار الصوفـية الاسلامـية ودليلا واضـحا على أنهم أخذوا أفـكارهم من الكتاب الكريم.

ثانيا ـ السنة:

هى أعمال وأحـاديث الرسول عليه الصلاة والسـلام، وقد وجدت الصوفيـة من أعمال وحياة وأحـاديث الرسول عليه الصلاة والسـلام مرشدا لها. كمـا اتخذتها الصوفيـة أساسا لحركتها وطريقها.

وأهم هذه الأحاديث تدور حول:

١ ـ الولاية ـ ٢ ـ التـوبة ـ ٣ ـ الزهد ـ ٤ ـ الورع ـ ٥ ـ الذكـر ـ ٦ ـ الحب الإلهى ـ ٧ ـ الفقر ـ ٨ ـ الإحسان.

قـال رسول الله صلى اللـه عليه وسلم «قـال الله تعـالى من عادى لـى وليا فـقد آذنتـه بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى ما افتـرضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحـبه فإذا أحبـبته كنت سمـعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبـصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمـشى بها، ولئن سألنى لأعطيتـه ولئن استعاذنى لأعـيذنه وما ترددت عن شئ انا فاعلة ترددى عن نفس عبدى المؤمن».

وقول رسول الله عليه الصلاة والسلام فى التوبة.

«يا ايها الناس توبوا إلى الله فأنى أتوب فى اليوم مائة مرة».

وقوله فى الزهد:

ما يرويه عـثمان بن عفـان عن النبى عليه الصلاة والسـلام قال: «ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته وحب الخبز والماء».

عن أم حبـيبـة زوجة النبى صلى الله عليـه وسلم عن النبى صلى الله عليـه وسلم قال: «كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله».

وقول رسول الله فى المحبة:

عن معـاذ بن جبل قال سـمعت رسول الله صلى الله عـليه وسلم يقول: يقـول الله عز وجل «المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء».

ويقول عليه السلام عن الدعاء:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«ليس شئ أكرم على الله من الدعاء».

واذا قـرأنا كتـب سيـرة الرسـول عليـه الصلاة والسـلام وجـدناها حـافلة بالحب والود والتريث والحكمة والزهد والكفاف والصبر وكان كثير الاستغفار.

ومن خلال ما استعرضته من آيات وأحاديث شريفة وما هو موجود فى كتب السيرة من أقوال وأحـوال الرسول عليـه الصلاة والسـلام يعتبـر كل هذا ينبوعـا فيـاضا صالحـا يغنى الصوفية عن أى مصدر آخر.

الفصل الرابع
الفلسفة اليونانية وأثرها على التصوف

وضحت الدراسات الحديثة لمجتمع شبه الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى بأنه لم يكن فى غفلة عن التيارات الفكرية المتصارعة والمسيطرة على العالم القديم وقتئذ، وعارضت فكرة الباحثين القدماء بأن هذا المجتمع الجاهلى ما هو إلا قبائل متناثرة متناحرة لأتفة الأسباب، ولا روابط بينها غير روابط العادات والعرف والتقاليد.

وظهرت أخيرا الاكتشافات الأثرية فى القرن الحالى توضح بأن هناك دولا قديمة عظيمة قامت فى جنوب شبه الجزيرة ذات حضارات مزدهرة وذات كيان سياسى واقتصادى وأقامت علاقات تجارية نتيجة العلاقات الطيبة مع جيرانها. هذه الدول هى المعنية والحميرية والسبئية.

لم تكتف هذه الدول بعلاقاتها التجارية مع جيرانها فى البحرين الأحمر والمتوسط. بل وسعت علاقاتها فى شبه الجزيرة مع جيرانها فى وادى الحجاز حيث توجد الكعبة والبيت الحرام الذى يلتف حوله العرب فى وحدة دينية كبرى جاءت نتيجة ديانة إبراهيم عليه السلام.

أخذ الفكر العربى من التيارات الفكرية السائدة فى العالم وقتئذ ما يتمشى مع حضارته وقيمه ومبادئه ونبذ كل الأفكار التى تتعارض مع نقاء وأصالة فكره[1].

وحاولت بعض الشخصيات التى كانت تجوب فى ربوع شبه الجزيرة وخارجها إدخال الفكر اليونانى نتيجة الإعجاب به، والأخذ بكل جديد ولو كان هذا الجديد يتعارض مع ما جبل عليه الفكر العربى الأصيل.

ولكن هذه المحاولة نبذها الفكر العربى ولم يصغ اليها وماتت كغيرها من المحاولات الفكرية الوافدة إليه.

أغلق العرب فى الحجاز كل المنافذ العقلية نحو الاستجابة للتراث الروحى اليونانى

(١) الحياة الروحية فى الإسلام: دكتور محمود مصطفى حلمى ص٣٤

حتى حلول الدعوة. النضر بن الحارث ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيماناً منهم بأن ديانتهم الروحية التي ورثوها من جديهم إسماعيل وأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ويعتقد بعض الباحثين بأن الديانة العربية في العصر الجاهلي قائمة على عبادة الأوثان والأصنام لذاتها - وهذا الاعتقاد ليس له نصيب من الصحة. بل كانت عبادتهم متجهة نحو البيت الحرام والكعبة. ونتيجة لهذه العقيدة الدينية أوجد العرب ما يسمى بالأشهر الحرام وفيه تقف جميع الصراعات الدموية الدائرة بينهم ليتجهوا نحو عقيدتهم بزيارة البيت الحرام والحج في تلك الأشهر الحرام التي اتفق عليها فيما بينهم.

وحينما اندفع عرب شبه الجزيرة العربية حاملين راية الإسلام مبشرين جيرانهم بالدين الجديد لم يقف الباحثون على أي دراسات فلسفية خاصة بهم في تاريخهم الإسلامي في الصدر الأول من الدولة الإسلامية.

ولما انحصرت موجة الفتح الإسلامي في العصر الأموي، وبدأت الحياة السلمية تغمر المجتمع أخذ العرب فكرهم واتجاهاتهم من الأفكار الإسلامية التي كان مصدرها الكتاب والسنة، ولم يكونوا في غفلة عن الثقافات الوافدة إليهم من المناطق الخاضعة لسيطرتهم.

لم يقم المسلمون كغيرهم من الفاتحين بتدمير الثقافات الأخرى التي تتعارض مع ثقافتهم، فليس الإسلام دين تدمير للثقافات الأخرى وإنما دين تعايش في سلام مع الثقافات الاخرى الخاضعة تحت سيطرته، والدليل على ذلك إبقاء العرب المسلمين على المدارس الفلسفية العلمية التي كانت في الإسكندرية وأنطاكية وفي الرها والمدائن وجنديسابور.

ولم يضع الإسلام حواجز نحو الفكر المخالف له. بل بحث على التعرف عليه والوقوف على أصوله واتجاهاته حتى يأمن عدم الوقوع في تلك المعتقدات القديمة. سواء كانت روحية أو عقلية ونبذها إذا كانت تتعارض مع الأفكار الإسلامية.

تعرف العرب على الكتب اليونانية وعلى علماء اليونان وتركوا مدارسها تزدهر ازدهاراً كبيراً. إيمانا منهم بأن الفكر الإسلامي بصفائه ونقاء معدنة وغزارة منبعه لا يتأثر

---

(١) نفس المرجع ص٣٥

بأفكار بشرية عاجزة عن معالجة مشاكل حياتها بل إن مصدرى الإسلام الكتاب والسنة فيهما الكثير من معالجة للمشاكل البشرية فى كل زمان ومكان.

إيماناً بأن الخالق هو الذى وضع العلاج. لأنه أدرى بخلقه ومشاكل حياتهم وأمور دنياهم. بل يعد المصدران من أعظم المصادر التى حررت القضايا الكبرى التى كانت تجوب الفكر العلمى القديم، ووضحت أصول هذه القضايا عن وردت كل فكر ظنى إلى نحره ووضحت بأن ما اشتمل عليه من أفكار بشرية عاجزة عن معرفة أصول هذه القضايا.

وتتمثل هذه القضايا فى الكون والله ـ اليوم الآخر ـ البعث ـ والموت ـ والمجتمع والاسرة ـ والعلاقات بين المجتمعات المختلفة. والهدف من خلق الإنسان وأصله وقيمه ومبادئه وعقله وروحه ومتطلبات حياته الجسدية والعقلية والروحية.

ترك المسلمون المدارس الفلسفية كما وضحنا سابقا تزدهر وتنمو، وأهم هذه المدارس التى ازدهر فيها الفكر اليونانى القديم ممتزجا مع الفكر الشرقى القديم هى مدرسة جنديسابور وأول من نبغ فيها وانفصل عنها هو الكندى وتلاميذه، وقد أطلق عليهم ابن تيمية شيخ الإسلام فى عصرهم بأنهم «فراخ اليونان وتلامذة الرومان» أما الدكتور على سامى النشار فقد أنكر عليهم لقب فلاسفة الإسلام. بل لقبهم «بأبناء الفلسفة اليونانية».

كان إقبال الدولة العباسية فى عهد المنصور اقبالا منطقع النظير على ترجمة علوم اليونان من فلسفة ومنطق وطب وأخلاق.. ثم ازداد هذا الإقبال واتسعت الدائرة فى الترجمة فى عهد المأمون نتيجة عوامل كثيرة منها نمو العلاقات الدولية الطيبة التى قامت بين الدولة العباسية وجيرانها نتيجة الثورة الاقتصادية الكبيرة التى جاءت عن طريق التجارة مع الدول المجاورة ونتيجة الاستغلال السليم للموارد الاقتصادية فى الدولة على أسس سليمة واندفعت الدولة العباسية فى علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الدول المجاورة حتى بلغت ذروتها فتمتعت حينئذ بثروة طائلة جذبت إليها المغامرين من كل فج عميق.

وخصصت الدولة العباسية جزءا كبيراً من مواردها المالية لعقد صفقات ثقافية مع الدول المجاورة وخاصة مع قبرص والدولة البيزنطية(١).

(١) العالم الإسلامى فى الدولة العباسية: دكتور حسن محمود ـ دار الفكر العربى ص٢٥٠

اشتملت هذه الصفقات على شراء الكتب اليونانية والرومانية التى حبست فى خزائن الإمبراطور البيزنطى والحاكم القبرصى، وفى عهد المأمون نظمت عملية شراء هذه الكتب وقامت البعثات العلمية التجارية لعقد الصفقات وكان النصيب منها كبيراً، وظل المأمون يتابع عملياته فى شراء الكتب اليونانية والسريانية والفارسية والهندية بشغف شديد لدرجة أن هذا الأمر كان شغله الشاغل حتى فى نومه(١).

امتلأت دار الحكمة بمشتريات المأمون وكان لابد أن يتعرف عليها الفكر العربى الإسلامى فأقام المأمون دارا للترجمة ألحقها بدار الحكمة وأقام عليها شخصيتين لعبتا دوراً هاماً فى ترجمة معظم هذه الكتب وهما «حنين بن اسحاق» و «ابن النديم». لقد نبغ كل منهما فى معرفة اللغة اليونانية فقام الأول بالترجمة اليونانية إلى السريانية ثم قام مساعدوه بالترجمة من السريانية إلى العربية. أما الثانى فقد ترجم معظم الكتب من اليونانية إلى العربية.

أما أهل الذمة فقد قاموا بدورهم فى عمليات الترجمة التى بلغت ذروتها فى هذا العصر نتيجة إخلاصهم لها فترجموا كتبا فى الطب والفلسفة والمنطق والفلك(٢).

وتعرف الفكر العربى على المنطق اليونانى. بل تأثر به. بل عمل على صبغة بالصبغة العربية الإسلامية فى قوالب جديدة ومناهج حديثة تتمشى مع العصر ومتطلباته للرد على أعداء العرب والمسلمين وقتئذ.

واستخدم المنطق لدى الفرق الإسلامية للدفاع عن إرادتها وأفكارها ضد خصومها. كما أن الفكر الإغريقى قد ترك طابعه وأثره على الحياة الثقافية العربية الإسلامية فى مجالات محدودة منها:

ترتيب العلوم وتبويب الكتب. كما أثرت الفلسفة اليونانية فى تعاليم المتكلمين، ويرى بعض الباحثين أن الأفلاطونية الحديثة كان لها الأثر فى الفكر الصوفى.

وسنرى إمكانية ذلك أو عدمه عندما نستعرض الأفلاطونية وهى لب موضوعنا وأثره على الصوفية.

---

(١) نفس المرجع السابق ص٢٥٢

(٢) نفس المرجع السابق ص٢٥١

ويعارض الإمـام عبد الحليم محمود فكرة الترجمة للتراث اليونانى والفكر اليونانى وخاصة ترجمة كتب العقائد وكتب الأخلاق، ويوضح بأن الدين الإسلامى فيه من العقائد والأخلاق ما يكفى المسلمين، وما يغنى عن غيرها ويقول فى هذا الصدد:

«ولم الترجمة؟ أفى العقيدة التى جاء بها القرآن ـ والسنة نقص يستكمله؟ أفى الأخلاق التى رسمها الله ورسوله خلل تزيله ترجمة كتب الوثنيين؟»[1].

ثم يعيب على الخليفة المأمون مساندته للمعتزلة فى نزاعها مع أئمة وفقهاء الدين وتحديه لهم، وأمر بالترجمة للتراث اليونانى وفتح بلاد المسلمين للغزو الفكرى اليونانى بقوله: «وما كان لنا أن يعيب دخول المأمون فى نزاع لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدئ للنزاع لو أنه دخل دخول الأخ الأكبر ملطفا ومانعا للحدة بين الإخوة، إننا لا ننتقد الدخول فى النزاع وإنما ننتقد الكيفية والصورة. إنها ليست صورة دخول علمى فى موضوع نقاش دينى وإنما هى صورة دخول جبروتى، دخول من يريد أن يأمر ليطاع. دخول من لا يريد أن يصغى إلى نصح ولا أن يستجيب لبرهان[2].

ويقول فى موضع آخر:

«وأحب الأمراء رضاء المأمون، فساهموا فى مشروع الترجمة ووجد الأثرياء أن دور وسائل التقرب إلى المأمون أن ينشروا آراء ارسطو وأفلاطون وغيرها، فتعلموها ودرسوها وعلموها، وإذا كانت أفكار اليونانية قد بدأت الدخول فى البيئة الإسلامية على استحياء فأنها بمروز الزمن استوطنت وألفها كثير من الناس عن طريق التكرار وشاعت الآراء واستقرت بالألفة والعادة والرعاية[3].

ونتيجة لتحديه أئمة الدين والفقهاء فقد ترجمت الأورجانون وهى كتب أرسطو فى

(١) القرآن والنبى: الإمام عبد الحليم محمود ـ طبعة دار المعارف ص١٥٣

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥١ وأحب أن أوضع بأن الدكتور عبد الحليم محمود قد صب جام غضبه على ترجمة الكتب اليونانية، وخاصة كتب الفلسفة اليونانية ـ فالترجمة نفسها لاضير عليها. فالمسلم فى أى زمان ومكان لا يقتنع إلا بكتاب الله والسنة. ومهما فرضت عليه أى أفكار لا يقبلها ما دامت تتعارض مع دينه.

(٣) نفس المرجع السابق ص١٥٤

المنطق ثم كتب سقراط وأفلاطون.

وجاءت لحظة إشعال نار الصراع بين مؤيدى الفكر اليونانى وتياراته المختلفة وبين علماء الدين ومعارضتهم لهذا الغزو الفكرى إليهم.

ونتيجة لهذه الحرب المستمرة المتأججة النيران بين الطرفين فقد ماتت مدرسة الكندى وأفكاره. كما شن أهل السنة حربا لا هواده فيها على مدرسة الفارابى وأفكارها حتى كانت نهايتها إلى الأبد.

ورغم تلك الحملات الشديدة والوقوف فى وجه التيارات الفكرية الوافدة إلى الفكر الإسلامى إلا أن مدرسة الفلسفة الأفلاطونية قد وجدت مجالات بين فئة قليلة بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامى. وقد وصف القفطى افلاوطين بقوله «إنه كان حكيما مقيما فى بلاد اليونان».

أما الجماعة التى تشربت مبادئه وصارت من أكبر المؤيدين لأفكاره قد أطلقوا عليه «شيوخ اليونانى»(١).

ولابد أن تستعرض مذهبه لنعرف اتجاهاته ومدى ما أخذ منه المتصوفة أو نبذوه لمعارضته الفكر الإسلامى له.

ويدور مذهب الأفلاطونية الحديثة فى أقسام ثلاثة. هى النفس والله والعقل، فالنفس عنده جوهر كريم شريف وهى نقطة تدور حول العقل وتشتاق إليه فى كل تحركاتها كما أن العالم السفلى نقطة أيضا تدور حول النفس وتشتاق إليها فى كل سكناتها وتحركاتها، أما الله فى جوهر المذهب فهو المحبوب المبدع الذى تشتاق إليه الصور العليا لأنه كساها حقيقة وجودها (والتى من وجوده) وهو قديم دائم على حالة لا يتغير، والعاشق يعمل على أن يصبوا إليه ويكون معه.

أما العقل فهو الجزء المهم لدى النظرية الأفلاطونية الحديثة فهو يشتاق إلى الله والنور الأول والمبدع للأشياء من كل الإمكانيات الأخرى، وأن الأشياء كلها قد أبدعها الله بغاية الحكمة وأن الجواهر العقلية قد فاضت منه، وقد تفاضلت مراتب تلك الجواهر نتيجة

(١) الفلسفة الصوفية فى الاسلام: دكتور عبد القادر محمود ص٣٦

لاختلاف قربها أو بعدها من النور الأول التى فاضت منه(١).

أما الأثر الأفلاطونى فلم يظهر على الفكر الإسلامى الصوفى ولم يتأثر به أئمة وفقهاء التصوف وإنما ظهر على مجموعة متناثرة ضئيلة قد حملت هذه المجموعة الأسماء الإسلامية وهى ليست بمسلمة(٢).

قد استقت الأفلاطونية مصادرها ومعارفها المختلفة حينما التقت مع الثقافات القديمة فى جنديسابور وفى غيرها فى المدن الشرقية، وقد حاولت بكافة الطرق أن تتغلغل فى الكيان الإسلامى وتسيطر عليه فوجدت ضالتها فى الأحاديث النبوية الشريفة فنفذت إليها، ولكن علماء الحديث كانوا لها بالمرصاد وقاوموها مقاونة عنيفة وهاجموا واضعى هذه الأحاديث التى تخدم أفكارهم فصبغوها بالصبغة الإسلامية ولتجد مجالا لجذب قلوب عامة المسلمين ليلتفوا حولها.

أول من وضع هذه الاحاديث عبد الرحمن محمد الحسينى السلمى، وهو إمام المتكلمين الفعليين. فقد قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام «وهو حديث قدسى» «أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل، فأقبل. ثم قال أدبر فأدبر، ثم قال عز وجل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم منك، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب».

لقد هاجم علماء الحديث هذا الحديث، وكان على رأس المعارضين المهاجمين الأمام «تقى الدين ابن تيمية» شيخ الإسلام وأنه موضوع وله صلة بالفكر اليونانى وخاصة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة. ثم هناك أحاديث دخيلة نتيجة هذا الحشو الذى قام به مغالطو الإسلام ومنها.

«كنت نبيا وآدم بين الطين والماء» ويقصد به رسول الله عليه الصلاة والسلام.

أما الثالث فهو «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفوا».

لقد وجدت الأفلاطونية مجالاً واسعاً وكبيراً وعلماً من علوم المسلمين. بل من أشد العلوم لديهم أصالة فنفذت إليه كما ذكرت سابقا.

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام: دكتور على سامى النشار والفكر العربى جـ١ ص١٥٠

(٢) نفس المرجع السابق ص١٥٤

أما فكرة الوحدة التى نادى بها محيى الدين عربى والتى وجدت هجوما شنيعاً من أئمة التصوف ذاتهم وأئمة وفقهاء السنة فقد قالوا فيه بأنه ليس من الإسلام، ولا يمت إليه بصلة بل هو فيلسوف من الفلاسفة، وأن هذه النظرية «وحدة الوجود» فقد صيغت فى نسق فلسفته التى نادى بها[1].

الدارس للصوفية يشعر منذ البداية أن التصوف الإسلامى فى أصالته إسلامى، ويستمد منهجه من القرآن الكريم الذى يعيش فى قلوب المسلمين وبه من الآيات الكريمة التى تغنى عن أى منبع آخر يمكن للصوفى أن يستمد أفكاره منها. كما أن السنة أيضا بما فيها علوم نظرية وتطبيقية تتمثل فى أقوال وسلوك الرسول صلى الله عليه وسلم. فهى المنبع الثانى الذى يستمد منه الصوفية أفكارهم، وهو يغنى أيضا عن استخدام أى منبع آخر.

كما أن الزهد وهو اللبنة الأولى للتصوف نشأ فى أحضان الكتاب الكريم والسنة وانتهى إليهما، وتطور فى النهاية إلى التصوف الذى يعد ثورة كبرى على الترف العقلى وعلى الطبقة العليا من أغنياء الدولة وكبار التجار. فهو فى مضمونه ثورتين. ثورة اجتماعية وأخرى ثقافية تشمل الجانب الفلسفى والجانب العقلى.

إن جمهرة المسلمين يرون أن اليونانيين فى حد ذاتهم وثنيون وأن قيمهم ومبادئهم وأخلاقهم وتراثهم مستمد من هذه الوثنية. فهم يحاربون من يأخذ عنهم أو يميل إلى أفكارهم أو يعتنقها. فمن الغريب فعلا أن تعقد أواصر روحية بين التصوف وهذه الأفكار اليونانية.

فالتصوف الإسلامى فى حد ذاته تراث روحى يحدث نتيجة أدق حركات القلب ويتبع الذوق الإسلامى، ويكشف عن الضمير وأنه ثورة صفاء مع مجتمع شمله التحلل الاجتماعى من جميع نواحيه. كما ساده أيضا الانهيار الاقتصادى. كما أن الورع قد شمل المسلمين فى القرنين الأول والثانى الهجرى الذى انقلب زهداً منظما ثم جاءت الفلسفة اليونانية نتيجة الترجمة، وكان الزهد قد تطور فى تلك الفترة إلى التصوف وظهرت علومه المختلفة ومناهجه فنشأت الصراعات المختلفة بين الفقاء والفلاسفة.

---

(١) الفلسفة الصوفية فى الإسلام: دكتور عبد القادر محمود ـ دار الفكر العربى ص٦٣

فقهاء الدين وهم يأخذون بظاهره الشريعة الإسلامية (القرآن الكريم والسنة) أما فقهاء التصوف وهم يأخذون بباطنها، وقد تناولوا القرآن الكريم بما وراء الفهم العقلي. فاختلفوا مع الذين يتكلمون بالمنطق والعقل ولم يمض الوقت طويلاً فى العالم الإسلامى حتى ظهرت ثلاثة تفسيرات للقرآن الكريم.

١ ـ التفسير الفقهى ـ ٢ ـ التفسير العقلى ـ ٣ ـ التفسير الذوقى

وظهرت فئة أخرى تدعى التصوف أخذت بالفلسفة، وقام بينهم وبين الصوفية والعقلية والفقهاء نزاع شديد، وأدى النزاع فى النهاية إلى وجود المدارس المختلفة فى العالم الإسلامى ومنها:

١ ـ المدرسة العقلية:

وتمثل الوجود من حيث موجود بالفعل.

٢ ـ المدرسة الصوفية:

وتمثل الحياة الصوفية نتيجة تجربة صوفية، وقد ظهر من خلال ذلك علم الأخلاق على يد أكبر صوفية السنة، ومن أشهرهم الإمام أبو حامد الغزالى الذى ساد علمه العالم الإسلامى حتى يومنا هذا.

٣ ـ المدرسة الفلسفية الصوفية:

وهى التى لها شطحات أخرجتها عن المنهج الإسلامى ومصدريه القرآن والسنة.

٤ ـ مدارس الفقة والشريعة الإسلامية

وهى التى تعتمد على النصوص القرآنية وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

الفصل الخامس
الزهـــد

فى بداية القرن الأول الهجرى ظهرت مجموعة من المسلمين الأوائل حبذت الإقامة فى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، واعتمدت فى حياتها على بعض الصدقات التى يقدمها أغنياء المسلمين لهم وهم «أهل الصفة» وقد أطلق عليهم لفظ «الزهاد» ومنذ تلك اللحظة شاع استخدام هذا اللفظ فى العالم الإسلامى.

ومعنى كلمة الزهد فى اللغة هو الإعراض عن الشئ أو عدم الإقبال عليه أو النظر إلى الحياة الدنيا بشئ من الاستخفاف والاحتقار، وعدم التكالب على جمع الأموال، وعدم الأغراق فى ملذات الحياة رعبا من الله ومن عقابه الذى أعده للكافرين والمنافقين ومرتكبى الذنوب.

حيث قال الله عز وجل فى ذلك:

«ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم»(١).

ليس الزهد فى الإسلام بمعنى العزلة عن الحياة وعدم المشاركة فيها، فالإنسان خلق بطبيعته ليكون خليفة الله على هذا الكوكب. والهدف من وجوده على هذا المسرح أن يطور حياته ويرقيها ويسعى بالمنهج العلمى إلى معرفة أسرار وخصائص هذا الكوكب الذى وجد عليه. ومن خلال هذه المعرفة يصل إلى معرفة خالقة، وكلما زادت معرفته به زاد إيمانه وزهد فى زخرف الحياة وملذاتها.. ولقد استوعب كل هذا علماء وفقهاء وائمة الصوفية فى القرن الرابع الهجرى.

لم يرد فى كتاب الله لفظ الزهد إلا فى آية واحدة من سورة يوسف عليه الصلاة والسلام حيث قال العزير الحكيم:

(١) التكاثر: ١ ـ ٨

«وشروه بثمن بخس، دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» ويوضح لنا الله عز وجل فى آيات كثيرة بأن الأرض وما عليها من زينة وبهجة وملذات وزخرف وأموال وشهوات ما هى إلا اختباراً للإنسان حتى يتعرف الخالق على أحسن الأعمال فيجزى أصحابها خير الجزاء بما عملوا وصنعوا. وأن الدنيا بما فيها زائلة فى النهاية حيث وضع ذلك فى كتابه الحكيم بقوله:

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن علما وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً»(١).

إن الأرض وما عليها رخيصة عند خالقها فلو شاء لأغدقها إغداقا على الكافرين وإن الذهب الذى يفسد الحياة ويبهر القلوب المظلمة رخيص عند الله ويبذله الخالق بكثرة على من يكفر به لأنه متاع الحياة الدنيا والمتاع زائل مع زوال الدنيا ذاتها ـ فلو شاء الله لجعل لمن يفكر به بيوتا سقفها من فضة وسلالمها من ذهب.

حيث يقول فى كتابه العزيز:

«ولولا أن يكون الناس أمة واحدة، لجعلنا لم يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون، وزخرفا وإن كل ذلك لماتاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين»(٢).

ويذكرنا الخالق سبحانه وتعالى بأن بعض الناس يفضلون الحياة الدنيا وما فيها من ملذات عن غيرها التى أعدت للمتقين.

حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

«بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى»(٣).

ومن الأحاديث النبوية الكثير التى تحث على الإقبال على الآخرة والزهد فى الدنيا مع المشاركة فى الحياة وعدم العزلة فيما يجرى فيها.

حيث يقول رسول الله صلى الله عليهم وسلم:

---

(١) الكهف: ٧ ـ ٨

(٢) الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥

(٣) الأعلى: ١٦ ـ ١٧

«الدنيا حلوة حضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وإن بنى اسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب».

ويأمرنا صلى الله على وسلم بعدم ذكر الدنيا فى قلوبنا وعدم الانشغال بها عن الهدف الأسمى للحياة وهو عبادة الرحمن سبحانه وتعالى حيث قال:

«لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا».

ويقول أيضا:

«ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظربم يرجع إليه».

ويقول صلى الله عليه وسلم:

«من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله بشئ وألزم الله قلبة أربع خصال: هما لا ينقطع عنه أبداً، وشغلا لا يفرغ منه أبدا، وفقرا لا يبلغ غناه أبدا، وهلاكا لا يبلغ منتهاه أبدا».

وقال موسى بن يسار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها».

وقد نقل أئمة وعلماء وفقهاء التصوف تعريفاتهم عن الزهد من مفهوم ما جاء به الكتاب والسنة فى هذا الصدد.

حيث قال الجنيد:

«سلب الله الدنيا من أوليائه وحماها من أصفيائه وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم».

ويقول ابن جلال الصوفى:

«الزهد هو النظر فى الدنيا بعين الزوال فتصغر فى عينيك فيسهل الإعراض عنها».

ويقول ابن خفض:

«الزهد فى الحلال وترك الحرام فريضة».

وهدف الإسلام الأساسى محاربة المغالاة بأى شكل كان، وخاصة الارستقراطية المادية التى تملك ولا تعطى، وتملك لتفسد الحياة على الأرض، وتستخدم ما أودعه الله من أسرار

وخصائص للأرض لتعطيل سنن الخالق ولمصلحتها، ولذلك أوجد الله حركة الزهد فى الإسلام للقضاء على تلك الأرستقراطية البغيضة على النفوس وليرتفع بمستوى الفقراء الاجراء[1].

فالزهد علامة وميزة للإسلام عن غيره من الأديان السماوية ومخالفة لكل ما ظهر فى المجتمع القبلى فى شبه الجزيرة. كما أنه شعار لكل مسلم. فالإسلام فى حقيقة الأمر لم يدعُ إلى شركة ذات مناجم من ذهب تغنى أصحابها وتغدق على عمالها ولكنه دعوة روحية التف حولها الضعفاء والمحرومين والعبيد تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

دخلت الأمم والقبائل فى دين الله أفواجاً، وصار الاسلام قوة أجبرت أقوى الإمبراطوريات على الخضوع تحت راياته. بل اندمجت أملاكها فى الدولة الإسلامية وحملت هذه الأملاك رايات الإسلام مدافعة عنه.. فالزهد هو أحد الصور الأصيلة فى الإسلام الذى أخذ به قادة المسلمين والإسلام، ونزلوا إلى مستوى المؤمنين الفقراء حتى كسبوا عطفهم فالتفوا حول راية الإسلام، وصارت صورة الزهد متصفة بصفات الداخلين فيه من طبقة الفقراء[3].

لقد تأثر الزهد بمنهجين هامين. وهما المنهج النظرى والتطبيقى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالمنهج النظرى هو كل ما نطق به رسول الله عليه الصلاة والسلام فى توضيح المعالم الأصيلة للزهد، وحث به المسلمين على مجاهدة النفس بترك ملذات الحياة وغض النظر عما يجرى فى الدنيا من متعة وتكالب على الأموال وجرى وراء سحب الأمل، وأنما السعى إلى حياة أفضل أعدت للمؤمنين الصابرين.

والمنهج التطبيقى فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، فقد بدأ طريقه

---

(١) بحار الصوفية: أحمد بهجت ـ دار المعارف: ص١١١

(٢) نفس المرجع ص١١٢

(٣) نفس المرجع ص١١٣

منذ تحركت نفسه إلى العزلة فى غار حراء بعد أن حببها الله إلى قلبه.. فقد كان صلى الله عليه وسلم ينطلق من حياة مكة الصاخبة إلى جبالها ليخلو بنفسه وينطلق بفكرة فى ربه وخالقه.

ثم جاء الوحى بالرسالة فانطلق عليه الصلاة والسلام بدعوته إلى أهله وعشيرته الأقربين وكان دعوته ذات شقين هامين. أحدهما نشر الدين الإسلامى بين القبائل فى شبه الجزيرة العربية ثم إلى الدول والأمم المجاورة والعمل على تحطيم عبادة الأوثان.

أما الشق الآخر من الدعوة الإسلامية فهو نبذ التكالب على الحياة المادية وملذاتها والفرار إلى حياة روحية طيبة متصلة بالخالق عز وجل، ومن هذا المنطلق لم تستوعب قريش هذه الدعوة فأعلنت معارضتها ومقاومتها بكل قوة. سواء كانت قوة الفكر أو قوة السلاح ورغم استخدامها القوتين فقد أيد الله الفئة المؤمنة بقيادة رسوله عليه الصلاة والسلام فحطمت الفكر الوثنى والسلاح القرشى وخيبت الأمانى القرشية فى تحطيم الدعوة الإسلامية.

لقد حقدت قريش ما شاء لها أن تحقد وتكره حينما رأت إقبال الناس فى الدخول فى دين الله إقبالا منقطع النظير خاشعين مستمعين الى آيات الله.

ويقول الله عز وجل:

«إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»(١).

لقد كانت هذه الأفواج من الناس الداخلة في دين الله بمحض إرادتها حبا فى الله ورسوله خليطا من الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد. تحملوا كل ما تعرضوا له من ألوان مختلفة من التعذيب ومحاصرة فى شعب مكة حتى كتب الله للإسلام أن ينتشر ويتغلب على متاعبه.

ولقد ساعدت عوامل كثيرة على انتشار الزهد والعزلة على الحياة السياسية، ونستعرض هذه العوامل حتى نعرف المدى الذى وصل إليه المسلمون فى تلك الفترة الحاسمة فى

---

(١) النصر: ١ ـ ٣

حياتهم ومن أهمها:

أولا: لقد اهتم الإسلام ببناء المسلم روحيا فبغضه فى الدنيا وزخرفها ونفره من الاهتمام بما فيها حتى تصفو نفسه ويصل من خلال ذلك إلى الحياة الأخرى التى وعده الله بها حيث يقول الله تعالى:

«إن المتقين فى مقام أمين، فى جنات وعيون، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم، فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم»(١).

وكما ذكرت سابقا لم يكن الزهد معناه العزلة عن الحياة بل مشاركة فيها حتى تتطور الحياة ويصل بها الإنسان إلى ما يرجوه الله منه. فالزهد بغض متاع وزخرف وملذات الحياة وعدم التكالب عليها وعدم الإقبال على الفساد وتعطيل سنن الخالق على الأرض. ولهذا انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى تاركاً نماذج كثيرة واضحة عن زهده فى الدنيا.

وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، ولذلك سار المسلمون على النمط الذى تركه لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا ننسى كتاب الله عز وجل فإنه يرسم لنا الطريق السامى للوصول إلى الحياة الطيبة فى الدنيا لنسعد فى الآخرة. ويقول الله عز وجل «وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون»(٢).

لقد تعرض كتاب الله فى آيات كثيرة للحياة فى الدنيا مصورا صور الزهد فى إيجاز تارة وإسهاب تارة أخرى على ضرب الكثير من الأمثلة. ثم وضح الحلال والحرام ووضح حدود الله وبين مواضع الزهد فى ذلك ونتائج الزهد على الفرد والأسرة والمجتمع، وأعطى الاختيار لذلك، وحث أيضا على الورع والقيام على العبادة والتهجد فى الليل حيث يقول عز وجل فى هذا الصدد:

---

(١) الدخان: ٥١ ـ ٥٧

(٢) القصص: ٦٠

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهو فيها لايبخسون، أولئك الذين ليسى لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون»(١).

أما العامل الثانى فيوضح لنا الحياة الاجتماعية المتغيرة التى حدثت فى المجتمع الإسلامى نتيجة الفتوحات الإسلامية حيث كثرت الغنائم فى أيدى المسلمين فأصابوا منها الكثير فأقبلوا على الدنيا بما فيها من متع ولهو.

هذا الإقبال الشديد على الدنيا أدى فى نفوس بعض المسلمين شيئا من الانقباض ثم فى النهاية العزلة، وعدم المشاركة فى هذه الحياة الجديدة خوفا من رب العزة سبحانه وتعالى ومن عقابه. وعلى رأس هذه الفئة الصحابى الجليل (أبو ذر الغفارى) الذى قام بتبصير المسلمين بسوء الحياة الجديدة، ويحذرهم من هذا الثراء الذى أقبل عليهم ويلفت أنظارهم نحو إخوانهم الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون على متطلبات حياتهم الأولية.

كان أبو ذر الغفارى يرى خليفة المسلمين وإمامهم ومن أتباع رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو «عثمان بن عفان» يخالف ما كان عليه الشيخين السابقين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

لقد ندد أبو ذر بهذه المخالفات، ثم تحول التنديد إلى الإنكار ثم الهجوم عليه بطريق غير مباشر بهجومه على ولاته، ومخالفتهم الشريعة وبذل أموال المسلمين لمن يستحق ولا يستحق جريا منهم وراء مطالبهم الشخصية، ثم أنكر على الخليفة ما كان يفعله من عزل وتولية للولاة لمصلحة أقاربه منحرفا عما كان يفعله سابقيه.

لم يكن إنكاره لأعمال الخليفة ومعارضته لما تم وهجومه على ولاته خروجا عن طاعته حيث قال فى عبارة صريحة:

«لو صلبنى عثمان على أطول جذع من جذوع النخل ما عصيت» خلق أبو ذر الغفارى بأفكاره هذه طريقا جديدا إلى نفوس المسلمين. فمنهم من نبذ الحياة وانضم الى الفئة التى سبقته، ومنهم من استمر فى هجومه على الخليفة. وكانت الفئة الزاهدة فى الحياة ضئيلة ومحدودة، واتخذت من المدينة المنورة مقرا لها، وظلت تتوارى عن الناس ولا تشارك فيما

(١) هود: ١٥ ـ ١٦

كـان يجرى فى المدينة وقـتئـذ. ثم فى النهـاية حينـما قـتل الخليفـة، ورأت لأول مرة دمـاء المسلمين تراق بيد المسلمين اعتزلت الحياة نهائيا غـير مشاركة فيها سواء. بالقول أو العمل وعاشت على بقايا الأموال التى جاءت إليها. وأطلق عليهم لقب «زهاد».

والعامل الثالث وجود التيارات الشديدة التى ظهرت بعد مقتل الخليفة الثالث.

هذه التيـارات كانت تسعى فى الخـفاء الى وقف حركة الفـتوحات الإسـلامية وتجمـيد الأنظمة الإسلاميـة الجديدة بكافة جوانبها ـ ولولا هذه التيـارات لاندفع المسلمون إلى أبعد مما وصلوا إليه وأن يقـيموا أحدث ما تـوصلت اليه قرائحهم من أنظمـة جديدة تتناسب مع تطور العصر.

أول هذه التيارات سعت نحو السيطرة على الدولة الإسلامـية وهو التيار الأرستقراطى الأموى الذى وجـد التربة الخفـية لأفكاره ومؤامراتـه فى حياة عثـمان بن عفـان واتخذ من الشـام قـاعـدة للوثوب على الحـكم حـينمـا سـقط عـثـمـان فى دمـائه، بل شـاركت هذه الأرستقراطية ومهدت الطريق نحو اغتيال الخليفة حتى يخلو لها الجو للسيطرة الكامل على الدولة الإسلامية.

عملت الأرستقراطية الأموية على نشـر بذور الاستعلاء والظلم بين المسلمين. بل أكثر من ذلك أشعلوا نار العصبية القبلية التى أخمدها الإسلام بين العرب حين ظهوره.

هذه الآفـات التى نشـرتها الأرسـتـقـراطية كـان لهـا الأثر فى ظهـور حـركة الأعـاجم وتعصـبهم لحضاراتهم القـديمة، وظلت هذه الحركـة تعمل فى الخفاء للقـضاء على حكم العرب والإطاحة بالدولة الأموية.

لـم تكن الأرستقراطـية والشعور المضاد لها من العوامل التـى أدت إلى إراقة دم الخليفة. بل هناك تيارات أخرى أوجدها الخليفة نفسه بأن أفسح لكبار الصحابة أن يستمتعوا بالحياة فينطلقوا إلى السياحة فى الدولة الاسلامية وأقاليمها، واستقر بعضهم فى الأمصار المختلفة والتف حولهم المسلمون فـملكوا الضياع والبساتين وكونوا لهم الأتبـاع والأنصار فظهرت لأول مرة الأحزاب السياسـية ـ أما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب قد حـددا أقامة كبار الصـحابة فى المدينة لـيكونوا مستـشـارين لهم فى أمـور الحيـاة التى أقلبت على المسلمـين

بأموال كثيرة من البلاد المفتوحة فيطغوا ويكونوا عملا سيئا يضر بالدولة الاسلامية.

لقد ألزم عمر بن الخطاب المسلمين بالتقشف والزهد فى الدنيا. بينما عجز عثمان بن عفان أن يلزمهم بذلك فأباح لهم الانتشار بين ربوع الدولة مع زيادة فى العطاء لهم فتهالكوا على الدنيا ومتاعها فاندلعت الفتنة تأكل من يعارضها وتدمر كل شئ أمامها فقتل عثمان ومن بعده على بن أبى طالب وغيرهم من الصحابة الأجلاء، وظهرت الأحزاب السياسية فى الدولة، وبدأ عودها يشتد رويدا رويدا حتى قوى فعصفت ببقية بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم ينج منهم الا «على زين العابدين».

شاهد بعض المسلمين تلك السحائب من الفتن والخيانات والأكاذيب وإراقة الدماء فانعزلوا عن الحياة فأطلق عليهم اسم «الزهاد» .

وكان المثل الأعلى فى دعوتهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكانوا فى حاجة إلى شخصية كبيرة تقودهم الى الزهد فكان «على زين العابدين».

كان «على زين العابدين» يكره أهل العراق لأنهم خذلوا أباه وجده فى حربه مع الأستقراطية الأموية، ولذلك صار بعيداً عنهم، ولم يكن لديه أية اتصالات بفارس وكان يبغض أيضا الحكم والرياسة، وكان زاهدا فى الدنيا وكان يدرك تمام الإدراك بأن مشاركته فى الحياة السياسية المشحونة بالفتن كفيل بأن يسئ إلى نفسه وإلى الحياة الإسلامية الجديدة التى يمثلها[١].

هذه العوامل الثلاثة هى التى ساعدت على نشأة الزهد وطورته مع تطور الحياة الاجتماعية والظروف التى طرأت على الحياة الثقافية الإسلامية. فطور الزهد إلى ما يعرف باسم التصوف.

ومن علامات الزهد ألا يفرح العبد الزاهد للدنيا إذا أقبلت عليه، ولا ييأس إذا أدبرت عنه تحقيقاً لقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[٢].

---

(١) بحار الصوفية: أحمد بهجت دار المعارف ص٨٨

(٢) الحديد: ٢٣

ويوضح لنا ابن عطاء الله السكندرى الزهد فى الدنيا بقوله:

«علامة فى فقدها وعلامة فى وجدها، فالعلامة التى فى وجدها الإيثار منها، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها. بالإيثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان».

ويقسم الامام أحمد بن حنبل مقامات الزهد إلى ثلاثة أقسام وهى:-

١ - زهد العوام: ترك الحرام.

٢- زهد الخواص: ترك الفضول من الحلال.

٣- زهد العارفين: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى.

وقد قسم فقهاء الصوفية الزهد إلى ثلاثة أنواع وهى:

١ - زهد الفقراء : الذين لا يملكون من الحياة إلا قوتهم الضرورى. فالزهد عندهم هو الغبطة والسعادة بما هم فيه والرضا بما أعطاهم الله عز وجل.

٢- زهد الأغنياء: الذين يملكون الإمكانيات المادية لجذب الملذات والمتع وامتلاك القصور. فالزهد هو إخراج كل هذا من القلب فلا يفكر فى الدنيا، وتركها وملذاتها والإقبال على الآخرة وما أعد له من حياة ناعمة فيها.

٣- الزهد فى النفس وهو من أجلها: المقصود بذلك عدم إرضاء النفس ولا يعجب بما يفعله. فإذا عجب ورضى عنها تملكه الغرور وابتعد عن طريق الحق.

وقال بعض العارفين فى دعائه:

«اللهم اجعل الدنيا فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا».

هذا أجمل ما فى الزهد بأن تملك أسباب الحياة فتشارك فيها، ثم لا تجعل هم الدنيا والحياة يملك قلبك.

الباب الثانى

مدخل

الإطار الأيديولوجى للتصوف.

المذاهب الصوفية.

مدخل:

«الأيديولوجيا» كلمة يونانية الأصل، ترجمت إلى كثير من اللغات، ولها عدة مفاهيم مختلفة منها:

١ ـ أنها تعنى العلم كعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ التى ورثها الانسان عن أجداده أو جاءت له عن طريق الأديان[1].

٢ ـ تدرس فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، ولها مناهج خاصة تدور حول طبيعة الفكر الانسانى وما يتبعه من عمليات عقلية وصور فكرية مختلفة ويطلق عليها اسم « علم الأفكار».

٣ ـ وتعنى أيضا مباحث الخير والحق والجمال.

٤ ـ ولا تعنى العقيدة الدينية كما يعتقد بعض الباحثين وإنما ترتبط بها لوجود تشابه فيما بينهما. كلاهما يعطى مجموعة تصورات وقضايا كبرى تمس الحياة الإنسانية بكافة جوانبها مثل قضية الألوهية والكون والمجتمع والأسرة والإنسان واليوم الآخر وما فيه من عقاب ثواب.

٥ ـ تعنى مجمو عة الأهداف التربوية المختلفة التى يسعى المجتمع الراقى لتحقيقها.

٦ـ تمثل مجموعة النسيج الفكرى التربوى، ولا يفهم أى فكر بمعزل عنها، فهى التى توضح الأهداف التى يرمى المجتمع إلى تحقيقها وعلى هذا الأساس تعد المناهج الدراسية والعملية وتخصص لها المصادر المختلفة لتمويل هذه العملية التربوية[2].

١ ـ الإطار الأيديولوجى العام يتمثل فى:

الله ـ الكون ـ الإنسان ـ اليوم الآخر ـ الأسرة المسلمة ـ المجتمع الإسلامى ـ الشيطان ـ العمل.

٢ ـ الإطار الأيديولوجى الخاص يتمثل فى:

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود: الأيديولوجيا والتربية ـ دار الفكر العربى ص٢٦ ـ ٣٥

(٢) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: الأيديولوجيا والتربية من المسيحية والإسلام ـ دار الفكر العربى ص٢١ ـ ٢٣

التـوبة ـ الذكـر ـ الخوف ـ الحب الإلهـي ـ التـوكل ـ الـولاية، ولكي نفـهم الإطار الأيديولوجي الصوفي ككل يجب أن نحلل كل نقطة من هذه النقط حتى تتضح لنا معالم الفكر التربوي الصوفي الذي ظل عدة قرون يـعد أجيالا كـثيرة من علمـاء وفقهـاء وأئمة للصوفية.

لقد أثرت هذه الأجيال المؤمنة بربها العالم الإسلامي بأفكار روحية مستمدة من آيات الله وأحاديث وسلوك رسول الله عليه الصلاة والسلام. ونتيجة لهذه التربية الروحية قادوا العالم الإسـلامي في فترات مظلمـة مرت عليه حتى كتب له النصر، وحـافظوا أيضا على بنيانه من التصدع خلال الفترات التاريخية.

لقد أعد الفكر التربوي الصوفي الفرد المسلم ليكون مدرسة كاملة يتربى على يديه جيل كامل وفق أيديولوجية صوفية.

الفصل الأول
الإطار الأيديولوجى

أولا - «الله»:

أوجد الله الإيمان فى قلب الإنسان وجعله طبيعيا فى النفس البشرية وجزءً من حياتها[1] فالإيمان ليس كلمة بسيطة ننطق بها وإنما فكر وإحساس قلبى قوى ترجم إلى سلوك عملى يتفق مع طبيعة هذه الكلمة، ومن الصعب على أى إنسان الوصول إلى الإيمان وإنما يأتى بتوفيق من الله[2] حيث يقول العزيز الحكيم:

«إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين»[3] ولا يتأتى الإيمان إلا بمعرفة كاملة عن فكرة الألوهية، وقد فسرها القرآن الكريم فى منتهى البساطة دون أن يتخذ الأساليب الجدلية السقيمة التى لا تتفق مع المنطق حيث يقول الله:

«قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد»[4].

ويسوق لنا القرآن الكريم أدلة كثيرة على وجود الحق منها:

أن الله يتصف بالقدرة الفائقة بحيث لا يستطيع كائن ما فى الوجود أن يقلد أو يخلق شيئا ما خلقه الله سبحانه وتعالى حيث يقول:

«الله الذى خلقكم، ثم رزقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون»[5].

ويقول أيضا:

«ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب

---

(١) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: الايديولوجيا والتربية من المسيحية والاسلام - دار الفكر العربى ص٤٦

(٢) دكتور عبد الغنى عبود: الفكر التربوى عند الغزالى - دار الفكر العربى ص٥٢

(٣) القصص: ٥٦

(٤) الاخلاص: ١ - ٤

(٥) الروم: ٤٠

شـيئـا لا يستنقـذوه منه ضعف الطالـب والمطلوب، ما قـدروا الله حق قدره إن الله لقـوى عزيز»[١].

ووضح القرآن الـكريم أن عبادة الأوثان والأصنـام لا تعود على الإنسان بـضرر أو نفع معين، وأنها فى حد ذاتها عبادة باطلة واستخفاف بمنطق العقل السليم والفطرة الإنسانية.

حيث يقول الله عز وجل:

«واتل عليهم نبـأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومـه ما تعبـدون، قالوا نبعد أصناما فنظل لها عاكـفين، قال هل يسمـعونكم إذ تدعون، أو ينفـعونكم أو يضرون، قـالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون»[٢].

وهناك دليل آخر على وجـود الله وقدرته التى يتصف بهـا قد فسـرها القرآن الكريم فى أهم الظواهر الاجتماعـية ومنها ظاهرة الموت والحياة بأن الله سبـحانه وتعالى قادر على أن يحيى ويميت، ولا يستطـيع أى كائن فى الوجود أن يبعد شبح الموت عن نفسـه وغير قادر أن يبعث الحياة فى الآخرين حيث يقول الله عز وجل:

«ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قـال أنا أحيى وأميـت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشـمس من المشرق فـأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين»[٣].

ودليل آخـر عـلى وجـود الخـالق وقـدرته بـأنه ناقش ذلك من خـلال الرؤيـة للظواهر الطبيعـية فلا تستطيع أى قـدرة غير قدرة الله أن تغـيرها مثل تعاقب الليل والـنهار وظهور القمر والنجوم.

كقوله تعالى:

«وآية لهم الليل نسلخ مـنه النهار فـإذا هم مظلمـون والشمس تجـرى لمستـقر لهـا ذلك تقدير العزيز العليم»[٤].

---

(١) الحج: ٧٣ ـ ٧٤

(٢) الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤

(٣) البقرة: ٢٥٨

(٤) يس: ٣٧ ـ ٣٨

ودليل آخر من خلال النعم التى أنعمها الله على عباده، ولا يستطيع أى إنسان أن يمنعها أو يعطيها.

وذلك فى قوله:

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»(١).

ودليل آخر من خلال الحوادث التى تقع على الإنسان، فيضرع إلى الله مستغيثا به حتى يكشف عنه الضر وينجيه من هذا البلاء.

حيث يقول الله عز وجل:

«هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين»(٢).

ودليل آخر بأن القرآن الكريم أشار إلى عمق الألوهية ذاتها بأن وضح أسماء الله، ولا يستطيع أى مخلوق على الأرض أن يطلقها على نفسه ومن هذه الأسماء:

الخالق ـ الباسط ـ الرزاق ـ السميع ـ العليم ـ الرحمن ـ الرحيم ـ الحى ـ الجبار ـ المنتقم ـ العزيز ـ الحكيم... وغيرها من أسماء الله الحسنى.

ومن خصائص القدرة الإلهية أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم وهو أمى فأعجز قريشا وغيرها من القبائل العربية إعجازاً كاملاً لفظاً ومعنى حيث قال الله:

وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»(٣).

لم تستطع قريش ـ رغم مالديها من إمكانيات فى اللغة العربية ـ أن تتحدى المعانى والألفاظ التى أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم. رغم المحاولات المتكررة من

(١) النحل: ٧٨

(٢) يونس: ٢٢

(٣) البقرة: ٢٣

بعض الكفار ممن ادعوا النبوة عقب وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام فكانت مجالاتهم تقليدا بغيضا إلى طبيعة النفس البشرية، ولقد استنكر الجميع هذا التقليد(١).

ثانيا ـ الكون:

يعرض القرآن الكريم فى آيات كثيرة صورا مختلفة عن خلق السموات والأرض حيث يقول العزيز الحكيم:

«أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج»(٢).

وقال أيضا:

«خلق السموات بغير عمد ترونها»(٣).

ويقول أيضا:

«الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر»(٤).

وقوله سبحانه وتعالى:

«وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»(٥).

ويتحدث القرآن عن الكواكب والنجوم حيث يقول العزيز الحكيم «وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»(٦).

ويقول أيضا:

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون»(٧).

---

(١) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: المرجع السابق ص٤٩ ـ ٥٠
(٢) ق: ٦٠
(٣) لقمان: ١٠
(٤) الرعد
(٥) الرحمن: ٧
(٦) الأنعام: ٩٧
(٧) يونس: ٥

ويوضح لنا القرآن اختلاف الليل والنهار حيث يقول الله:

«وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون»(١).

ويقول أيضا:

«يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا»(٢).

ويقول فى موضع آخر:

«وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذاهم مظلمون»(٣).

ويتحدث القرآن الكريم عن تصريف الرياح وتسيير السحاب ونزول المطر كما يتحدث عن النبات وتكوين الأجنة واختلاف الألوان.

حيث يقول سبحانه وتعالى فى هذا الشأن:

«ألم ترى أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار»(٤).

ويقول أيضا:

«أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون»(٥).

ويذكرنا فى موضع آخر بقوله:

«هو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً، لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا»(٦).

ويقول أيضا:

---

(١) الانبياء ٣٣
(٢) الأعراف ٥٤
(٣) يس: ٣٧
(٤) النور: ٤٣
(٥) الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠
(٦) الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩

«والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»(١).

ويقول فى موضع آخر:

«الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون»(٢).

ويقول:

«وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون» (٣).

ويقول العزيز الحكيم:

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه»(٤).

«هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»(٥).

«وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون»(٦).

يعرض القرآن الكريم صور الكون بشتى أنواع العرض، فهو يعرضه مرة فى صورة شاملة ومرة أخرى فى صور مفصلة ثم يعود إلى عرضه فى إيجاز شديد حتى ليجمعه فى كلمة واحدة مضافة لاسم الله مثل:

---

(١) فاطر: ٩
(٢) الروم: ٤٨
(٣) الأعراف: ٥٧
(٤) الزمر: ٢١
(٥) النحل: ١٠ ـ ١١
(٦) الأنعام: ٩٩

«رب العالمين»

ويوضح القرآن الكريم عظمة الخالق فى خلقه هذا الكون وإبداعه له. كما تكثر الآيات التى تدور حول الشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والبحار والينابيع والليل والنهار والظلمة والنور والسحاب والأمطار والنبات والمزروعات والحيوان والإنسان. كل هذا بصور رائعة. وجعل الخالق سبحانه وتعالى هذا الكون مسرحا للإنسان ومجالات لطموحه لتحقيق رغباته، ثم جعله أيضا محوراً لتفكيره وبحوثه ليصل الإنسان من خلال معرفته بالكون إلى معرفة الخالق[1].

ومن صفات هذا الكون البديع فى التكوين أنه دائما فى حركة وتبديل، وكذلك ارتباط بين الأسباب والنتائج.

من خلال كل هذا نرى حقيقة واضحة. وهى حقيقة الخالق سبحانه وتعالى وأن الكون بمظاهره وأسراره المختلفة والكائنات التى توجد به كلها تدين بالعبودية لله وحده، فالأحرى بالإنسان وهو أحد مخلوقات الله أن يدخل فى هذه الدائرة كقوله تعالى:

«إن ربكم الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»[2].

لم يكن الكون فقط مثارا لتفكير الإنسان وتأمله، أيضا مجالا لرزقه والانتفاع به. فالله خلق الكائنات والطبيعة وسخرهما للإنسان، وفوق كل هذا جعله سيدا كريماً عزيزا على كل مخلوقاته بما أوجد فيه من خصائص واستعدادات تمكنه من التعرف على قوانين الحياة والتعرف على ظواهر الكون لتطوير الحياة وإسعاد نفسه.

ويقول الدكتور عبد الغنى عبود عن الكون وارتباطه بخالقه:

(«ليست فكرة الكون» معزولة عن فكرة «الله» فى الإطار الأيديولوجى الإسلامى وإنما هى فكرة مكملة لها، وذلك لأن الكون هو «موضوع» قدره الله سبحانه. بمعنى أنه إذا كان

(١) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: المرجع السابق ص١٢ ـ ١٣

(٢) الأعراف ٥٤

الله سبحانه خالقا، فإن الخلق هو هذا الكون، وإذا كان سبحانه قادرا، فإن قدرته تتبدى فى هذا الكون. ومن ثم كانت فكرة الكون محورا ثانيا من محاور فهم الإطار الأيديولوجى للاسلام)[1].

وينقسم الكون إلى جزئين: الجزء المادى والجزء الروحى، فالجزء المادى الذى نراه بأعيننا ونسمع ذبذبته، وقد أكد هذه الحقيقة العلم الحديث. أما الجزء الروحى فهو الذى لا نسمعه ولا نراه، وهذا لا يعنى عدم وجوده لأن سرعة الذبذبة أكثر مما تقع عليه العين أو تسمعه الأذن لأن سرعته أكثر من سرعة الضوء.

حيث يقول دكتور رؤوف عبيد:

«عالم الروح لا يرى ولا يسمع ولا يلمس ـ مع وجوده الحقيقى ـ لأنه أثير يهتز ـ أى يتردد بسرعة تتجاوز سرعة الضوء»[2].

ثالثا ـ الإنسان:

قدس الإنسان قديما واعتبروه شيئا رائعا، وقد أطلق عليه سيد المخلوقات على الأرض، وقد صور بصور مختلفة. فتارة محاربا وأخرى رامى رمح وعاشقا ومتأملا، ويرجع ذلك إلى الإعجاب الشديد به والإيمان بعظمته وسيادته على الأرض[3].

وقد تناول العلماء والباحثون الإنسان من عدة جوانب كثيرة، وقدمت فيه بحوث كثيرة، هذه البحوث لو تناولناها بالتحليل لوجدنا فيها تناقضا كبيرا فى حياة الإنسان الأولى ونشأته على الكون.

فبعض العلماء يرى أن الإنسان جاء نتيجة تطور بعض الخلايا الحية فى الكون حتى وصل إلى ماهو الآن، والإسلام يعارض كل هذا التناقض بأن الله خلق الإنسان ليكون خليفته فى الأرض ووضح أن الفترة لخلق هذا الإنسان كانت سرا من أسرار الله، ويقول

(١) دكتور عبد الغنى عود: الفكر التربوى عند الغزالى: دار الفكر العربى ص٥٦

(٢) الدكتور رؤوف عبيد: مقولة الإنسان روح لا جسد (الخلود ـ العقل الاعتقاد فى ضوء العلم الحديث) الجزء الأول طبعة ثالثة ـ دار الفكر العربى ١٩٧١ ص٢٩

(٣) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: نفس المرجع السابق ص١٥

الله عز وجل فى هذا الصدد:

«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا»[١].

«وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا»[٢].

ومعنى هذا لا توجد صلة بين خلق الإنسان وبين التكوينات الأرضية التى وجدت لدى المخلوقات الاخرى[٣].

خلق الله الانسان وحدد صفته ومنزلته الروحية، وحدد مكانته من الكون ومن المخلوقات والكائنات التى وجدت قبل وجوده، ثم وضح علاقاته فيها وتعامله معها. كما أن الطبيعة ـ بحسب تقرير القرآن الكريم ـ هبة من الله للإنسان قد سخر ظواهرها وجعلها مجالا لرغباته وطموحه حيث يقول الله عز وجل:

«ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون»[٤].

أودع الله فى الأرض خصائص وأسرار ما يسمح بحياة الإنسان فقد جعلها مقرا صالحا لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ودورانها حول الشمس وميلها على محورها وسرعة دورانها إلى غير ذلك من الموفقات التى تسمح بحياته وهو بطبيعته قادر على تطويع الأرض واستخدامها بما أودعه من خصائص واستعدادات للتعرف على نواميس هذا الكون وتسخيره فى حاجاته.

وحيث يقول الله عز وجل:

«هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم»[٥].

لقد جعل الله الإنسان كريما بين مخلوقاته، وعزيزا وفريدا بين الكائنات حينما أسجد له الملائكة وطرد إبليس من رحمته حين أبدى حقده عليه وعدم طاعته لربه وادعائه بأنه

---

(١) الانسان: ١

(٢) مريم: ٩

(٣) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: نفس المرجع السابق ص١٨

(٤) الأعراف: ١٠

(٥) البقرة: ٢٩

أفضل من آدم وذريته، حيث قال الله:

«واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين»[1].

لقد نظرت الملائكة فى خصائص المخلوقات التى سبقت آدم من حيث صراعها وسفكها الدماء وظنت بعلمها لهذه الخصائص بأن «آدم» له نفس الخصائص حيث قالوا حين سماعهم خطاب الله «واذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء».

لم تكن الملائكة تعلم بأن المخلوق الجديد سيفوقها علما واحاطة بما يدور حوله فى هذا الكون. بل قارنت بينها وبينه بأنها مسبحة ومقدسة الله وبين هذا المخلوق الذى له نفس الخصائص السابق معرفتها لدى المخلوقات الأخرى من فساد وسفك للدماء، ولكن سرعان ما تغيرت هذه النظرة حين تبين عجزها لما وضعت فى اختبار من الله بعرض علمها وعلم هذا المخلوق فاعترفت أولا بفضل الله عليها بما علمها، وثانيا اعترفت بمقدرة المخلوق الجديد.

ولما اكتمل للإنسان كل شئ من استعدادات وخصائص ورعاية من الخالق واعتراف الملائكة بفضله وكراهية وحقد إبليس له. لذا كان لابد له أن يدخل تجربة جديدة ليعرف ضعفه فى بعض جوانب تكوينه، هذا الضعف يمكن عدوه «ابليس» من الدخول إليه.

يتركز الضعف فى خلود آدم فى الجنة التى أسكنه الله اياها، فقد وجد فيها المتعة والنعيم الكامل، وهو يعرف تماماً فى إسكانه الجنة فترة موقوتة يتدرب فيها ويستكشف مواهبه ويتعرف على عدوه ويدرك أخطر مواقفه، والخلود فى الجنة عنده معناه لا يموت أبدا، ويكون له ملك غير محدود وعمر طويل ومن هنا كان دخول إبليس إليه.

تحركت نفس آدم بالخلود فى الجنة، وهذا المكان ليس موضعا للخلود فيه الآن وحذره الله من إبليس فهو خالقه ويعرف تكوينه العقلى والنفسى والوجدانى. كما حذره أيضا من اقترابه من هذه الشجرة.

---

(١) البقرة: ٣٠

فالقرآن الكريم لم يتعرض لنوعية هذه الشجرة، والتي ترمز للمحظور الذى يتعلم منه آدم كيف يمكنه كبح جماح شهواته ورغباته وآماله التى لا تتحقق، حرك إبليس نفس آدم نحو المحظور ليخرجه من رحمة ربه التى حرم منها بسببه وما أن فعل آدم هو وزوجه، فعلتهما حتى شعرا بالندم. فأخبرهما الله بأنه قد حذرهما من تلك الشجرة ومن هذا الملعون.

وعصيان آدم لم يكن فى مواجهة الخطاب كما فعل إبليس وإنما عصيانه بعد تقبله الأمر والاستجابة له أولا. حيث قال الله سبحانه وتعالى:

«ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهم وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين، فدلالهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت له سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين»[١].

وحينما ظهرت السوءة لآدم وحواء اتضح لهما بأن إبليس قد أوقعهما فى المحظور، وتمت التجربة، وتكشفت لهما خصائصهما فاستعدا لمزاولة اختصاصهما فى الخلافة والدخول فى المعارك التى لا تنتهى مع عدوهما المتربص بهما والساعى لإفساد حياتهما وتعطيل رسالتهما حينما صدر الأمر الإلهى لهما حيث قال الله عز وجل.

«اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين»[٢].

وقال أيضا:

«فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون»[٣].

وليست فكرة الكون معزولة عن القضية الإنسانية التى سردها القرآن الكريم وإنما مرتبطة بالإنسان ارتباطا كاملا فالكون بما فيه من خصائص وأسرار يعمل على ترقية

---

(١) الأعراف: ١٩ ـ ٢٢

(٢) الأعراف: ٢٤

(٣) الأعراف: ٢٥

الاستعـدادات الإنسانية وخصائـصها والإنسان بدوره يعمل على تطـوير خصائص الكون والكشف عن أسراره والانتفاع به، فالإنسان مـخلوق من مخلوقات الله يسعى سواء طوعا أو كرها إلى عبادة الله ومعرفته.

ولـم يتمكن الإنسان من القيام بتبعات الخلافة فى الأرض ما لم يخلق الإنسان فى نفسه ووجدانه معنى العـبودية الكاملة لله. ومعنى العبودية أن يسلم المرء نفســه كله ويتوجه بكل مشاعره نحو ربه سبحانه وتعالى، ويعترف بأن الذات الإلهية هي الحقيقة المطلقة الوحيدة.

وحين يثور الإنسـان على العبودية لله ويرفضها ولا يؤمن بهـا فإن ثورته قد تكون على حساب حريته وحـياته وأسباب طمأنينته فى يومه وغده، وحين يـتقبل المؤمن هذه العبودية تتوفر له كل أسباب المتعة والراحة[1].

ورسالة الإنسان المسلم فى حياته نشر الحق والعدل والخير، ولا يمكن أن يفعل ذلك إلا إذا وجدت فى نفسه صورة صادقة من هذه المبادئ[2].

وحرية الإنسـان فى الاختيار لحـياته وسلوكه تعتـمد على عقله وقلبـه، وهما أغلى شئ لديه. والله سبحـانه وتعالى يخاطب ذلك فيـه، ولا يخاطب بطنه أو جسده، ومـخاطبة الله لقلب الإنسان وعقله هو الطويل الى الله تفكرا فيه ودعوة إلى اكتشاف أسرار الكون[3].

رابعا ـ اليوم الآخر:

حياة الدنيا واليوم الآخر حيـاة واحدة. بداية زائلة فى الحياة الدنيا، وبداية أبدية فى اليوم الآخر. وزوال الدنيـا صوره القرآن الكريـم فى يوم القـيامة وما يحـدث للنجوم والكواكب والجبال والبـحار والإنسان، وكافة المخلوقات والـكائنات من فناء وموت. كل ذلك صوره لنا فى صورة ترغيب وترهيب حتى تستقيم الحياة الدنيا وينتشر فيها العدل الإلهى، ويسعى الإنسان إلـى حياة طيـبة آمنة لا قلق فـيهـا ولا خوف وأن كل مـا يزرعه الإنسان يـجده فى آخرته.

ويصور لنا القرآن الكريم ذلك فى قوله عز وجل:

---

(١) عبد الحكيم عبد الغنى: المرجع السابق ص٥٢

(٢) عبد العال: التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ دار الفكر العربى ص٤٤٤

(٣) عبد الحكيم عبد الغنى قاسم: نفس المرجع ص٥٤

«فإذا النجوم طمست، واذا السماء فرجت، وإذا الجبال نسفت، واذا الرسل أقتت، لاى يوم أجلت، ليوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل، ويل يومئذ للمكذبين، ألم نهلك الأولين، ثم نتبعهم الآخرين، كذلك نفعل بالمجرمين»(١).

ويقول أيضا:

«إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجرت، وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت»(٢).

يقول أيضا:

«اذا وقعت الواقعة، ليس لوقعها كاذبة، خافضة رافعة، إذا رجت الأرض رجا، وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا»(٣).

وصورة أخرى فى اليوم الآخر. صورة العقاب المتمثلة فى النار، وما أعده الخالق من عذاب محسوس فى صور تثير فى النفس الخوف الشديد.

والصورة الثالثة هى صورة الثواب المتمثلة فى الجنة وما أعده الله من نعيم مقيم أبدى للذين آمنوا وعملوا الصالحات وهاتان الصورتان أبديتان ولا زوال لهما مثل زوال الحياة الدنيا، وقضية اليوم الآخر ليست قضية منفصلة عن قضية الكون والله والإنسان. بل متصلة بهم فالإنسان يسعى إلى نعيم الآخرة بتطوير الحياة على الكون مع الإيمان بالله.

خامسا ـ الأسرة المسلمة:

ولايعترف الإسلام بأى علاقة بين الرجل والمرأة الا بعلاقة الزواج، والزواج عند الجنس البشرى شأنه عند كل المخلوقات فى الوجود حيث يقول العزيز الحكيم:

«ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»(٤).

ويوضح لنا أن الزوجين شطران من نفس واحدة. حيث يقول العزيز الحكيم:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها»(٥).

هذان الشطران فى النفس الواحدة هما راحة للنفس والأعصاب والجسد، وصيانة

(١) المرسلات: ٨ ـ ١٨
(٢) الأنفطار: ١ ـ ٥
(٣) الواقعة: ١ ـ ٦
(٤) الذاريات: ٥٤
(٥) النساء: ١

للحياة، ومزرعة للنسل، وامتداداً لـلحياة مع تطورها وترقيتها إلى حياة فاضلة كـريمة مصونة هادئة كقول الله عز وجل:

«ومن آياته انه خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»[1].

خص الإسلام الرجل بالقوامة، وهذه القوامة صيانة لأمور المؤسسة الأسرية من التفكك والانحلال والضياع، كما أنها أيضا حماية لها من النزوات التى تدمر الحياة.

وحيث يقول الله عز وجل:

«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم»[2].

خص الله المرأة بعدة وظائف منها الحمل والوضع والرضاعة والعطف والرحمة وسرعة الانفعال والاستجابة السريعة لمطالب الطفولة. كما يقوم الرجل بعدة وظائف منها العمل على توفير الحاجات الأسرية الأولية وحمايتها والصلابة والخسونة والقدرة على التفكير لصالح الأسرة، ولهذا جعله الله أقدر على القوامة ولا تسير المؤسسة الأسرية إلا به.

وقد حدد الإسلام العلاقات بين أفراد الإسرة، ومن خلال هذه العلاقات فى الأسرة تستمر الحياة وتنمو وتتطور ولا تنفصل الأسرة عن الإطار الأيديولوجى الإسلامى.

يتعامل الفرد مع الأسرة كبقية التعامل مع الخالق ومع الكون الذى يعيش فيه ومع الآخرين، وقليل من الفهم يعرف الحياة ونهايتها:

سادسا ـ المجتمع:

المجتمع فى نظر علماء الإسلام أسرة كبيرة كما أن الأسرة مجتمع صغير، لأن أفراد الأسرة هم فى حد ذاتهم أفراد فى المجتمع الكبير، ومن خلال التنشئة الأسرية وما اكتسبه أفراد الأسرة يتعاملون به مع أفراد المجتمع الكبير.

والمجتمع الذى أقامه الإسلام له آدابه وقيمة وأخلاقة فهو مجتمع تربطة رابطة قوية واحدة هى العقيدة الإسلامية التى تنبذ التمايز بالجنس واللون، وتبغض التعصب للقرابة، وتحبذ رابطة الأخوة الإسلامية حيث يقول الله عز وجل: «إنما المؤمنون أخوة»[3].

(١) الروم: ٢١

(٢) النساء: ٣٤

(٣) الحجرات: ١٠

ويطالب الإسلام المسلمين برد التحية أو أحسن منها.. حيث يقول الله: «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها»[1] ويحذرنا القرآن الكريم من الافتخار والاختيال.

كقوله تعالى: «ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور»[2].

ويفرض الإسلام التسامح والدفع بالتى أحسن لتتحسن العلاقات بين أفراد المجتمع كقوله تعالى:

«ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عدواة كأنه ولى حميم»[3].

ويحذرنا من السخرية ليقضى على بذور العداوة بيننا كقوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»[4].

ويحرم الإسلام الغيبة بين أفراده كقوله تعالى:

«ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم»[5].

ويحرم الله أن تؤخذ الأمور بالظن السئ. كما حرم التجسس على الآخرين حيث يقول فى ذلك:

«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن اثم ولا تجسسوا»[6].

وبالجملة فإن كل المسلم على المسلم حرام دمه، وعرضه وماله. فالمجتمع الإسلامى مجتمع نظيف لا تشيع فيه الفاحشة ولا تنطلق فيه الشهوات، وإنما تحكمه قواعد وقوانين وسلوك من عند الله كقوله:

(١) النساء. ٨٦
(٢) لقمان: ١٨
(٣) فصلت: ٣٤
(٤) الحجرات: ١١
(٥) الحجرات: ١٢
(٦) الحجرات: ١٢

«ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عـذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون»[1].

وكذل فإنه مجتمع سليم عفيف آمن ترفرف عليه أجنحة السلام والطهر والأمان، وقوى متعاطف يكفل لكل قادر آمين عملا شريفا، ولكل عاجز عيشا كريما وكل راغب فى العفة زوجـة صالحـة، ويكفل جـميع الحـريات للناس. وفـيه تقـام الشـورى والنصح والتعـاون والمساواة.

سابعا ـ الشيطان:

ينقسم العالم الكونى إلى مـجاليـن.. المجال المادى الذى نراه ونسمع ذبذبته، والعـالم الروحى الذى لا يرى ولا يسمع بسرعة ذبذبته. فـالعلم الحديث قد وصل إلى شئ محدود جدا فى هذا المجال. أمـا العلم الإسلامى قد أحاط بجمـيع الجوانب فى هذا العالم الروحى وقد ظهر ذلك فى الإطار الكونى.

«.... الذى يتربع على عرشه الله سبحانه ومن حوله الملائكة الكريمة ـ وفى هذا الكون ـ الجن والشـياطين والإنسـان والحيـوان، ولكل هذه المخلوقـات المرئى، وغيـر المرئى دوره الذى يؤديه كما أراده الله سبحانه وتعـالى فى انتظام الحياة على هذا الكون، واستمرار هذه الحياة حتى تقوم الساعة بإذن الله سبحانه، الخالق المدبر وحده....»[2].

الشيطان عـدو الإنسان اللدود والذى يوقعه دائمـا فى المحظور، وقد حذر الله سبـحانه الإنسان من اتبـاع الشيطان فتكون نهايتـه فى النار، ووضح القرآن الكريم ما فـعله الشيطان مع أبو البشـرية فى إيقاعه فى المحظور، ونجـاه من ذلك بأن تاب عليه بعد أن علمـه الخالق كلمات فغفر له.

وللشيطان مكايد كثيرة. منها الحيل والمكر والخداع الذى يزين المحرمات ويقلب المظلوم ظالما، والظالـم مظلوما، والحق باطلا والباطل حقا.

---

(١) النور: ١٩

(٢) الدكتور عبد الغنى عبود: الفكر التربوى عند الغزالى ـ دار الفكر العربى ص٦١

ويأتى الشيطان إلى مريض النفس حيث يلقى فى سمعه من الألفاظ المغرية، ويحرك النفس إلى الشك والظنون حيث يقول العزيز الحكيم فى ذلك:

«ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد»(١).

ويحرك الشيطان النفوس الضعيفة بإثارتها نحو الشهوات والملذات فتفسد حياتها وتكون نهايتها.

ويقص علينا القرآن الكريم قصص الأنبياء صلوات الله عليهم موضحا الصراع الذى يدور بين حزبين.

حزب الخير ويقوده نبى من أنبياء الله ويرعاه الخالق سبحانه. وحزب الشر ويقوده الشيطان ويلتف حوله مرضى النفوس والكافرين والمفسدين فى الأرض، وتدور رحى الصراع بين الحزبين فيقل حزب الشر ويزداد حزب الخير حتى تكون كلمة الله بالنصر لحزب الخير فينتصر النبى على حزب الشر ويقضى عليه. ويحذرنا الخالق من الشيطان كقول الله سبحانه وتعالى فى هذا الصدد:

«فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم»(٢).

ويقول أيضا:

«يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون»(٣).

ويقول أيضا:

«الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم»(٤).

---

(١) الحج: ٥٣

(٢) النحل: ٦٣

(٣) البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩

(٤) البقرة: ٢٦٨

ثامنا ـ العمل:

العمل يوفر للإنسان حاجاته الأولية كما يوفر له راحته النفسية لقيامه بدور هام بتأمين حياته وحياة أسرته وحياة الآخرين ويدفع عجلة المجتمع إلى الرقى والتقدم[١].

ووظيفة الإنسان الأساسية فى الإسلام ترقية الحياة فى المجتمع بموجب استخلافه فى الأرض ولا يتم تطوير الحياة بغير العمل.

ووضع الإسلام انتقال الثروة من شخص لآخر عن طريق الكسب. عن طريق عمل تجارى أو عمل يدوى أو عن طريق وراثة.

ووضح الخالق الطرق المحرمة والاستحواذ على المال كالسرقة والاغتصاب، والغش والخيانة والرشوة والاختلاس والبناء والاحتكار والربا والنصب والاحتيال عن طريق صناعة الخمور وتجارتها[٢].

كما وضح الإسلام المصارف المالية على الأسرة والسائل والمحروم وابن السبيل وحقوق الجماعة فى المال.

وليس العمل فى الإسلام بكسب العيش وضمان الرزق، وانما يشمل عمل العقل والفكر حتى يعود على المجتمع الإسلامى بالنفع الكبير. كما أن العمل لا يكون بغير علم. على أساس أن العلم يطور الطرق والوسائل والأدوات التى يستخدمها الإنسان فى عمله ويزيد من الإنتاج[٣].

وحيث يقول الإمام الغزالى رحمه الله فى هذا الصدد: «العمل بغير علم لا يكون».

والعلم وحده لا يقرب الإنسان إلى الله بل بالعلم والعمل يجعل الإنسان قريبا من خالقه، ويفضل الفرد على آخر بهذين الوسيلتين. فالعلم يرقى العمل الإنسانى ويطوره.

وقد فرض الإسلام العمل على الإنسان حتى ولو كان غنيا ويعفى منه العاجز فيلتزم المجتمع بتوفير معاشه هو وأسرته.

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود: الفكر التربوى عند الغزالى ـ دار الفكر العربى ص١١٤

(٢) نفس المرجع ص١١٥

(٣) نفس المرجع ص١١٦ ـ ١١٧

تاسعا ـ أنبياء الله:

لم تكن قصص الأنبياء التى وردت فى القرآن الكريم إلا دعوة صريحة وواضحة إلى معرفة الخالق والإيمان به مع العمل الصالح الذى يعود على حياة الفرد والمجتمع بالنفع الكثير، وأن يفسح المجال أمام العلماء لدراسة الأمم السابقة ومعرفة حضارتها وعوامل قوتها وأسباب ضعفها والنتائج الوخيمة التى تعود على المجتمع المعاند لدعوة الأنبياء.

كما أن القرآن الكريم لم يسرد قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سردا تفصيليا، ولم نحظ بأى تفصيلات عن حياة أى نبى من الأنبياء عليهم السلام أو تاريخ أمته. بل اقتصر على شرح القضية الأساسية وهى الصراع بين الحق والباطل والخير والشر ـ ولم يركز على ما يفعله الملوك بالتفصيل فى مجتماعتهم. بل ركز من زاوية ظهور النبى ودعوته ومدى تقبل هؤلاء الملوك لهذه الدعوة أو مدى معارضتهم لها.

سائد الخالق أنبيائه بنصرهم تارة، أو بالمعجزات تارة أخرى حتى يقتنع الناس بما جاءوا به فيدخلون فى دين الله أفواجاً.

وكانت دعوة الانبياء تقوم على رفض ألوان التسلط البغيض على عقول الناس، وأيضا التعصب لكل قديم دون التفكير فى عوامل فساده، وعدم إفساح المجال للأفكار الجديدة التى فيها مصلحة المجتمع، وإنما قامت دعوتهم على قوة الإيمان بالخالق.

لقد أوجدت الأفكار القديمة التى سادت العصور التاريخية المختلفة انفصالا وخصومة بين الإنسان وذاته التى تشمل العقل والروح والجسد.

ففلاسفة اليونان أشعلوا خصومة شديدة بين الجسد والعقل، وأنزلوا العقل فى طبقة سامية الشأن. فالفيلسوف فى نظرهم ذو عقل راجح وبه يسود المجتمع الذى يعيش فيه فاهتموا به، أما البوذية فقد أشعلت الخصومة إلى حد كبير. بأن أعطت الروح قوة وانطلاقا فى مجالات الكون الغيبية وأهملت الجانبين الآخرين.

أما اليهودية فقد سودت الجسد على الجانبين الآخرين، وكانت رسالات الله إلى أنبيائه أن تعود هذه الجوانب الثلاثة «العقل ـ والروح ـ والجسد» الى العمل متماسكة متكاملة تحت سيطرة خالقها، وبهذا العمل يعود الإنسان إلى طبيعته الأولى التى فطره الله عليها حيث يقول الخالق:

«فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله»[1].

(فالأنبياء جميعا أمة واحدة جاءوا بدين واحد هو عبادة الله رب السموات والأرض. والإنسان مخلوق وخليفة الله على الأرض خلق ليمارس طبيعته ويرقى حياته متخذا الأسباب والمسببات التى أعلمه الله بها، فإذا أهمل الإنسان جانبا من جوانبه الثلاثة «العقل ـ الروح ـ الجسد» أو اهتم بجانب منهم اهتماما شديدا اختل توازنه واختل الكون معه. ولهذا جاء الأنبياء بمنهج واحد من الخالق لوضع الإنسان فى مجاله الطبيعى الذى خلقه الله به.

«وما دام مصدر النبوات واحد، وهو الله سبحانه وتعالى فإنه لابد أن يكون هناك اتفاق بين هذه النبوات فى «الأساسيات»..(٢). والدارس بعمق فى قصص الأنبياء يلاحظ ما يلى:

أولا ـ لا ينجو أى رسول أو نبى من البلاء، وكلما عظم البلاء لدى النبى زاد شأنه وعظم قدره لدى الخالق.

ثانيا ـ ضرب الله أمثلة كثيرة فى هذا البلاء، فمثلا نوح عليه السلام كذبه أهله وعشيرته ألف عام إلا خمسين، وإبراهيم طرد من داره ورمى به فى النار، وموسى فر هاربا خوفا من الاعتقال ومؤامرات القتل واتهم بالسحر والجنون والكذب، وعيس افتروا عليه وعلى أمه زورا وبهتانا، وتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لكثير من الأذى من قريش، مالم يتعرض له الأنبياء به قبله، كما اتهم بالجنون والسحر والكذب وتعرض للقتل والحروب والمؤامرات.

ثالثا ـ قصص الأنبياء مختلفة عن بعضها فقصة يوسف تعرضه يرى حلما، وقصة إبراهيم تعرضه فتى يافعا ونظر للسماء مفكرا فى ملك الله، وقصة داود تعرضه شابا مندفعا فى حروب مريرة مع جالوت.

رابعا ـ بعض القصص تعتمد على السرد المفصل للحوادث وأخرى يهمل هذا السرد وتعتمد على الإيجاز فتختلف القصص طولا وقصرا فى عرضها.

---

(١) الروم: ٣٠

(٢) دكتور عبد الغنى عبود: الفكر التربوى عند الغزالى ـ دار الفكر العربى.

خامسا ـ وتختلف طريقة العرض من قصة لأخرى فمنها الصراع بين الخير والشر والصراع بين الإنسان وظروف حياته وأهوائه، أو الصراع بين الطين والروح والصراع بين النبى وزوجته أو أهله أو ابنه أو أبيه[1].

لقد وضعت هذه القصص بكل دقة مقاييس للجمال والحق والخير تستطيع الإنسانية أن تصل إليها بما لديها من عقل وروح.

عاشرا ـ العلم الإسلامى:

وضع القرآن الكريم فى آيات كثيرة فضل العلم والعلماء. حيث يقول العزيز الحكيم:

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط»[2].

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»[3].

وقال تعالى:

«انما يخشى الله من عبادة العلماء»[4].

ويقول أيضا:

«قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب»[5].

وقال عز وجل:

«وقال الذين أوتوا العلم، ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا»[6].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض».،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وقال صلى الله عليه وسلم:

«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه «ياكميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك

(١) أحمد بهجت: أنبياء الله ـ مطابع الشروق ـ طبعة سادسة ١٩٧٩م ص٢١ ـ ٢٦

(٢) آل عمران: ١٨ ـ (٣) الزمر: ٩ ـ (٤) ـ فاطر: ٢٨ ـ (٥) الرعد: ٤٣ ـ (٦) القصص: ٨٠

وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق».

وقال أيضا رضى الله عنه «كل يوم لا أزداد منه علما فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم، وليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك».

وبمثل هذا الأسلوب حث الإسلام المسلمين على الأخذ بالعلم، وحينما فعلوا ذلك أنارت الأمة الإسلامية الطريق إلى كافة البشر، لقد تغير المجتمع القديم وتحلى بمثل عليا جديدة، وكان الفضل فى ذلك للإسلام ولرسول الله عليه الصلاة والسلام.

لقد كرم الله المسلمين حينما قال عز وجل:

«اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم»[(١)].

يقصد الإسلام بالقراءة نوعين هما:

أولا ـ قراءة الكتب والآثار التى تركها العلماء السابقين لمعرفة الأجيال السابقة وأحوالهم وطرق معيشتهم والحوادث التى مرت عليهم وحضارتهم التى بنوها وأسباب قوتها وفسادها واندثارها فى النهاية.

ثانيا ـ التعرف على ما يدور فى الكون، ويحصل على هذه المعرفة بطريق الحواس، والبحث فى الكون لمعرفة أسراره وخصائصه.. والهدف من هذين النوعين فى القراءة هو أن يتمكن المسلم من الوصول إلى خالقه، ويعرف سبب وجوده على الأرض ويكون خليفة الله على الأرض ويرقى الحياة عليها ويطورها، ولا يتأتى ذلك إلا بالعمل الجاد المثمر.

لم تمض أعوام قليلة على هذه الدعوة الصريحة من الإسلام حتى تعرف المسلمون الأوائل على الحضارات المجاورة بشبة الجزيرة العربية فاغترفوا منها ما يتناسب مع دعوة دينهم الجديد وصبغوا ما أخذوا ـ بالصبغة الإسلامية، ثم أضافوا عليه الكثير من قرائحهم.

لقد أضاء الإسلام عقول العلماء من ظلام العصور السابقة وأباح لها البحث فى الأرض وأعماقها، والبحار وأغوارها، وفى الأفق وأبعاده مستخدما الأدوات والوسائل.

---

(١) العلق: ١ ـ ٥

فحصل على نتائج مذهلة.

وانطلق علماء المسلمين إلى تقسيم العلوم إلى نوعين. هما علوم الدنيا من طب وهندسة وعلوم طبيعية وزراعية، وعلوم دينية تشمل تفسير القرآن والأحاديث وعلم الأخلاق وغيرها من العلوم المختلفة بمفهومها الحديث، وقد جاء ذلك نتيجة حرص الإسلام على احترام حريات الآخرين. سواء في القول والرأى دون التعرض لأصحابها بالسوء فى اللفظ أو البدن، واتسع الأمر حتى شمل الحرية فى العقيدة ذاتها، ويقول الله عز وجل فى ذلك:

«لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»(١).

يقول أيضا:

«لكم دينكم ولى دين»(٢).

وبغض الإسلام نفوس المسلمين من السخرية من الآخرين وتسفيه أقوالهم وآرائهم. بل حض على احترام بعضهم البعض لأنهم مخلوقات الله عز وجل كقوله:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن»(٣).

ولم يفرض الإسلام العلوم فرضا وإنما ترك لهم حرية الاختيار للعلوم حسب ميولهم واستعدادهم، ومن هنا ظهر العلماء بتخصصاتهم المختلفة.

«وخلق الإسلام المسلم بما تقتضيه مكانته من الخلافة بأن يحيط علما بما يدور حوله فى الكون من كائنات وأسرار، وأن يحيط فيها علما بالخالق سبحانه وتعالى، وبمجرد ظهور الإدراك والنضج لدى الفرد المسلم يعمل الإسلام على تنمية ملكاتهما لديه، ومن ناحية أخرى اختلف نظام المجتمع الإسلامى عن غيره من المجتمعات الأخرى المجاورة له وجميع أفراد المجتمع يقومون بحكم ذواتهم عن طريق الرقابة الذاتية للفرد، فالإسلام يقيم وازعا داخليا فى الإنسان يبعده عن الفعل السئ ويوجهه نحو الخير والفضيلة، ويكون أفراد المجتمع الإسلامى كل حاكم لذاته، وليس هناك فرد واحد يدعى لنفسه مثالية يحكم بها

---

(١) البقرة: ٢٥٦

(٢) الكافرون. ٦

(٣) الحجرات: ١١

الجميع، وفوق الرقابة الباطنية فى الانسان المسلم رقابة أخرى ممثلة فى الشريعة الإسلامية التى ليست ملكا لأحد يوجهها كيف شاء. بل هى ثابتة يخضع لها الجميع حاكمين ومحكومين»(١).

لقد خلق الإسلام من الفرد المسلم والمجتمع نمطا واحدا مع إزالة الفوارق بين الطبقات.

وأهداف الإسلام كثيرة. منها إيمان المؤمن بربه وإقامة عدالة اجتماعية. حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى»

ويقول العزيز الحكيم:

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(٢). واحترام العمل والدعوة إلى المعرفة.

وللاسلام خصائص يمتاز بها عن غيره. ومن أهمها تكريم الإنسان حينما يعرف من العلم ما يساعده على أن يطور حياته ويسعى على تنمية قدراته واستعدادته وميوله. وقد حث الإسلام على استخدام البصر والأذن والعقل فى البحث فى أسرار الكون وخصائصه.

عرف العلماء المسلمون كل هذا فمدوا أفكارهم إلى مجالات البحث المختلفة واستعانوا بما حصلوا من تراث قديم من الحضارات السابقة فظهرت العلوم المختلفة بمفهومها الحديث بفضل الإسلام الذى وضعهم على قارعة الطريق العلمى.

وحين تمت معرفة الفرد المسلم لخالقه ظهرت علوم التوحيد والشريعة والفقة، وحينما بدأ الإنسان يتعرف على أسرار وخصائص الكون تعددت العلوم الطبيعية والهندسة والفلك والجغرافيا والزراعة وعلم الحشرات وسلوكياته وعلم الحيوان.

وحنيما تعرض الإنسان لمرض ظهرت علوم الطب، وأيضا حينما تعرضت حياته بالإفساد ظهر علم الأخلاق وعلم الاجتماع والفلسفة، ومن خلال معرفته لقصص الأنبياء تعلم السرد التاريخى فظهر التاريخ بمفهومه الحديث، ومن خلال معرفتهم بالشيطان كعدو لدود ظهر علم النفس الذى يبحث فى سلوكيات الإنسان السوية منها وغير السوية وضعف الشخصية واتباع الهوى لتعطينا أنماطا مختلفة عن السلوك الإنسانى.

---

(٤) انظر الفكر التربوى عند الغزالى: دكتور عبد الغنى عبود ص١٢٠ ـ دار الفكر العربى.

(٢) الحجرات: ١٣

عوامل تطور العلم الاسلامى:

نجحت الثورة الإسلامية التى حمل لواءها كـافة المسلمين فى العالم الإسلامى فى إقامة ثقافـة إسلامية حـررت العقل وأسقطت أمـامه جمـيع الحواجز والقـيود فانطلقت العـقلية الإسلامية فى المشـاركة فى الناحية الثقافـية العالية. فأعطوها كل خبـراتهم ونتائج قراءتهم وأفكارهم فازدهرت الثقافة ازدهارا كبيراً، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل. أولها:

إن الفرس كانوا فى طليـعة حركة الترجمـة التى ظهرت فى أوج عظمتها من الفـارسية إلى العـربيـة فى عـصر المأمـون، ويرجع الفـضل إلى أولئك الـذين أجادوا اللـغة العـربيـة والفارسية معا، وظهروا فى ميادين العلم والمعرفة والتدوين والتأليف.

أما العامل الثـانى الذى ساعد على الانطلاق العلمى ـ الذى جاء نتـيجة امتزاج الثـقافة الإسلامية بالثقـافة العربية فإن ولاة الدولة العباسية نقلوا العـلماء وشجعوا العلم فى داخل ولاياتهم فقامت حركة التأليف وإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات العلمية، وصار بلاطهم مثل بلاط الخليفة ذاته.

والعـامل الثالث فـقد شـهد العـالم الإسلامـى فى القرن الرابع الهـجرى ظهـور أكبـر مدرستين. المدرسة الأولى كانت فى الفسطاط وكان طابعها دينى بحث ودرست فيها علوم القراءات لأول مرة وعلـم الفقة والحديث. فذاع صـيت هذه المدرسة فانطلق إليهـا العلماء من كل فج عمـيق للدراسة والتدريس، وقد اسـتقر فيهـا الإمام الشافعى وعـمل على نشر مذهبة وعقد المناظرات بين مذهبه والمذاهب الأخـرى، وبهذا خلق نهضة علمية جديدة فى نوعها.

أما المدرسـة الثانيـة فهى مـدرسة القـيروان التى ظهـرت فى تونس، وساعـد على نموها وازدهارها الأغالبة الذين شجعوا حلقات التدريس فى مساجدها، وجلبوا العلماء إليها من أعماق الشرق وفرغوهم للتدريس والبحث العلمى.

لعـبت هذه المدرسة دورا هاماً، فى انتـشار العلوم الديـنية فى بلاد المغـرب مما أدى إلى جذب علماء قـرطبة للدراسة والبحث العلمى، وقـد وقفوا أمام المعتـزلة وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى انتصروا عليها فى النهاية.

وعلى هذا النمط قامت المدارس فى أنحاء الدولة الإسلامية، وقد رحل بعض الصحابة الاجلاء إليها.

والعامل الرابع بأن قامت الدولة العباسية بالقضاء على الفتن والثورات التى اندلعت منذ مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وقد شملت هذه الثورات العالم الإسلامى.

لقد ساعد الهدوء والأمان على ظهور طبقات جديدة زادت من دخلها، ونالت مزيدا من الحرية مما ساعدها على الاتجاه العلمى والدراسة والبحث والتردد على حلقات التدريس.

والعامل الخامس فقد لعب الخلفاء العباسيون دوراً هاماً فى الحياة العلمية فشجعوا العلماء والشعراء وأفسحوا لهم المجال، وفتحوا قصورهم كمنتدى يقال فيه الشعر والأدب وحلقات المناظرة.

كما أن الخفاء اقتنوا المكتبات التى تحتوى على كتب علمية نادرة مختلفة فى العلوم وضعوها فى متناول الجميع، وبهذا كله جذبوا العلماء من جميع أنحاء الدولة الإسلامية طلبا للعلم.

أما العامل السادس فهو حركة تدوين التراث العربى، وهذا نتيجة رغبة العلماء فى غذاء عقلى وروحى يكون فى متناول أيديهم فى أى لحظة. كما أن الفرق الإسلامية المختلفة والتيارات السياسية لم تعد تتقبل سماع التراث مشافهة وإنما تسعى إلى شئ مدون يؤيد وجهة نظرها ويساعدها بالوقوف فى وجه معارضيها، مع وجود صناعة الورق التى ظهرت أخيرا. كل هذا أدى إلى تدوين اللغة والآداب والحديث والأخبار.

أما العامل السابع فهو نتيجة العلاقات الطيبة بين الدولة الإسلامية وجيرانها، مما ساعد على وجود بعثات علمية متبادلة مع شراء الكتب التى أدت إلى وجود حركة جديدة وفريدة من نوعها، وهى حركة الترجمة التى ساعدت الثقافة على سرعة انتشارها.

وما أن أنقضى القرن الرابع الهجرى حتى كان العالم الإسلامى يبنى حضارته على أحدث أسلوب علمى عرفته الإنسانية منذ نشأتها، ومن هذا الأسلوب العلمى أخذت أوربا ما يتناسب مع حياتها. فظهر البحث العلمى الحديث وتعددت العلوم وارتقى الإنسان بوسائل حياته المادية حتى نسى نفسه فتعرض لكثير من الأمراض النفسية التى نراها اليوم، وغمرت عصور مظلمة العالم الاسلامى أفقدته ما كان يرجو من حياته الروحية فى انتشال حياته المادية التى تسعى بخطى واسعة الى دماره.. ومن هذا كثرت الدعوة إلى الرجوع الى الحياة الروحية الإسلامية والتى نحن بصدد بحثها وعرضها بدون أى شوائب.

الفصل الثانى
المذاهب الصوفية

أولا - التوبة:

يختلف الإنسان عن بقية المخلوقات والكائنات التى تسكن معه على هذا الكوكب، فقد خلقه ربه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شئ، وأظهر فضله على الملائكة وجميع المخلوقات وطرد إبليس من رحمته واتخذه عدوا له.

والإنسان بطبيعة الحال خلق ضعيفا يتقاذفه صراع مع نفسه وصراع مع عدوه اللدود الذى لا يتعب ولا يمل الوسوسة له حتى يقع فى المحظور ويرتكب الذنوب التى تعرضه للعقاب الشديد والعذاب الأليم.

هذه الذنوب لو أعددنا لها احصائية لفاقت الملايين يرتكبها الإنسان دون أن يدرى، وقد يكون مصدرها الإنسان ذاته عن طريق حواسه «المادى» أو فكره «العقل» أو إحساسه ووجدانه «القلب والروح» يرتكبها فى حق نفسه وأسرته أو مجتمعه، ورحمة به أوجد الله سبحانه وتعالى سترا لهذا الذنوب أو غسلا له منها عن طريق التوبة.

ومعنى التوبة ألا يقترف صاحب الذنب أى ذنب آخر، وأن يبتعد عن كل عمل فاسد أو فعل فاحش أو تفكير ضال أو ظن سئ، ولا يستمع الى هوى نفسه أو وسوسة الشيطان، وقد حث الله سبحانه على التوبة وربط بينها وبين الفلاح والنجاح لعباده المؤمنين حيث قال عز وجل:

«وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون»[1].

كما قرر الإسلام أن التوبة حقيقية إذا أقلع الفرد المذنب عن العودة إلى ارتكاب الذنب مرة أخرى.. حيث يقول الله العزيز الحكيم:

«يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا»[2].

---

(١) النور: ٣١

(٢) التحريم: ٨

وأن يتوب الإنسان من ذنوبه ومن غفلته قبل أن يأتيه الموت فلا تقبل منه التوبة. حيث يقول الله عز وجل فى ذلك:

«إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعددنا لهم عذابا أليما»[1].

ومن يغفر الذنوب ويقبل التوبة الا الله سبحانه وتعالى حيث قال فى كتابه العزيز:

«غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو اليه المصير»[2].

ويحذر الاسلام الناس من الشماته والسخرية حينما يفتضح أمر صاحب الذنب، فالسخرية منه والشماته فيه أقبح من الذنب ذاته. ربما يكون صاحب الذنب عند ربه أحسن بكثير من الساخر أو الشامت فيه. لأن الذنب قد أجرى فيه الذلة والخضوع والوقوف أمام ربه منكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب.

ويقول الله عز وجل فى هذا الصدد:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بضع الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم»[3].

وللتوبة عادة ثلاثة شروط هامة هى:

١ ـ الندم على ما سلف منه فى الماضى .

٢ ـ الاقلاع عن هذه الذنوب وعدم الاستمرار فيها

٣ ـ العزم بعدم العودة إلى ارتكابها فى المستقبل، والاعتذار عنها بقول صادر من القلب

---

(١) النساء: ١٧ ـ ١٨

(٢) غافر: ٣

(٣) الحجرات: ١١ ـ ١٢

طالبا العفو والغفران من الله.

«اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر، ولا قوة لى فأنتصـر، ولكنى مذنب مستغفر. اللهم لا عذر لى وإنما هو محض حقك ومحض جنايتى فإن عفوت وإلا فالحق لك».

وهناك نوعان من الاعتذار:

١ ـ اعتـذار ينافى الاعتراف بالذنب كـقول المذنب «يارب هذا قـضاؤك وأنت حكمت على وأنت كتبت على...».

٢ ـ اعـتـذار يقـرر بالاعـتـراف بالذنب كـقـول المذنب «يارب أنا ظـلمت وأخطأت، واعتديت على فلان...».

ولا تتم التوبة إلا إذا علـم الذنب فى نفس صاحـبه. فالاستهانة بالذنب لا يـندم صاحبه عما فعل، وهناك نوعان من التوبة هـما:

١ ـ توبة للعلل: يتـوب صـاحب الذنب من ذنبه إذا شـعـر بضيـاع ماله أو خـاف على منصبه وعرضه وأولاده.

٢ ـ توبة الخشيـة: يتوب صاحب الذنب خوفـا من الله وتعظيما له وإجلالا له وخـشية الطرد من رحمة الله، ولقبول التوبة عدة شروط من أهمها:

١ ـ أن تكون حال صاحب الذنب خيرا مما كان قبلها

٢ ـ أن يكون الخوف مصاحبا له لأنه لا يأمن مكر الله

٣ ـ انخلاع قلبه وتقطعه ندما وخوفا

٤ ـ الذلة والخضوع لله

وعدم قبول التوبة يرجع إلى عاملين:

١ ـ وقوف صاحب الذنب من نفسه واثقا بأن التوبة قد قبلت

٢ ـ استمرار الغـفلة عن الذنب، ولا يتبع التوبة أعمالا صـالحة، ويلعب العلم فى التوبة دوراً هاماً فى حـياة المسلم صاحب الذنب، فالـعلم معناه المعرفة واختـفاء الذنوب، فيـتألـم القلب ويحزن بسـببه، فـالألم عند الغزالى مـعناه الندم، ولا يخلو من علم. وهذا العلم هو معرفة الخير والشر ومعرفة الذنوب وخطرها على حياة الإنسان.

ويوضح لنا الامام عبد القادر الجيلانى وهو من أئمة الصوفية التوبة فى أربع نقاط هامة هى:

١ ـ أن يملك صاحب الذنب لسانه من الغرور والغيبة والنميمة والكذب

٢ ـ لا يحمل فى قلبه حسدا ولا عداوة لأحد

٣ ـ أن يترك إخوان السوء لأنهم يضيعون عليه فرصة التوبة

٤ ـ أن يكون مستعدا للموت نادما ـ مستغفرا من ذنوبة، وقد سئل الحسن رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال:

«هى ندم القلب، واسغفار باللسان، وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود اليه».

وقال أحد الصوفية «إن التوبة عندهم هى التوبة من التوبة ـ أى أن يتوب الإنسان عن قلة صدقة فى فعله، فالمعروف أن الإنسان يتوب من الإثم أو الذنب الذى يفعله أهل الظاهر، أما أن يتوب من التوبة ذاتها فهذا معناه عدم التفكير فى الإثم أو الذنب أو فى موضوع التوبة ذاتها. لأنه إذا فكر فى التوبة تذكر الإثم. ومعنى ذلك أن عليه أن ينسى ذنبه كما أن ينسى توبته التى كانت سببا فى ذنبه، أى أن يتوب من ذكر كل شئ سوى الله عز وجل، أى يكون الإنسان لله كلية، وهذا منتهى غاية الواصلين»[١].

فالتوبة حلقة الاتصال بين الإنسان وربه. فلما عصى آدم أبو البشرية ربه ندم على ما فعل فرحمه الله بالتوبة بأن علمه كلمات فتاب بها عليه. ولهذا فرضت التوبة على كل مسلم مؤمن بالله ويرغب فى الرجوع إلى ربه طاهرا فى الملبس والقول والفكر والقلب فيصدق فيه قوله تعالى:

«إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»[٢].

ومن الأحاديث الشريفة التى اعتبرها الصوفية عمرة لأحوالهم ومقاماتهم قوله صلى الله عليه وسلم:

«يا أيها الناس توبوا إلى الله فأنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة»[٣].

---

(١) الدكتور حسن محمد الشرقاوى: الفاظ الصوفية ومعانيها: دار المعرفة الجامعية ـ طبعة ١٩٨٣م ص١٠٤

(٢) البقرة: ٢٢٢

(٣) صحيح مسلم ـ طبعة دار الشعب جـ٥ ص٥٥٣ باب استحباب الاستغفار

إن التـوبة من ذنـب، هو بفعل ضـده، وقد اشـترط الله فى توبة القـائمين بالـنية كقـوله تعالى:

«ان الذين يكتـمون مـا أنزلنا من البينات والـهدى من بعـد ما بيناه للناس فى الكـتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم»[1].

واشترط فى توبة المنافق الإخلاص كقول الله:

«ان المنافقيـن فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيـرا إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتـصموا بالله وأخلصـوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسـوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما»[2].

وباب التوبة مفـتوح للجميع. من أراد الرجـوع إلى الله سبحانه وتعالى عـليه أن يتطهر ويقلع عن الذنوب ويتوب توبة نصوحا لا رجوع إلى ارتكاب أى ذنب.

ثانيا ـ الذكر:

ورد فى القرآن الكريم العديد من الآيات التى تحض على ذكر الله سواء كان بالقلب أو باللسان، ونستعرض هذه الآيات لنرى مدى أهمية الذكر بالنسبة للمسلم كقوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنـوا اذكروا الله ذكرا كـثيرا، وسبـحوة بكرة وأصيلا، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما»[3].

وقوله تعالى:

«واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة»[4].

وإذا نسى الإنسان ربه أنساه الله نفسه كقوله تعالى:

«ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم»[5].

---

(١) البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠

(٢) النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦

(٣) الاحزاب: ٤١ ـ ٤٣

(٤) الاعراف: ٢٠٥

(٥) الحشر: ١٩

ويوضح الخالق للمسلمين بأن الذاكر لله قد أفلح بأن غفر له ذنوبه وأعد له حياة طيبة في الدنيا والآخرة كقوله تعالى:

«واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون»[1].

وقال أيضا:

«...والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما»[2].

ومعنى الذكر هو استحضار الله سبحانه وتعالى في القلب كما أن الله يذكر عبده الصالح في الملأ الأعلى ويعطيه الأجر[3].

وقد فرض الله على المسلم أن يذكره عقب كل عبادة يقضيها، لأن ذكره ينهى عن الفحشاء والمنكر كما أن الذكر يعطيه الشحنة القوية من الإيمان ليستمر في عبادته لله عز وجل.

١ ـ عقب الصلاة كقوله تعالى:

«فإذا قضيتهم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم»[4].

وكذلك عقب صلاة الجمعة كقوله تعالى

«فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون[5].

٢ ـ عقب قضاء مناسك الحج كقوله:

«فإذا قضيتهم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا»[6].

٣ ـ عقب الصيام كقوله:

«ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون»[7].

---

(١) الأنفال: ٤٥

(٢) الأحزاب: ٢٥

(٣) دكتور محمد الشرقاوي: ألفاظ الصوفية ص١٦٤

(٤) النساء: ١٠٣

(٥) الجمعة: ١٠

(٦) البقرة: ٢٠٠

(٧) البقرة: ١٨٥

٤ ـ توضيح وربط بين الكون وبين ذكره. لأن من اختصاص الذاكرين الانتفاع بآيات الله عز وجل كقوله تعالى:

«إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم»(١).

٥ ـ إن روح الحج ولبه ذكر الله. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله».

٦ ـ وسط المعارك الحربية وحين ملاقاة الأعداء كقول الله:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون»(٢).

وللذكر عدة أنواع منها:

١ ـ الذكر الظاهرى (أى استخدام اللسان فقط) وينقسم إلى ثلاثة أقسام هى:

(أ) ذكر يثنى به على الله مثل سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

(ب) ذكر دعاء كقوله تعالى:

«قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»(٣).

(جـ) ذكر رعاية من الله حيث يقول الذاكر: الله معى، الله ناظر إلى.

٢ ـ الذكر الخفى وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) ذكر بمجرد القلب.

(ب) ذكر التخلص من الغفلة والنسيان

(جـ) ذكر مناجاة القلب للرب خشية ورغبة وحبا وثناء واستعظاما

٣ ـ ذكر الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن وأن الله يباهى ملائكته بهؤلاء الذاكرين له.

ويرى بعض الصوفية ان الذكر ليس معناه اهتزاز جسم الانسان وانما الذكر يكون فى القلب لأن الذكر توبة وتطهير حيث يقول الله عز وجل:

«إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»(٤).

---

(١) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١

(٢) الأنفال: ٤٥

(٣) الأعراف: ٢٣

(٤) العنكبوت: ٤٥

وأن يراعى الذاكرين ما يلى:

١ ـ الذكر بالقلب

٢ ـ لا ينفصل القلب والعقل عند الذكر

٣ ـ أن يحذر الذاكر الغفلة كالنوم

وقد وضع الله سبحانه للذاكر من الخير كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي عن الله تعالى (قال الله عز وجل. أنا عند ظن عبدى وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب منى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة).

وبذا يكون الذكر مذهبا اتخذته الصوفية لطريقها

ثالثا ـ الخوف:

يحذرنا الله سبحانه من الخوف من المخلوقات أو من ضياع المناصب أو الفقر، وقد فرض سبحانه وتعالى على المسلمين الخوف منه كقوله تعالى:

«فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين»[(١)].

وقال أيضا:

«وإياى فارهبون»[(٢)].

وقال سبحانه وتعالى:

«فلا تخشوا الناس واخشون»[(٣)].

ومعنى الخوف هو الخروج من الطمأنينة، وذلك أن المسلم يغلب عليه الخوف لمعرفته الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، وللخوف ثلاثة أنواع هى:

١ ـ خوف العامة: اضطراب قلوبهم حين سماعهم الوعد والوعيد.

---

(١) آل عمران: ١٧٥

(٢) البقرة: ٤٠

(٣) المائدة: ٤٤

٢ ـ خوف الأوساط: خوفهم من قطيعة الله سبحانه وتعالى
٣ ـ خوف الخواص: خوف حب وتكريم وخشية من الله
ويقسم الإمام حامد الغزالى حقيقة الخوف إلى قسمين:
القسم الأول: بقدر معرفتنا بالحق يكون خوفنا.
القسم الثانى: بقدر معرفتنا بأنفسنا وعيوبها والأخطار المحيطة بها يكون خوفنا.
ويقول أبو حفص فى الخوف:
«الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه».
قال ذو النون «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنم الخوف ضلوا».
وكما هناك توبة بعلم كما ذكرت فيوجد خوف بعلم وهو أعلى درجات الخوف كقوله تعالى:
«إنما يخشى الله من عباده العلماء»[1].
وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:
«إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية».
وهناك أنواع كثيرة من الخوف منها:
١ ـ الخوف لله: لعامة المسلمين والمؤمنين
٢ ـ الخشية لله: للعلماء والعارفين بالله
٣ ـ الهيبة لله: للمسبحين لله
٤ ـ الإجلال لله: للمتقربين
وعلى قدر الذى يحصل عليه الفرد المسلم من العلم والمعرفة تكون خشيته وخوفه حيث يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام.
«إنى لاعلمكم بالله وأشدكم له خشية».
فالخائف من ربه هارب إليه حيث. قال أبو سليمان:

---
(٢٧) فاطر: ٢٨

«ما فارق الخوف قلبا إلا خرب».

وقال إبراهيم بن سفيان:

«إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها».

وللخوف عدة درجات متفاوته فيما بينها. منها:

١ ـ الخوف من العقوبة: يتولد نتيجة التصديق بالوعد والوعيد، ويؤمن به عامة المؤمنين، والخوف هنا يدل على صحة الإيمان.

٢ ـ خوف من المكر: وهو من حسن الأعمال التى نعملها، وتبديل حالنا من الأنس إلى الوحشة.

٣ ـ خوف أهل الخصوص: وهو يكون وقت تضرع العبد للرب واستعطافة بأسمائه ومناجاته بكلامه.

والقلب دائما يكون الغالب عليه الخوف. فإن غلب عليه الرجاء فسد وبالتالى فسدت أعمال صاحبه.

ويحدثنا الشيخ السمرقندى عن مالك بن دينار قال:

«إذا عرف الرجل نفسه علامة الخوف وعلامة الرجاء، فقد استمسك بالأمر الوثيق، وعلامة الخوف هى اجتناب ما نهى الله عنه، وأما علامة الرجاء فهى العمل بما أمر الله به»(١).

ونتيجة للخوف يحاول العبد المؤمن بكل طاقاته أن يمنع نفسه من الوقوع فى المخالفات، ويشتد مع نفسه اشتدادا كبيرا، ويمنعها من المحظورات، وهذا ما نطلق عليه الورع والتقوى.

ويرى بعض المتصوفة:

«أن ينقل قلبك من وطن الدنيا مسكنه إلى وطن الآخرة، ثم تقبل به كلية على معانى القرآن واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله وخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته ونزلها على داء قلبك»(٢).

وثمرة الخوف فى النهاية قوة الإيمان بالله عز وجل

---

(١) الإمام السمرقندى: تنبيه الغافلين ـ طبعة ١٣٧٩هـ ـ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢

(٢) ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين ص٢ ـ ٢٩

رابعا ـ التوكل :

للتوكل تعريفات وتفسيرات كثيرة منها:

١ ـ عمل قلبى ليس باللسان ولا عمل الجوارح

٢ ـ علم القلب بالله سبحانه وتعالى

٣ ـ الاسترسال مع الله عز وجل

٤ ـ الرضى بالمقدور وأن يرضى بما يقدره الله

٥ ـ الثقة بالله والطمأنينة والسكون إليه

وهناك تعريفات أخرى للصوفية عن التوكل منها:

قال بشر الحافى: «يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله، رضى بما يفعل الله».

ويقول ابن عطاء:

«التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب من شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها».

يقول أبو سعيد الخراز: «التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب».

ويقول أبو تراب النخشبى: «طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية. فأن أعطى شكر وإن منع صبر».

أن يثق العبد فى الله ولا يدخل فى ذلك شك فى صدره ولا يطمئن إلا إذا رضى الله لأنه وكيله. وهناك آيات عديدة وكثيرة لفئات مختلفة من المتوكلين نستعرضها.

١ ـ المؤمنون كقوله تعالى:

«وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»(١).

«وعلى الله فليتوكل المؤمنون»(٢).

«ومن يتوكل على الله فهو حسبه»(٣).

---

(١) المائدة: ٢٣

(٢) التوبة: ٥١

(٣) الطلاق: ٣

٢ ـ لأولياء الله كقوله تعالى:

«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير»[١].

٣ ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى:

«فتوكل على الله إنك على الحق المبين»[٢].

«قل هو الرحمن ـ آمنا به وعليه توكلنا»[٣].

«وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا»[٤].

٤ ـ لانبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى:

«وما لنا ألا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا»[٥].

٥ ـ لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيمانا. وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»[٦].

وللتوكل عدة درجات من أهمها:

١ ـ التوكل: بداية اتصال العبد بربه يركن إلى الله فى كل أموره وهو صفة عامة المؤمنين.

٢ ـ التسليم: وهو التسليم لله فى كل أموره وهو صفة أوليائه.

٣ ـ التفويض: وهو أعلى درجات التوكل وهو نهاية مايصل إليه العبد المؤمن بالله وهو صفة الموحدين.

وهناك سؤال مطروح: كيف نصل إلى درجة التوكل؟.

وللإجابة على هذا السؤال فإن هناك أموراً لا تتم حقيقة التوكل إلا بها وهى:

(١) الممتحنة: ٤

(٢) النمل: ٧٩

(٣) الملك: ٢٩

(٤) النساء: ٨١

(٥) إبراهيم: ١٢

(٦) آل عمران: ١٧٣

١ ـ معرفة الله وقدرته وانتهاء الأمور إلى علمه. وهذه المعرفة أول درجات التوكل.

٢ ـ أن يـأخذ العـبد المؤمن بالأسبـاب والمسببـات. مثلا لذلك طـهى الطعام لا يتم إلا بإيقاد النار.

٣ ـ أن يطرد العبد المؤمن من قلبه كل شرك، وعلى قدر إيمانه يكون التوكل فإذا التفت العبد إلى غير الله نقص ذلك من توكله على الله.

٤ ـ أن يعـتمـد قلب المـؤمـن عـلى الله سـبحـانه وتعـالى ويسـتند إليـه فى كل أمـوره ويسكن إليه.

٥ ـ أن يظن العبد المؤمن فى الله ظنا حسنا

٦ ـ أن يستسلم العبد لربه وينقاد له ويترك نفسه ومنازعاتها مع ربه.

٧ ـ أن يلقى العبد كل أموره إلى الله وهذا ما يطلق عليه باسم التفويض.

٨ ـ أن يرضى العبـد بما يفعله ربه له، وهذا هو ثمرة التـوكل، وقد سئل يحيى بن مـعاذ عن التوكل فقال: «إذا رضى العبد بالله وكيلا».

ويرتبط العلم والمعرفـة بالتوكل، وعلى القـدر الذى يحصل به الفرد المسلم من المعـرفة والعلم يحمل على قدر من التوكل.

وسؤال آخر مطروح: ما جزاء المتوكل على الله؟ والإجابة ما جاء فى القرآن الكريم من آيات فى هذا الشأن كقوله تعالى:

١ـ «ومن يتق الله يجعل له مخرجا»[١].

٢ ـ «ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته»[٢].

٣ ـ «ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا»[٣].

ولهذا يكون التـوكل رضا بالله وكيلا. فـهو الذى يوجه المؤمن إلى فعل الخـير ويرشده إلى عمل المعروف.

---

(١) الطلاق: ٢

(٢) الطلاق: ٥

(٣) الطلاق: ٤

خامسا ـ الولاية:

معنى كلمة الولى فى اللغة هو القريب، والمراد بأولياء الله الذين فازوا بالقرب من الله سبحانه وتعالى بطاعته واجتناب معصيته، وهم فئة قليلة من المؤمنين. كما فى قوله الله عز وجل:

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكان يتقون»(١).

وهناك عدة تفسيرات لكلمة الولى وهى:

١ ـ العالم بالله المواظب على طاعته المخلص له فى عبادته

٢ ـ نصير الله

٣ ـ من آمن واتقى

٤ ـ المحب لله

٥ ـ الذى تولى هدايته بالله بالبرهان، وتولى القيام بحق عبوديته لله والدعوة إليه.

٦ ـ الاستغراق فى معرفة الله والإيمان بقدرته

٧ ـ أن يتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام

٨ ـ الذى يؤيده الله وينصره

والولاية قسمان: عامة وخاصة:

فالعامة تشمل جميع المؤمنين حيث يقول الله عزل وجل:

«الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور»(٢).

والولاية الخاصة تشمل جميع المقربين الى الله بالمواظبة على الطاعة.

وشخصية الولى فى الإسلام شخصية فريدة من نوعها. فهى عملية ايجابية مع الحياة ولها منهج إسلامى تأخذه من كتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وقد وضح القرآن الكريم أن أولياء الله هم الذين آمنوا والذين يتقون. فى قول الله عز وجل: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشروق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن

---

(١) يونس: ٦٢ ـ ٦٣

(٢) البقرة: ٢٥٧

السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هو المتقون»[١].

كما أن الولى مجاب الدعوة راضيا عن الله سبحانه وتعالى زاهدا فيما يتكالب عليه الناس من علو فى الدنيا، ولايشغل نفسه بملاذ الدنيا ولا بتحصيل أسباب الغنى، حسن الأخلاق كريم الصحبة، عظيم الحلم كثير الاحتمال.

وأولياء الله سبحانه وتعالى يتفاوتون فى الولاية حسب قوة الإيمان بالله وقربهم من الله.

وقد قسم الإمام ابن تيمية الأولياء إلى طبقتين.

١ ـ سابقون ومقربون وهم فى جنات النعيم وهم قلة من المؤمنين.

٢ ـ أبرار مقتصدون: الذين يؤدون الفرائض والنوافل وهم مقربون لله فى جنات النعيم. وقد حذر الله سبحانه وتعالى بعدم إيذاء هذا الولى وأن معاداته من عداء الله سبحانه وتعالى.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«قال الله تعالى: من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب، وما يتقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته. كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لاعطيته ولئن استعاذنى لاعذته، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره إساءته»[٢].

ويمكن بعد ذلك أن نقول إن الولاية نوعان. كبرى وصغرى. فالكبرى هى التى يتولى الله فيها عبده فلا يكله إلى نفسه ويحفظه فى سلوكه وسيره، والصغرى هى التى يتولى العبد فيها طاعة الله تعالى ويحافظ على فرائضه ونوافله، وصاحب الأولى داخل فى قوله تعالى: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٣].

---

(١) البقرة: ١٧٧

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة وأحمد عن عائشة والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامه، البخارى ـ طبعة دار الشعب جـ٨ ص١٨١

(٣) يونس: ٦٢

وصاحب الولاياة العامة داخل فى قوله تعالى: «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور»(١) على أن أقل درجات الولاية هى الطاعة والإخلاص فى الطلب ويجتمعان فى الكبرى ويختلفات فى الصغرى(٢).

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل الانبياء هم المرسلون وأفضلهم أولوا العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم.

لا يتميز أولياء الله عن الناس فى الظاهر من الأمور وغيرهم فى جميع الطبقات. كما أن الولى ليس معصوما من الغلط ولا الخطأ. بل يجور أن يخفى عليه بعضا من علم الشريعة.

فأولياء الله هم المتقون المقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون ما أمروا به وينهون عن المنكر فيؤيدهم الله بملائكة ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره. والجنة درجات، وأولياء الله المؤمنون المتقون يوضعون فى تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم. ويقول الله عز وجل:

«أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب»(٣).

ويقول عز وجل:

«يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير»(٤).

وهنا ربط الله بين الايمان وبين أهل العلم والمعرفة فلا يكون ولى الله جاهلا أو مفرطا فى الجهل، ويجب أن يكون عالما بالكتاب والسنة، فإذا خالف هذين المصدرين فليس من أولياء الله.

يقول ابوسليمان الدارانى:

---

(١) البقرة: ٢٥٧

(٢) محمد يوسف حموده: الصوفية وأثرهم فى الدعوة الى الله تعالى رسالة ماجستير أشراف دكتور أحمد أحمد غلوش: جامعة الأزهر كلية أصول الدين ص٥٦

(٣) الزمر: ٩

(٤) المجادلة: ١١

«إنه ليقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة».

وقال أبو القاسم الجنيد:

«من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم فى علمنا».

قال أبو عثمان النيسابورى:

«من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة».

وقال الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل».

وقال أبن مسعود:

«الذكر ينبت الإيمان فى القلب كما ينبت الماء البقل وإن كان الرجل خبيرا بحقائق الإيمان الباطنة فارقا بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية فيكون قد قذف الله فى قلبه من نوره» كقول الله عز وجل:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم»(١).

سادسا ـ الحب الالهى:

الحب هو أسمى وأرقى العلاقات الإنسانية في الوجود ويتأتى نتيجة العلاقات الطيبة بين المحب ومحبوبه فى أول الطريق.

وتأتى هذه العلاقات الإنسانية السامية نتيجة صفاء القلب ونقائه مما فيه من شوائب مختلفة الألوان، وتظل هذه العلاقات تعلو وتظهر وتتشابك لتؤدى إلى تطويع إرادة المحب تحت تصرف محبوبه وفى نهاية المطاف يمنح المحب أغلى مالديه وأشرف ما يملكه لمحبوبه وهو «قلبه».

ولا توجد حدود للمحبة. بل لها آثار وشواهد تتصرف عليها وتتلخص فى عدة نقاط هامة. منها الميل الدائم نحو المحبوب والإيثار، وهذه بداية بحار المحبة التى لا قرار لها.

(١) الحديد: ٢٨

يعقبها لحظة من أخطر لحظات المحب بأنه ينسى نفسه فتذوب صفاته فى صفات محبوبه فلا يدرك شيئا إلا ما أراد ورغب، ويسعى المحب بكل جهوده إلى موافقة محبوبه فى رغباته لإرضائه فيكون كل كثير عنده قليل حينما يمنحه له، وكل قليل لدى المحبوب كثير فى نظر المحب.

ويؤيد هذا القول أبو يزيد البسطامى حيث يقول:

«المحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحيى منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شئ لا ستكثره واستعظمه».

فالمحبة فى نظر المحبين بأن يضع المحب أفعاله ونفسه وماله ووقته لمن يحب منحة منه له، كما تقتضى من المحب أن يمحو من القلب كل شئ سوى المحبوب، وهذه كمال المحبة أما إذا كان فى القلب بقية لغير المحبوب فالمحبة مدخوله ـ ولا يزال المحب غاضبا على نفسه حتى يرضى محبوبه.

ويقول الجنيد حينما سئل عن شواهد المحبة:

«سمعت الحارث المحاسبى يقول عن المحبوب: ميلك له بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم مرافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك فى حبه».

ويرى بعض الصوفية «أن المحبة بذل المجهود وترك الاعتراض على المحبوب، وسكر لا يصحو صاحبه الا بمشاهدة محبوبه».

ويرى البعض «أن المحبة سفر القلب فى طلب المحبوب ولهج اللسان بذكره على الدوام».

ويقول الجنيد فى وصف المحب:

«عبد ذاهل عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بآراء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وكشف له الجبار من أستار غيبه. فإن تكلم فبالله، وإن نطق عن الله، وان تحرك فبأمر الله، واذا سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله».

وآيات كثيرة فى المحبة نستعرض بعضها كقوله تعالى:

«يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله»[1].

(١) البقرة: ١٦٥

وقال أيضا:

«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله»(١).

وقال أيضا:

«يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم»(٢).

ويوضح لنا الخالق سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حبه لعدة فئات من المؤمنين وهم:

١ ـ المحسنون: فى قوله تعالى: «والله يحب المحسنين»(٣).

٢ ـ الصابرون كقوله: «والله يحب الصابرين»(٤).

٣ ـ التوابون المتطهرون كما يقول العزيز: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»(٥).

٤ ـ المجاهدون فى سبيله فى قوله سبحانه: «ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص»(٦).

٥ ـ المتقون فى قوله: «فإن الله يحب المتقين»(٧).

ويقول أيضا أبو العزائم فى وصف حبه لله سبحانه وتعالى وما ناله من هذا الحب العظيم:

هو الحب نور يكشف الحجب عن قلبى
فأهتز حال الذكر شوقا إلى ربى
أهيم بذكر الله والوجه مشرق

---

(١) آل عمران: ٣١
(٢) المائدة: ٥٤
(٣) آل عمران: ١٤٨
(٤) آل عمران: ١٤٦
(٥) البقرة: ٢٢٢
(٦) الصف: ٤
(٧) آل عمران: ٧٦

فأشهد نور الوجه من غير ماحجب

فإننى عن الآثار شوقا الى اللقا

فيمنحنى ربى الطهور من الشرب

سقانا رسول الله خمرة حبه

فأسكرنا طه فهمنا إلى الرب

فبشرى لأهل الحب نالوا مرامهم

أمامهم المختار كشفا بلا حجب

وتختلف ألوان الحب. فمن المؤمنين من يحب الله للإحسان وعطفه عليهم، وهذا حب العامة، والحب الثانى لعظمة الله وقدرته وجلاله وهو حب الصادقين، والحب الثالث مختلف تماماً كقول رابعة العدوية[1].

أحبك حبين حب الهوى

وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذى هو حب الهوى

فشغلى بذكرك عمن سواك

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراك

فلا الحمد فى ذا وذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

وهناك سؤال يدور فى ذهن كل مسلم: كيف نحصل على درجة المحبة؟.

ونلخص الإجابة على هذا السؤال فى عدة نقاط هامة منها:

١ ـ قراءة القرآن باستيعاب وفهم

٢ ـ التقرب إلى الله بإقامة النوافل مع الفرائض

(١) قوت القلوب لأبى طالب المكى جـ٣ ص٨٤

٣ ـ المداومة على ذكر الله سواء كان باللسان والقلب والعمل

٤ ـ تفضيل محبة الله على غلبات الهوى

٥ ـ فهم لأسماء الله الحسنى

٦ ـ معرفة نعم الله الباطنة والظاهرة

٧ ـ انكسار القلب بين يدى الله

٨ ـ الخلوة لمناجاة الله وتلاوة كلامه والاستغفار والتوبة

٩ ـ مجالسة أهل الحب الصادقين

١٠ ـ البعد عن كل ما يحول بين القلب وبين الله العزيز الحليم.

وفى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسوال الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار».

وللحب عدة درجات مختلفة عندما يصل المؤمن إلى أحدها ينتقل إلى الأخرى هذه الدرجات هى:

١ ـ تعلق القلب بالمحبوب نتيجة الإعجاب والتفكير فيه

٢ ـ إقبال القلب إلى محبوبه والسعى وراء طلبه والتمتع بذكره أو مشاهدته

٣ ـ اندفاع القلب نحوه دون السيطرة على زمامه

٤ ـ ملازمة الحب للقلب دون مفارقته (ويطلق عليه بالغرام)

٥ ـ الوداد وهو صفو المحبة

٦ ـ وصول الحب الى شغاف القلب كقول الله: عن امرأة العزيز «قد شغفها حبا»[1].

وهو ثلاث مراحل:

(أ) يستولى الحب على القلب

(ب) يصل الحب إلى داخل القلب

(جـ) يصل إلى غشاء القلب

---

(١) يوسف: ٣٠

٧ ـ العشق وهو حب مفرط يخاف على صاحبه

٨ ـ التتيم هو التقيد والتذلل

٩ ـ العبودية لمحبوبة

١٠ ـ الخلة فى المحبـة التى تخللت روح المحب وقلبه، ولم يصل إليهـا أحد إلا إبراهيم عليه السـلام ورسول الله صلى الله عليـه وسلم ويتعلق القلب بمحبوبه تعلقا لا حدود له بحيث ينـسى المحب صفاته فى ذكـر محـاسن محبـوبه حتى يستولى المحبـوب على قلب المحب.

فمـحبـة الله تعالى يؤثر بهـا أهل السابقيـة ممن سبـقت لهم منه الحسنى فـيرفـعهم إلى درجات المقـربين ويمنحهم حبه ويوليـهم بره ويجعلم من الآمنين، ولا شك أن محـبة الله تعالى نفحة منه لأنه لولا محبة الله للعبد ما أحب العبد مولاه[١].

والمحب يبتعد عن الناس، ويخلو لله عز وجل، وتراه دائم التفكير ـ صامتا لا يسمع إذا دعاه أحـد لا يكون مع محـدثه، ولهذا لا يفهم من يكلمـه ولا يحزن اذا أصـيب ببلاء ولا ينازع أحدا فى متاع الدنيا من منصب أو مال أو جاه أو غير ذلك من زخرف الحياة[٢].

ويقول الأمام الغـزالى «معرفة المحبـة وحقيقتـها الا بالمحبة ذاتها» وهـو أبلغ ما قيل عن المحبة[٣].

ويقول الشبلى عن أهل المحبة:

«... شربوا كأس الوداد، فضاقت عليهم الأرض بالبلاء، فتلذذوا بمناجاته»[٤].

سابعا ـ الذوق:

مدار الذوق لدى الصوفية هـو القلب، ويرى الشيخ أبو نصر سراج الطوسى أن الذوق هو تلقى الأرواح للأسرار الطاهرة من الكرامات وخوارق العادات.

---

(١) محمد يوف حمودة: نفس المرجع السابق ص١٤٧

(٢) دكتور حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية: ص٢٨٢

(٣) الإمام الغزالى: أحياء علوم الدين جـ٤ ١٤٤ ص٢٥٧٤

(٤) الإمام الغزالى: مكاشفة القلوب ص٢٢

ويقال ان الذوق هو طريق الإيمان بالله والقرب منه والعبودية له(١).

ويقول ابن عربى فى الفتوحات المكية: «وأخذناه عن الحى الذى لا يموت»(٢).

ويقسم أئمة التصوف العلوم الصوفية إلى ثلاثة:

١ ـ العلوم العقلية: تتم عن طريق البحث عن أدلة والحصول على براهين

٢ ـ علوم الأحوال: تتم عن طريق الذوق ويتفرع منها عدة علوم الوجد ـ العشق ـ الشوق

٣ علوم الأسرار: وهى علوم لا تخص إلا الانبياء عليهم الصلاة والسلام.

كما أن أثر الذوق يبقى فى القلب ويطول تأثيره.. وللذوق عدة درجات منها:

١ ـ ذوق الإيمان: إن العبد إذا ذاق طعم الدعوة من الله على إيمانه وتصديقه جد فى العبادة وأعمال البر للثقة بالوعد عليها.

٢ ـ ذوق الأنس بالله: لا يتعلق العبد بشئ يشغله عن سلوكه وسيره إلى الله لشدة طلبه. كما أن الأنس بالله حالة وجدانية، وتقوى هذه الحالة بدوام ذكر الله، وأن يكون العبد صادقا فى حبه لله.. وكلما كان القلب أقرب إلى الله كان أنسه بالله أقوى.

٣ ـ ذوق الانقطاع لله سبحانه وتعالى: بأن يتذوق العبد طعم القرب من الله بالانقطاع عما سواه.

«فالذوق هو طريق الإيمان لأن الإيمان هو الذى يجمعه إلى الله وبالله، وكما يقول بعض الصوفية: «من وافق الله فهو المؤمن المتوحد ومن وافق الأشياء فرقته الأهواء»(٣).

ثامنا ـ الصبر:

معنى الصبر هو الحبس أو الكف عن الشئ كقوله تعالى:

«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه»(٤).

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود: المرجع السابق ص١٣٥

(٢) محيى الدين بن عربى: الفتوحات المكية السفر الأول ص١٣٩ ـ ١٤٠

(٣) دكتور حسن محمد الشرقاوى: ألفاظ الصوفية والمعرفة ص١٦٨

(٤) سورة الكهف: ٢٨

والصبر معناه أيضا حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن العمل الفاحش.

ويحدثنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة عن الصبر فى مواضع كثيرة مختلفة الجوانب منها:

١ ـ حيث يأمرنا الله بالصبر بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة»[١] وقوله أيضا: «واستعينوا بالصبر والصلاة»[٢] وقوله: «اصبروا وصابروا»[٣] وقوله أيضا: «واصبر وما صبرك الا بالله»[٤].

٢ ـ يثنى الله عز وجل على الصابرين فى قوله عز وجل:

«الصابرين والصادقين»[٥]

وقوله أيضا: «والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون»[٦].

٣ ـ ويوضح الخالق سبحانه وتعالى مكانة الصابر عنده بأنه من المحبوبين لديه كقوله تعالى: «والله يحب الصابرين»[٧].

٤ ـ وللصابر جزاء كبير على صبره عند الله كقوله تعالى:

«ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»[٨]

وقوله أيضا: «وان تصبروا خير لكم»[٩]

وقوله: «ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعلمون»[١٠]

---

(١) البقرة: ١٥٣

(٢) البقرة: ٤٥

(٣) آل عمران: ٢٠٠

(٤) النحل: ١٢٧

(٥) آل عمران: ١٧

(٦) البقرة: ١٧٧

(٧) آل عمران: ١٤٦

(٨) النحل: ١٢٦

(٩) النحل: ١٢٦

(١٠) النحل: ٩٦

وقوله أيضا: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»[1].

ويدل الإسلام المسلم إلى طريق شاق طويل، هو طريق الصبر بأن يفعل الطاعات ويترك المنكرات[2] كما أنه مقام من المقامات الرفيعة لأهل الله، ولا يتم الصبر الا بمعرفة الله سبحانه معرفة تامة. كما أن الصبر غاية كبرى من غايات أهل الحق وبه تذكر أخلاقهم وآدابهم. كما أنهم يقررون بأن الصبر من سمات البشرية وصفة من صفات الإنسان[3].

ويروى لنا كتاب اللمع قصة حدثت مع الشبلى رحمه الله. حيث جاء إليه رجل وسأله «يا شبلى إن صبرا أشد على الصابرين» فقال الشبلى: الصبر فى الله «فقال الرجل: لا. فقال الشبلى: الصبر لله» فقال الرجل لا. فقال الشبلى: «الصبر مع الله» فقال الرجل: لا.

فغضب الشبلى وقال: «ويحك يا رجل فما هو؟».

فقال الرجل: «الصبر عن الله عز وجل»

فصرخ الشبلى رحمه الله صرخة كاد أن يتلف روحه[4].

من هذه القصة نرى أن الصبر انتقل من معناه العام إلى صبر فى الله وصبر لله وصبر مع الله وصبر عن الله.

(١) الزمر: ١٠
(٢) اللمع: ص٧٤
(٣) دكتور حسن محمد الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ص٢١٠
(٤) اللمع: ص٧٦

الباب الثالث

فلسفة التربية الصوفية وأهدافها

منهج التربية الصوفية

المؤسسات التربوية الصوفية

الفصل الأول
« فلسفة التربية الصوفية وأهدافها »

من خلال دراستنا للنسيج الصوفى الإسلامى «الأيديولوجيا الصوفية» الذى أوضحنا فى الفصول السابقة نجد أن الإنسان يرتبط ارتباطا كاملا بالكون الذى استخلفه الخالق عليه. كما يرتبط أيضا بخالقه الذى وجهه بمنهجه الذى نزله على رسوله عليه الصلاة والسلام للقيام بالرسالة التى خلق من أجلها، وعليه يقوم بتحطيم كل الحواجز التى تعوق رسالته وتمنعه عن القرب من الله. هذه الحواجز تتمثل فى الشيطان وأفعاله وأساليبه.

وعلى طريق هذا النسيج الصوفى الإسلامى قام أئمة الصوفية بتربية مريديهم.

ومن الطبيعى أن يختلف أى منهج تربوى عن الآخر لاختلاف فلسفة التربية ذاتها عبر العصور التاريخية، ويرجع كل ذلك إلى اختلاف المصادر التربوية.

وجوهر الفلسفة التربوية الصوفية من القرآن الكريم، وهو المصدر الأول لها، ويشتمل على النسيج الصوفى الذى ذكرناه فى فصولنا السابقة والمصدر الثانى وهو السنة «فعلا وقولا».

تدور فلسفة التربية الصوفية حول منطلقين أساسيين. أحدهما المسلم الصوفى بكل طاقاته وإمكانياته وارتباطه بالكون بما فيه من خصائص وأسرار.. وثانيهما علاقات الصوفى بربه وخالقه. ومن خلال هذه العلاقة تتم علاقاته مع جماعة الصوفية والجماعات الأخرى الإسلامية فالمسلم الصوفى يحتاج إلى تلك التربية التى وضعها أئمة الصوفية له، والتى تقوم على العمل الصالح وتقوى فيه الجانب الروحى حتى يقوى على كبح جماح شهواته وملذاته فيفسح المجال للفكر أن ينطلق عبر مجالاته، والتى رسمها الله له. وبذا يكون الصوفى قد أعد اعدادا سليما لمكانته الأساسية وهى الخلافة فى الأرض.

وليس معنى كبح جماح اللذة والشهوة فى نظر الصوفية أن يعرض الصوفى عن تغذية طاقاته والتى ركبها الخالق فيه. إذ إن وجود تلك الطاقات والنهى عن استغلالها يفقدها القيمة التى من أجلها أودعها الله فى الإنسان.

وتسعى التربية لإعداد المريدة أو السالك للحياة الأخرى «يوم القيامة» ولا يتم هذا الإعداد لتلك الحياة إلا عن طريق معرفة الخالق. ولهذا وضعوا للمريد مقامات مختلفة لا يرتقى المريد من مقام لآخر إلا اذا بلغ درجة الكمال فى مقامه ويشهد له بذلك أساتذته.

فإعداد المريد نحو القرب من الله وحبه هى أسمى الأهداف وجنب هذه الغاية تنزوى كل الأهداف الأخرى، وقد لا يرغب الصوفى فى الجنة ونعيمها ولا يخشى النار وألوان العذاب فيها، وإنما تنحصر رغبته فى حب الله ورضاء عنه.

وهدف المدرسة الصوفية تخليص طلابها من أدران الذنوب الكبيرة، والتى حجبتهم عن خالقهم بإعلان توبتهم سرا وعلانية.. أمام أنفسهم وأمام أساتذتهم.. توبة لا عودة فيها.. توبة خوف من الخالق سبحانه وتعالى.. ثم يعدون أنفسهم للتحلى بالفضائل والوصول إلى السيادة الروحية.. ولا تتم السيادة الروحية إلا إذا ارتقى الصوفى من مقام التوبة والخوف إلى مقام الحب والقرب لله.

ولا يتم الإعداد لهذه المقامات إلا إذا سلك الطلاب طريق الزهد فى الدنيا. وليس الزهد بالمعنى المعروف البسيط، وهو هجر الدنيا وعدم المشاركة فيها وترك العمل وعدم الإقبال عليها فهذا يتنافى مع أهداف المدرسة الصوفية، والتى تنص على أن يكون الزاهد مالكا الدنيا وليس الدنيا مالكة له. وبمعنى آخر أن تكون الدنيا فى يده بأن يشارك فى الحياة عن طريق العمل والتعرف على خصائص الكون وأسراره، ولا يتم له ذلك الا عن طريق المعرفة، ولا تتم المعرفة إلا بالقراءة، وهنا تحدد المدرسة الصوفية نوعية هذه القراءة والهدف منها وطبيعة كل مرحلة من مراحلها.

فاذا كانت الدنيا فى قلب الصوفى، وهذا يتنافى مع هدف المدرسة الصوفية فإنها تحتل مكان الصدارة عنده فتحرمه من لذة الذكر.. ذكر الخالق والخوف منه والتقرب إليه. فالصوفى بطبيعة تربيته الروحية يسعى إلى الدنيا من أجل اكتساب قوته وقوة أسرته، وبهذا يشارك فى الحياة ويلعب فيها دورا كبيراً نحو تطور أساليبها والرقى بها من خلال سموه الروحى.

ولا تتم مرحلة الزهد إلا بمجاهدة النفس، ولا تعنى المجاهدة مثل ما يقوم رهبان المسيحية، وانما التغلب على شهوات النفس وملذاتها وإخضاعها تحت سيطرة القانون

الإسلامى الذى رسمه الخالق لها.. ولا تتم المجاهدة إلا عن طريق العزلة، ومعنى العزلة لدى الصوفى العزلة عن كل صفة مذمومة وكل خلق يتنافى مع ما اتفقت عليه الجماعة الصوفية. فالمدرسة الصوفية تبغض كل البغض العزلة عن الحياة وعدم المشاركة فيها.

ولا تسعى المدرسة الصوفية نحو تغليب الجانب الروحى لدى الصوفى وتهمل بقية الجوانب. فيعتل الصوفى ويكون عرضة للمرض وعرضة للموت. ولهذا عمل أئمة الصوفية على تربية طلابهم بطريقة معتدلك بحيث أن يكون الطالب معتدلا فى كل جوانب الحياة. فلا يكون مطلقاً نحو روحية تبعده عن الرسالة التى خلق من أجلها، وإنما ليسمو بنفسه وروحه، وفى نفس الوقت ينال قسطا من الحياة المادية باعتدال.

وبهذا تكون شخصية الصوفى كما بلورتها فلسفة التربية الصوفية شخصية لا يستهان بها من حيث إرادتها وصلاحها وقوة نقاء بصيرتها وروحها بقربها. بل وحبها لخالقها، ولهذا زودت التربية الصوفية طلابها بالقدرة على استخدام كافة الإمكانيات الموجودة فيهم بما فيها إمكانية الانطلاق بثبات نحو الإدراك الكامل المبنى على الحب الشديد للخالق حتى تتحقق مكانتهم فى المجتمع الاسلامى.

وعملت الفلسفة التربوية الصوفية على إزالة الفوارق الاجتماعية بين طلابها، وبهذا قضت على أكبر حاجز اجتماعى فى المدرسة الصوفية يعوق تقدم المدرسة ورقيها وتطورها نحو خلق جيل جديد يحب الخالق ويسعى لإرضائه بالعمل والفكر والمشاركة فى المجتمع الإسلامى.

ومن هذا المنطلق لعبت الجماعية الصوفية الإسلامية دورا كبيرا فى الحياة العامة. فقد ناضلت الاستعمار خلال الفترات التاريخية المختلفة وانتصرت عليه فى أكبر المعارك معه.

أهداف التربية الصوفية:

أولا - صفاء النفس:

لقد عرف بعض العلماء وأئمة الصوفية ماهية النفس، ونستعرض تعريفاتهم حتى نفهم الدور الذى قام به علماء التربية الصوفية نحو وضع الأسس المختلفة للوصول إلى قيام

الصفاء النفسى لدى طلابهم.

يـرى الكـندى «أن النفس البشـرية جـوهر روحـانى صـافٍ بسـيط وهـى لاتنام ودائـما يقظانه» [1].

يرى ابن سـينا «أن النفس جوهر بسـيط مجـرد من المادة قد قـدر له الهبوط إلـى الجسم المادى من العالم العلوى» [2].

ويقول السدوردى فى النفس:

«أحدية صمدية لاتقسمها الأوهام أصلا» [3].

ويوضح لنا الفخر الرازى ماهية النفس بقوله:

«النفس الإنسانيـة شىء واحد هى المبصرة والسامـعة والشامة والذائقـة واللامسه، وهى الموصوفة بعينها بالتخيل والفكر والتذكر وتدمير البدن وإصلاحه» [4].

ويقول القشيرى عنها:

«النفس محل الأفعال المذمومة، والروح محل الأوصاف الحميدة»[5].

فقد وضح القشيرى بأن هناك نوعين. روح ونفس والنفس غير الروح.

أما الغزالى فيرى:

«أن النفس جوهرها مجرد عن المادة وعلاقتها فهى ليست بجسم ولاتحل الأجسام وهى محـل المعـارف وبه شرف الإنسـان عن جمـيع الحيـوانات وهـو المستعـد للقـاء الله تعـالى» [6].

وطبيعة النفس الإنسانية تميل إلى الشرور والآثام، فلو تركت وشأنها ولم تقهر شهواتها ونزواتها لدمرت الإنسان وحطمت حياته.. ولهذا تجدها لاتميل إلى العبادات التى فرضها الله كـالصلاة والصـوم والزكاه. لأنهـا تحس بأن هذه العبـادات قيـود، وهى تكره كل قـيد

(١) دكتور محمد عبد الهادى أبو ريده: رسائل الكندى الفلسفية ص٢٧١

(٢) ابن سينا: النجاة: ص١٨٥

(٣) دكتور محمد على أبو ريان: هياكل النور ص٥

(٤) دكتور محمد صغير حسن: النفس والروح وشرح قواهما للإمام فخر الدين الرازى ص٣٧

(٥) القشيرى: الرسالة الغشيرية جـ١ ص٣٠٧

(٦) الإمام الغزالى: معارج القدس فى مدارج معرفة النفس ص٥٩

وكذلك لاتميل إلى المتابعة والمراقبة كما تميل إلى المعرفة وحب الاستطلاع حين تشاهد الأشياء لأول مرة فتسأل عنها لتعرف.

وطبيعة تكوينها أنها ميالة إلى الإعجاب بالرأى وإلى التظاهر والتفاخر، ولهذا نرى أن الإسلام وقف منها موقف المنافى لميولها فارتضى ماكان منها طيبا ورفض كل شىء مناف للأخلاق الحميدة.

ومن هذا المنطلق تسعى المدرسة الصوفية إلى إيجاد صفاء للنفس، وذلك عن طريق المجاهدة الشاقة والمكابدة، ولهذا وضعت عدة تدريبات قاسية لها يمارسها الطالب الصوفى عمليا تحت اشراف أستاذ خبير بطبيعة تلك النفس فيقدم لها الدواء.

ثانيا- الدعوة إلى المعرفة:

والهدف الثانى وهو هدف هام تجعله التربية الصوفية فى نيتها ومرادها، وتسعى إلى تحقيقه بكافة الطرق وهو إحراز الحكمة حيث يقول الله عز وجل:

«يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب» (١).

والحكمة تأتى عن طريق المعرفة، ومصدر الحكمة والمعرفة هو الله سبحانه وتعالى فإنه أودعهما سبحانه فى الكون والإنسان، وقد وضح القرآن الكريم كيفية الحصول عليهما بأن دعا الله إلى التأمل والبحث الدقيق فى الكون والإنسان نفسه، وضرب لنا مثلا فى ذلك بقصية سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام توضح كيف توصل إبراهيم إلى خالقه حينما رأى الكواكب والقمر والشمس فقال هذا ربى، ثم عدل فكرته بعد تأمل وتفكير عميق إلى خالقه. وبهذا الأسلوب سارت الصوفية فى تدريس مناهجها الدراسية لطلابها.

ثالثا- احترام العمل:

تدعو المدرسة الصوفية إلى العمل المنتج الخير ومضاعفته والأخذ بأسباب القوة، وهذا لايأتى إلا عن طريق مضاعفة العمل والإنتاج. سواء كان ذلك فى مجال الصناعة والزراعة والتجارة، وليس عيبا أن يعمل الإنسان جامعا للحطب، وإنما العيب أن يمد يده للناس فإن

(١) البقرة: ص٢٦٩

شاءوا أعطوه أو منعوه، وقد حث الله سبحانه وتعالى المؤمنين على العمل حيث قال عز وجل:

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»(١).

رابعا - التمسك بالأخلاق الحميدة:

قال الله عز وجل فى وصف الرسول عليه الصلاة والسلام «وإنك لعلى خلق عظيم»(٢).

ولما سئلت السيدة عائشة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام عن خلق رسول الله قالت: «كان خلقه القرآن» وتحدث رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلا: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

وضح لنا رسول الله الأخلاق وعظمتها فى حديث فقال: «الصلاة صلة، الزكاة طهر، والصوم جنه، والحج جهاد، والأخلاق تصدق ولاتكذب».

فى هذا البيان القصير العميق المعنى، وضح الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأخلاق تصدق على هذه العبادات وتكذب إن كانت منافية للآداب.

ومن هذا كله قد استوعب المسلمون الأوائل علوم الأخلاق وكان لهم فى رسوال الله عليه الصلاة والسلام القدوة العملية مستنيرين بقول الله عز وجل:

«لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة»(٣)، وقوله أيضا: «وماأتاكم الرسول فخذوه، ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله»(٤).

وبذلك صارت القدوة العملية باقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم التى أصلحت الكثير من أفعالهم وأقوالهم فى دائرة الإسلام، ثم توفر لهم المصدر النظرى فى الأخلاق وهو القرآن الكريم الذى وضح الكثير من أخلاق الأنبياء وأخلاق أتباعهم.

ومن الأخلاق الإسلامية لايوجد فصل بين العبادات الروحية والمعاملات المادية وبين

---

(١) التوبة: ١٠٥

(٢) القلم: ٤

(٣) الأحزاب: ٢١

(٤) الحشر: ٧

أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع، واعتبر الإسلام كل الجوانب السالفة شيئا واحدا لايتجزأ عن أخلاق الإنسان.

وقد وضعت المدرسة الصوفية عدة قواعد هامة لطلابها من أهمها:

أولا: أن يحفظ الصوفى أدوات المعرفة كالسمع والبصر والكلام من الانزلاق فى الشر، الآثام.

ثانيا: أن يحفظ الصوفى أدوات القوامة البشرية من النزول نحو حضيض الحيوانية.

ثالثا: أن يراقب الصوفى أعماله ونتائجها فإنه سيحاسب بها عند خروجه من الدنيا على كل فعل وقول وأن الدنيا ماهى إلا اختبار لأخلاقه وأعماله.

رابعا: أن يحافظ الصوفى على الصلة التى بينه وبين ربه، وأن يراقب الله فى كل عمل يعمله معتقدا بأن البلاء الذى يقع عليه من الحق نتيجة سوء عمله، ويسرع إلى لجوئه إلى الحظيرة الإلهية، ولاتكون النجاة إلا بتحسن الأخلاق.

ولو استعرضنا القواعد الأخلاقية الأخرى التى أخذتها المدرسة الصوفية وعملت على غرسها فى نفوس طلابها بأن يكون الصوفى عفيف اللسان فلا يشتم ولايسب أحدا، ولايتجسس على الآخرين، ولايتنابز بالألقاب ولايغتاب أحدا ولايسخر من أحد، وأن يكون نظيف النفس والبدن يقابل الناس بوجه مبتسم. باذلا كل جهده فى طلب السعادة للآخرين مساعدا للفقراء منكرا لذاته متنازلا عن شىء من ماله عن طيب خاطر من أجل إخوته، ويكون ناصحا أمينا إذا طلبت منه النصيحة، ولايتدخل فيما لايعنيه ولايتكلم إلا عن علم أو معرفة، ويطلب من الله أن يزيده علما.

ويبعد عن أخيه الظلم والفساد ولايجره إلى الرذيلة، وبهذا يكون الصوفى نظيف اللسان والقلب والبدن والسلوك.

الفصل الثانى
منهج التربية الصوفية

وضع منهج التربية الصوفية ليحقق ماترمى إليه الجماعة الصوفية من خلق جيل قوى ذى شخصية مؤثرة فى العالم الإسلامى، فالمنهج استمد قواعده وأسسه من العقيدة الإسلامية متمثلة فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا فإن المنهج شاملا فى مفهومه، وعمليا فى تطبيقه على الجماعة الصوفية.

اهتم المنهج بالفرد الصوفى اهتماما كبيرا فوضع له النظم التى تعمل على تهذيبه خلقيا وروحيا وعقليا. كما وضع المواد الدراسية التى تتمشى مع استعدادات وميول وقدرات وحاجات الطلاب، وراعى فى منهجه الفروق الفردية بين جماعته، وعمل على التوازن المنشود بين متطلبات الحياة والطبيعة الدنيوية للإنسان وحاجات كل من العقل والروح، حتى يكون الفرد متماسكا مترابطا مع جماعته ويقوم بواجباته نحو نفسه ومجتمعه الإسلامى، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ومشاركا فى الحياة العامة بفكر واسع وروح قوية متماسكة صافية خالية من الأمراض النفسية والجسدية.

ولم ينس المنهج الإمكانيات الجسدية. بل اهتم بها وعمل على تنميتها حتى يقوم الفرد الصوفى باكتساب قوته وقوت أسرته، أو يشارك فى الجهاد الذى فرضه الله على المسلمين.

كما يربى المنهج الصوفى الفرد بصفة خاصة على الاندماج مع الناس والأشياء ارتفاعا بمستوى حياة الإنسان إلى أفق ربانى أرحب وأنظف وأكمل[1].

ويحقق المنهج الصوفى بصفة خاصة عبودية المسلم الصوفى لديه حتى يصل من خلالها إلى إيجاد قلب نظيف مفتوح لامنطوٍ على نفسه محبا لربه، ونتيجة لهذا يكون المسلم الصوفى نظيف اللسان مؤديا واجبه على الوجه الأكمل.

وبدون القلب المتفتح يكون الفرد الصوفى قد أوجد حاجزا قويا بينه وبين ربه. أطلقت عليه الصوفية اسم «الغفلة التى تؤدى به إلى الشهوة والكراهية والتدمير. فيعيش فى تلك

(١) دكتور عبد الغنى عبود: الفكر التربوى لدى الغزالى ص١٣٠

اللحظة بنفسه عاجزا عن مشاركة الآخرين، وبهذا تتغير حياة الإنسان عما فطرها الله.

لقد تعددت المواد الدراسية ووضعت بطريقة مترابطة وقسمت إلى عدة أنواع هى:

النوع الأول: ويشمل القرآن الكريم وتفسيره، ويقبل عليه السالكون فى الصوفية حفظا متقنا ومراجعة هذا الحفظ على أستاذ قدير.. ثم بعد ذلك يقبلوا بشغف زائد على معرفة كل الآيات القرآنية معرفة تامة مستوعبين ماحفظوا حفظا وتفسيرا وفهما وإدراكا.

النوع الثانى: السنة الشريفة وتشمل أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام وأفعاله ويقوم السالكون بحفظ بعض الأحاديث النبوية. على أن يقتدوا بما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

النوع الثالث: التعرف على حياة رسول الله ونسبه وخلفه وبعثته وحروبه مع الكفار والدعوة إلى الإسلام حتى يأخذ الصوفى العبرة من هذه الحوادث وإنارة الروح الإسلامية فى قلبه، ودفعه إلى الجهاد فى سبيل الله إذا دعى لذلك.

النوع الرابع: وهى تخص الصوفى فى صلته بربه وهى عدة علوم مختلفة منها: علم التوبة وعلم الذكر وعلم الخوف وعلم الحب وعلم الورع والشكر والصبر والإخلاص وعلم الطهارة وقد سمت الصوفية هذه العلوم بالمقامات.

النوع الخامس: وهى التربية الخلقية: فقد اهتم المنهج بها اهتماما شديدا فأفرد بها جانبا.

وقد تكون التربية تلقينا بالألفاظ أو الممارسة بين الجماعة الصوفية.

وتنمى المواد الدراسية الصوفية القدرات الروحية والعقلية لكل سالك فى المدرسة الصوفية، ولهذا وضعت فى المنهج عدة مراحل مختلفة أطلق عليها أئمة التصوف اسم «المقامات» لايرتقى الطالب من مرحلة لأخرى إلا إذا أقر أساتذته اجتيازه المرحلة بنجاح، هذه المراحل «المقامات» هى: مقام الحب، مقام الشهود، مقام الرضا، مقام اليقين، مقام الولاية، مقام الإحسان، مقام الصبر.

ويقوم كل أستاذ بوضع القواعد والأسس والتنظيمات لطلابه فى هذه المراحل. فإن اجتازوها شهد لهم بذلك وأقر بما توصلوا إليه، لهذا اهتم المنهج الصوفى بتنظيم الحياة اليومية للصوفى. بأن رغب السالك فى المدرسة الصوفية بالاعتدال فى الطعام وعدم الإقبال

عليه بشراهه لأن ذلك يؤثر على ملكة الفهم والإدراك لدى الصوفى، ومن خلال هذا التنظيم أطلق عليهم لغويا «الجوعة» ولم تكتف بهذا بل حثت الطلاب بالاعتدال فى حياتهم اليومية، وترك نسمه من الوقت للعمل فيها ليكتسبوا قوت يومهم - أى أن الدراسة ليست بمواعيد ثابتة كما يحدث فى وقتنا الحاضر.

والهدف من عملية التنظيم هذه تحقيق عدة غايات هامة هى:

١ - الإعداد للحياة الأخرى.

٢- تصفية الروح لدى الصوفى من الذنوب والأمراض.

٣- دفع الصوفى إلى العمل بنشاط وحماس ليكتسب قوته على أن يتقن هذا العمل ولايحتقره مهما كانت طبيعته.

٤- أن يستعد الصوفى للجهاد إذا طلب منه ذلك، والجانب العملى فى المنهج الصوفى يتمثل فى الخلوة، وهى درجة رفيعة لدى الصوفية وجزء هام فى التربية وقد وضعت لها عدة قواعد مختلفة منها:

١ ـ الانقطاع بعض الوقت عن الاحتكاك بالناس إلا بقدر ضرورى يلتزم فيه المنقطع بذكر الله سبحانه وتعالى، ويتم ذلك بتوجيه من أستاذه.

٢ ـ قبل الانتهاء من عملية الانقطاع يأخذ الطالب قسطا كبيرا من بعض العلوم قد أقرها الأستاذ مع طلابه حسب قدراتهم واستعدادتهم وميولهم. ويشترط فى هذه الخلوة عدم الإعلان عنها بين الناس، وأن يكون موعدها سرا بين الاستاذ وطلابه، وكذلك العلوم الصوفية التى تدرس لا يعرفها إلا الأستاذ وتلاميذه لأنها وضعت فى صيغة أشارات وألفاظ لا يدركها المسلم العادى، وعلى هذا الأساس كتب أئمة التصوف كتبهم المختلفة.

طرق التدريس فى الصوفية:

وقد أخذ أساتذة التصوف طرق التدريس من التربية الإسلامية ذاتها، ولم تكن لهم طريقه معروفة لهم.

وقد حصر علماء التربية الصوفية والإسلامية هذه الطرق فى:

١ ـ طريقة الحلقات

٢ ـ طريقة الرواية

٣ ـ طريقة السماع

٤ ـ طريقة المناقشة

٥ ـ طريقة الإملاء

٦ ـ طريقة الحفظ والاستظهار

٧ ـ طريقة الفهم

٨ ـ طريقة الرحلة «طلب العلم»

٩ ـ طريقة القدوة

١٠ ـ طريقة القصص

١١ ـ طريقة ضرب الأمثال

١٢ ـ طريقة الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث والحكم

١٣ ـ طريقة الشعر، وهى من أهم طرق التدريس لدى أئمة التصوف المختلفة لما فى الشعر من أرق الألفاظ والمعانى التى تثير الوجدان وتقوى الإحساس وتخلق فى الصوفى نوعا من التذوق الروحى الشفاف.

ألقاب التلاميذ عند الصوفية:

يقسم علماء التربية الصوفية تلاميذهم إلى فئات ثلاث هى:

١ ـ المريد:

وهو طالب المرحلة الأولى فى الصوفية، ويتعرف عليه أستاذه وعلى نفسيته من خلال الحديث معه ومراقبته، ومن خلال استعراض ذنوبه التى ارتكبها. فيقرر الأستاذ علاجه بوسائل يراها تتمشى مع طبيعته حتى يشفى من ذنوبه فيلتحق بالمدرسة، ويعطى له القدر الذى يمكنه من أن يستوعب قليلا من العلم والمعرفة، ويلتزم بعدة شروط عند قبوله فيها.

١ ـ أن يتحلى بالوقار فى مجلس أهل العلم

٢ ـ أن يخدم زملاءه وأساتذته

٣ ـ أن يكون بارا بوالديه وأهلا لرحمه مكرما لضيفه وجاره. يفعل الخير مرضاة

للخالق. يبتعد عن الشر وأهلة واقران السوء.

٢ - النقيب أو السالك:

يقرر أساتذه الصوفية موعد نهاية المرحلة الأولى بالنسبة للمريد، وبعدها ينتقل إلى مرحلة أعلى من الناحية العلمية فيلقب بالنقيب أو السالك، وهذا اللقب معناه درجة علمية عليا فى الدراسة. وتكون العلوم كالآتى:

١ - علوم نظرية. كعلم الصبر والورع والخوف والتقوى والشكر والإخلاص.

٢ - علوم عملية. كعلم الطهارة والتزكية - أى القيام ببعض النوافل حسب قدرات النقيب واستعداداته، وتفرض عليه المدرسة تنظيمات لا يحيد عنها وإلا فصل من هذه المرحلة واستبعد عن الدراسة نهائيا وهى:

١ - احترام علماء الصوفية كعلماء ومربين وأساتذة

٢ - أن يتبادل مع زملائه المعاملات الطيبة والتقدير لمن هو أكبر سنا منه

٣ - أن يظن فى نفسه بأنه أقل مرتبة من زملائه وأنه بينهم متهم بالتقصير حتى يصل إلى درجات أعلى

٤ - أن يكون مطيعا لأساتذته

٥ - الا يكون مغرورا بنفسه

٦ - أن يقوم بالأعمال التى يكلف بها

٣ - النجيب أو الواصل:

وفى نهاية المرحلة الثانية ينقل إلى مرحلة أخرى بعد أن يشعر بذلك أساتذته، وقد وضع علماء التربية الصوفية منهجا دراسيا خاصا بها من الناحية العلمية والسلوكية تختلف عما هو موجود فى المرحلتين السابقتين، وتفرض على الواصل عدة سلوكيات يلتزم بها التزاما كاملا، ويحاسب عليها وتتلخص فيما يلى:

١ - أن يحافظ على أسرار المجالس العلمية التى يحضرها.

٢ - أن يبتعد تماما عن التدخل فى شئون الآخرين، أو أى محاولة لمعرفة أسرارهم.

٣ - أن يحدد لنفسه عملا خاصا فى المجالس العلمية يقوم به.

٤ ـ أن يتعامل مع الآخرين حسب قدراتهم العقلية والعلمية الروحية.

٥ ـ أن يتجنب الجدل فى المناقشة.

٦ ـ أن يبتعد عن الشقاق والخصام مع عامة الناس أو مع زملائه فى المدرسة.

٧ ـ الا يتعرض لأصحاب المذاهب المختلفة مناقشة أو تعاملا يؤدى إلى اشتباك بالقول أو باليد، وأن يحافظ على وحدة المجالس فلا يثير الجدل السقيم الذى يؤدى إلى تبادل الألفاظ المؤذية.

الخطة الدراسية الصوفية:

أتخذت الصوفية من قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر قاعدة فى وضع نظام خاص للتعامل بين الطالب وأساتذته. وهذه القصة تلقى الضوء على أن الصوفية قد تعلموا منها الكثير ونلخصه فى عدة نقاط من أهمها.

١ ـ الاتفاق بين المعلم والمتعلم فى وضع الخطة الدراسية ويتجلى فى قوله عز وجل على لسان الخضر مع موسى عليه الصلاة والسلام.

«قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا»(١).

وتحقيقا لهذه الآية على الأستاذ أن يضع الخطة الدراسية لطلابه وعليهم أن ـ يسمعوا ما يعرض عليهم ولا يسألوا قبل أن يفسر لهم.

٢ ـ أن يحذر المعلم تلاميذه من صعوبة المنهج، وهذا يتجلى فى قول الخضر عليه السلام كما ذكر القرآن الكريم.

«إنك لن تستطيع معى صبرا»(٢).

٣ ـ قد يخطئ التلميذ فى استعجال العلم إليه أو الفهم قبل أن تصله القرائن أو التأويل للحوادث، وهذا ما حدث حينما خرق الخضر السفينة وحينما قتل الغلام وفى إقامة الجدار.

٤ ـ للأستاذ الحق أن يتمسك بخطته طالما أنه تأكد من صلاحيتها، ويتجلى ذلك فى قول

(١) الكهف: ٧٠

(٢) الكهف: ٦٧

الخضر عليه السلام فى كل مرة يسأل فيها موسى عليه السلام.

«ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا»[1].

٥ ـ على التلميذ أن يعتذر عن خطئه مرة أو مرتين على حسب طاقة الأستاذ، وهذا فى قبول الخضر عليه السلام لعذر موسى فى حادثه السفينة وحق الغلام.

٦ ـ للمعلم الحق فى عدم مواصلة الدرس مع تلميذه إذا أصر التلميذ على عدم الفهم، وهذا ما أوضحه القرآن الكريم عن الخضر بعد حادثة الجدار فى قوله عز وجل «هذا فراق بينى وبينك»[2].

٧ ـ ليس من حق الاستاذ أن ينسب العلم لنفسه وإنما ينسبه إلى الله عز وجل ولذلك قال الخضر عليه السلام فى نهاية مطافة مع موسى عليه السلام.

«وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا»[3].

ألقاب معلمى الصوفية:

١ ـ الاستاذ ـ (الفقية ـ الإمام ـ المرشد)

هو أمام المدرسة الصوفية وعمودها الذى يرعى طلابه ويشرف على تربيتهم فى المدرسة كما أنه يقوم بوضع المنهج الدراسى لهم ويحدد حلقات الدرس ومواعيدها.

وتتوافر فيه عدة شروط وهى:

١ ـ أن يلتزم بالكتاب والسنة كمنهج دراسى، وتأدية الفرائض التى يلتزم بها عامة وخاصة المسلمين.

٢ ـ أن يعرف نفسيات طلابه وما فيها من أمراض وكيفية العلاج لهذه الأمراض حتى يمكنه أن يربى طلابه على منهجه الدراسى.

٣ ـ يلتزم الاستاذ فى أقواله وأفعاله بأسس المحبة لله الخالق سبحانه وتعالى، وأن يتوكل عليه ويخاف منه رهبة، وأن يتابع طلابه ويحاسبهم عن التقصير حتى يصل إلى درجة علمية أكبر.

---

(١) الكهف: ٧٥

(٢) الكهف: ٧٨

(٣) الكهف: ٨٢

٤ ـ أن يكون مجددا ومحدثا لعلوم لم تعرف فى عصره، ولا يكون مقلدا لغيره من علماء الصوفية.

٢ ـ القطب الروحى:

هو صاحب أعلى الدرجات العلمية فى المدرسة الصوفية، ومحل نظر الحق تعالى، ويمتاز بدرجة عليا فى الناحية الروحية لايصل إليها الأستاذ إلا بجهد كبير.

الشروط الواجب توافرها فى المعلم الصوفى:

لقد خصص أهل التصوف جانبا كبيرا لإعداد المعلم الصوفى وجعلوه من الدرجة الأولى، وهذا لم يصل اليه أى فكر تربوى فى العصور السابقة والحديثة. فهذا المعلم لدى الصوفية يعتبر مثل صاحب الرسالة، ولم تكن فى نظرهم مجرد مهنة أو وظيفة تربط بالأجر كما هو معهود فى عصرنا الحالى، والفرق كبير بين هذه الرسالة والمهنة الوظيفية. فالرسالة تنبع عن اقتناع كبير داخلى عميق بما يؤديه صاحب الرسالة، وهو ملتزم أن يوصل ما لديه من فكر إلى طلابه، وهو فى كل حالة مستعد للبذل والتضحية فى سبيل دعوته وفكره والمهنة والوظيفة. فإن صاحبها مرتبط تماماً بصاحب العمل أو بالذى يدفع له مرتبه وقد يلتزم بشئ آخر(١).

وتوجد عدة شروط هامة فى معلم الصوفية وهى:

١ ـ أن يؤثر فى أبنائه ويشكلهم من خلال فكرة وشخصية.

٢ ـ أن يبتعد المعلم عن كل شئ خبيث. سواء كان من داخل نفسه أو من خارجها.

٣ ـ أن يعظم العلم والعلماء.

٤ ـ أن يتبع الشريعة الإسلامية.

٥ ـ ألا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة إلى ذلك أثناء شرحه.

٦ ـ أن يصون مجلسه من كل ما يخرجه عن العمل الذى يريد توصيله إلى طلابه.

٧ ـ أن يزجر كل طالب حاول أن يذكر مجلسه العلمى بسوء أدب أو أساء إلى الآخرين من زملائه.

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود: الفكر التربوى لدى الغزالى ص١٨١

٨ ـ أن يتواضع مع طلابه.

٩ ـ أن يخاطب طلابه كل حسب مكانته العلمية وأن يكرمهم

١٠ ـ لا يتكالب على الدنيا وزخرفها، وأن يكون قدوة حسنة لطلابه.

١١ ـ أن يفضل الفقر على الغنى بمعنى أن الدنيا تسعى إليه وهو لا يسعى إليها.

١٢ ـ أن يكون سلوكه موافقا لعقيدته الإسلامية.

وبهذه الشروط يكون المعلم قد أعد إعدادا كاملا لتولى رسالة توصيل الفكر الصوفى إلى طلابه.

إدارة التعليم الصوفى وتمويله:

أن إدارة التعليم الصوفى لم تكن إدارة مركزية بمفهومها المعاصر، وإنما كانت إدارة نابعة من مسئولية طلب العلم لذاته ـ أى بمعنى أنها مسئولية فردية وإلا اعتبر المعلم مقصرا فى حق الله عليه.. فلذا لم تتدخل الدولة الإسلامية فى إدارة التعليم. كما أنها لم تضع أهدافا له ولهذا ساهم جميع المسلمين سواء كانوا من السنة أو من الصوفيين فى إقامة المؤسسات التربوية وتحمل مسئولياتها.

ولهذا لم تكن موردا ثابتا للإنفاق على التعليم. فالطالب ينفق على حياته من خلال عمله الذى يكتسب منه رزقه. كما أن المعلمين لهم أعمالهم اليدوية التى تساعدهم على اكتسابهم الأموال التى يحتاجون إليها فى حياتهم.

كما أن هناك بعض العقارات الموقوفة للإنفاق على المؤسسات التعليمية، وهذا دليل على معنى المسئولية الفردية عن التعليم وإدارته وتمويله فى خلال العصور التاريخية السابقة(١).

---

(١) نفس المرجع السابق: الفكر التربوى لدى الغزالى ص٢١٤

الفصل الثالث
المؤسسات التربوية الصوفية

لقد ساهمت المؤسسات التربوية من دور للعلماء ومساجد ومدارس وزوايا بدور كبير وهام فى نشر التربية الصوفية خلال الفترات التاريخية المختلفة.

درست العلوم الصوفية فى هذه المؤسسات جنبا إلى جنب مع العلوم الإسلامية المختلفة دون تفرقه أو اعتراض. لأنها علوم إسلامية تخص الجانب الروحى الإسلامى وتأخذ من منبع واحد وهو القرآن والسنة.

فقد كانت حلقات الدرس تقام لأئمة وشيوخ الصوفية. فيأتى إليها الطلاب من كل فج عميق للاستماع إلى الحوار والمناقشات حول الموضوعات الدينية التى تمس حياة المسلمين عامة، وتهفو نفوسهم إلى الآخذ بها حبا لله ومرضاة له وتجنبا لغضبه وعقابه.

واعتبر العلماء العلم للجميع. ولذا لم يتخذ أهل الصوفية مكان مخصصا لهم لإقامة حلقات الذكر أو المناقشة أو المحاضرة.. بل اشتركوا فى معظم الدور الإسلامية المختلفة التى من أهمها:

١ ـ دور العلماء:

ساهمت هذه الدور فـ ـر التعليم. سواء كان العقلى أو الروحى فى داخل الدولة الإسلامية، وقدمت لطلابـ من جميع نواحيها عن طريق المناقشات. والمحاضرات فى كافة الموضوعات المختلفـ ـ ـحية الدنيوية والدينية الروحية منها والشرعية.

لقد وجدت هذه الدور بكثرة فى العصر العباسى. حيث كان علماء وأئمة وشيوخ الصوفية يتخذون من دورهم أحيانا مكانا لتعليم طلابهم، وقد ينتقل إليها بعض الخلفاء العباسيين للمشاركة فى حلقات الدرس وإضفاء الصبغة الرسمية عليها.

٢ ـ دور الكتب والعلم:

قامت بدور خطير ومهم فى نشر العلم والثقافة، وساعدت على نشر التعليم أيضا وجذبت إليها الطلاب من مختلف أنحاء الدولة الإسلامية للدراسة والبحث العلمى، وقد

عملت هذه الدور على النهوض بالحركة التعليمية بصفة عامة. بل مدت بصفة خاصة علماء الصوفية بالكتب وساعدتهم فى إجراء بحوثهم العلمية المختلفة.

٣ـ المساجد والجوامع:

لعبت المساجد والجوامع المنتشرة فى أرجاء الدولة الإسلامية دوراً كبيراً فى نشر التعليم وخاصة الصوفى منها.. حيث اعدت قاعات الدرس فى جوانبها واتخذ كل شيخ مكانا خاصا له معروفا لطلابه يؤموه حين تقام حلقات الدرس فى المواعيد المقررة. ومن أهم هذه المساجد:

١ـ المساجد العراقية:

قامت فيها حلقات الدرس فى العلوم المختلفة وذاع صيتها فى العالم الإسلامى.

٢ـ المسجد الأموى فى دمشق:

شيده الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك فى دمشق، وذاع صيته فأقبل إليه الطلاب من كل فج عميق، وعقدت فيه حلقات الدروس وأقيمت المحاضرات المختلفة، ولكل سارية من سوارى المسجد يجلس الأستاذ وحوله طلابه، ولم يحرم أهل التصوف من مكان مخصص لهم. حيث شهدت حلقات الدرس الكثير من الطلاب من جميع الأقطار الإسلامية للدراسة والتخصص فى هذا المجال على يد أحد شيوخ الصوفية.

٣ـ مسجد القرويين فى فاس:

أنشئ فى منتصف القرن الثالث الهجرى، ليكون مركزا للثقافة الإسلامية ويعتبر من أهم الجامعات الإسلامية التى درست فيه العلوم الإسلامية المختلفة. كما كان له عدة تقاليد مختلفة مثل:

١ ـ منح الإجازة العلمية والفخرية.

٢ ـ منح كراسى الأستاذية التى نقلت إلى جامعات أوربا حاليا فى العصر الحديث.

٣ ـ أنشئت بجواره المساكن للطلاب وللأساتذة.

٤ ـ وجود مكتبات به تموج بذخائر الكتب وأبحاث علمية قيمة ومخطوطات عربية عظيمة.

٥ ـ قسم المسجد إلى عدة جوانب. خصصت لبعض العلماء لإقامة حلقات الدرس فيها.

٤ـ جامع عمرو بن العاص:

أقيم بعد الفتح الإسلامي لمصر وحضر بناءه عدد كبير من كبار الصحابة وجاء إليه الطلاب من جميع الدولة الإسلامية لحضور حلقات الدرس فيه، والتى تشمل العلوم الدينية والعلوم الصوفية وأخيرا اتخذه الإمام الشافعى مقرا لمدرسته، وبلغ عدد الطلاب فى العصر العباسى ما يقرب عن ٣٢٠٠ طالب يتلقون العلم ويساهمون فى إقامة نهضة علمية إسلامية كبرى.

٥ـ جامع ابن طولون بمصر:

أنشئ فى عصر الدولة الطولونية وفيه عقدت حلقات الدروس على المذاهب الأربعة.

٦ـ جامع الأزهر بمصر:

ساهم الأزهر الشريف بتخريج عدد من البارزين من علماء المسلمين وعلماء الصوفية على حد سواء. وقد لعبوا دورا هاما فى الحياة الدينية والسياسية خلال العصور التاريخية المختلفة.

٧ـ جامع المنصور ببغداد:

أقدم الجوامع التى انشئت فى بغداد ليكون مركزا للتعليم وقد جذب الكثير من الطلاب من جميع أقاليم الدولة الإسلامية ودرست فيه العلوم المختلفة.

وعلى نمط هذه المساجد والجوامع انتشرت المساجد الإسلامية فى كافة المدن الإسلامية وانتقل إليها علماء المسلمين. سواء كانوا أهل سنة أو أهل التصوف للدرس والتحصيل، ولقد لعبت هذه المساجد دورا هاما فى تاريخ التعليم الإسلامى، ولم تمر عدة قرون حتى شهد العالم كله أكبر نهضة إسلامية غمرت العالم الإسلامى، وأصبح العالم الإسلامى منارة العلم فجذب إليه طلاب العلم من أوروبا وغيرها.

٨ـ الزوايا:

وهى ركن من أركان المسجد اتخذت للعبادة، ومع مرور الوقت اتخذت شكلا جديدا على هيئة دور تقام للدراسات العلمية والدينية، وقد اتخذتها الصوفية مكانا لإقامة حلقات

الذكر فيها.

٩ـ حوانيت الوراقين:

أعدت لتكون مكتبات لبيع وشراء الكتب المختلفة فى القرن الرابع الهجرى، وازدهرت هذه الحوانيت فى العصر العباسى حتى جذبت إليها العلماء والطلاب من أنحاء الدولة الإسلامية، وبطبيعة الحال أصبحت هذه الحوانيت دورا للعلم تقام فيها حلقات الدرس والمحاضرات والمناظرات فى مختلف العلوم العقلية والروحية، وقد ازدهرت نتيجة زيارة الخلفاء والأمراء لشراء الكتب منها.

١٠ـ المجالس الأدبية:

ساهمت هذه المجالس بقدر كبير فى حركة التقدم العلمى فى العصر العباسى، وقد بذل الخلفاء والأمراء والوزراء كل جهودهم على انتشارها فى مختلف الأقاليم الإسلامية، بل وصل الأمر إلى حد أن قصورهم أعدت لتكون فى استقبال الطلاب والعلماء من مختلف الجنسيات للمجادلة والمناقشة والحوار والمحاضرات العلمية، ومن أشهرها مجلس الوزير ابن الفارض وابن الفرات وابن العميد والصاحب ابن عمار وكافور الإخشيدى وسيف الدولة الحمدانى، ومجالس الفاطميين، وعقدت مجالس للمنطق وغيرها من العلوم المختلفة.

ولهذا فقد أسهمت المؤسسات التربوية إسهاماً كبيراً فعالاً فى نشر الثقافة الروحية الإسلامية فى أقاليم الدولة الإسلامية، وساهمت بقدر وافر فى خلق جيل يؤمن بربه إيمانا صادقا مسئولا عن القيام بواجباته نحو مجتمعه وأسرته، وبذلك يستحق أن يكون خليفة الله على الأرض[١].

(١) انظر كتاب الأيديولوجيا والتربية بين المسيحية والإسلام ـ عبد الحكيم عبد الغنى محمد قاسم ص٧ ـ ١٦ ـ ٢١٠

الباب الرابع

المدارس الصوفية

المدارس الحجازية

المدارس العراقية

المدارس الشامية

المدارس المصرية

المدارس المغربية

المدارس السودانية

الفصل الأول
المدارس الحجازية

تنتشر الرمال فى معظم أراضى الحجاز، وترتفع الصخـور فى بعض جوانبها كما تفتقر إلى المياه وتزداد درجات الحرارة بدرجة كبيـرة فى فصل الصيف، مما كان له الأثر الكبير فى عدم نمو النبات إلا فى بعض وديانه.

أثرت تلك الطبيعة فى السكان فخلقت منهم بدو قاسية قلوبهم، وحرمتهم من الاتصال بغيرهم عـبر الفترات التاريخيـة المختلفة إلا بالقدر الضئيل، ولهـذا لم ينبع على أرضها أى نوع من الحضارات التى تخـلق من سكانها شيئا متحضرا.. ورغم هذا فقـد ظهرت أشلاء من الحكمة والفلسـفة أملتهـا تلك الطبيعـة على عقول سكانهـا، ولعب بعض الأفراد دوراً هاماً فى الحياة العقلية الحجازية نتيجة اتصالهم بالمدن المجاورة لهم.

جادت تلك الطبيعة القاسية على نفـوس سكانها بالأنفة وغرست فيهم العزة، وخلقت فيهم الاعـتداد بالنفس والحرية التى تغنوا بهـا فى أشعارهم، وظلت هذه الصفـات ملازمة لهم حتى ظهور الإسلام، ورغم تأثيره عليهم ظلت تلك الصـفات فيهم حتى وقتنا الحاضر ورغم الظروف العالمية وتأثيرها عليهم نرى تلك الصفات كما هى.

سطع الإسلام عـلى ربوع مكة ثم المدينة فصـارتا ذاتا شأن علمى كـبير.. فـالعلوم التى ظهرت بعـد ذلك درست فى مدارس المدينتين قد طبعت بالطابع العربى الأصيل وخـاصة العلوم الدينية والعلوم الصوفية التى ظهرت فى منتصف القرن الأول الهجرى.

لقـد لعبت هذه المدارس دوراً هامـاً وكبـيراً فـى الحيـاة الروحيـة الإسلامـية التى عـمق قواعدها الرسول عليه الصلاة والسلام فى نفوس المسلمين الأوائل ومن أهم هذه المدارس:

مدرسة المدينة:

شهدت المدينة الأحـداث الأولى للدعوة الإسلامية، فـقد فتحت أحضـانها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه.. وشاركت معه عليه الصلاة والسلم فى غزواته وحروبه ضد الكفر والشرك، وقـامت بدور كبير فى نشـر الدعوة الإسلاميـة بين القبائل العربيـة فى شبه

الجزيرة العربية فاستقبلت الوفود المبايعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام معنلة إسلامها.

شهـدت أيضا الأخوة الصادقـة بين الأنصار والمهاجـرين، وشهدت الفـتنة الكبرى التى فرقت تلك الأخوة وأطاحت بالخليفة.

سمعت تلك المدينة آيات الذكـر الحكيم تتردد بين جوانبها، وأحـاديث رسول الله عليه الصلاة والسـلام ورأت أفعاله.. وبهذا اكـتسبت شـهرة إسلاميـة كبيرة فى عـصرها الأول فأصبحت مدينة العلم والحرب والسلام والسياسة فى عهد رسول الله على الصلاة والسلام ومن بعده خلفائه.

كان المدينـة المنورة حاضرة الإسـلام الاولى ومدرسـته التى لعـبت دورا هاما فى الحـياة الإسلامـية، فكانت مقصـد الطلاب والعلماء يأتون إليهـا من كل فج عميق للأعـتراف من نبعها الصافى.

لقد حـافظ صحابة رسول اللـه عليه الصلاة والسلام علـى طابعها الأصيل. فـالفاروق عمـر بن الخطاب أبقى على أساتذتهـا الأوائل من الأنصار والمهـاجرين فى داخلهـا، وحرم عليهم التنقل خارجها. إلا فى الضرورة القصوى. على أن يعودوا إليها بعد ذلك فى أقرب فرصـة وسمح للأسرى من الفرس والروم أن يـشاركوا المسلمين فى حـياتهم العلميـة بعد إعـلان إسلامـهم فكان لـهم الدور الكبـير فى نقـل علوم بلادهم التى صبـغت بالصبـغـة الإسلامية.

ولـم يمض قرن على ظهور هـذ المدرسة حتى صارت من أغزر المدارس علمـا. بل أكثر من ذلك ضمت العـديد من مشاهيـر علماء المسلمين يحـاضرون فى مسـاجدها.. وأغلب هذه المحاضرات بل معظمها كان فى التفسير والفقة والحديث والزهد والورع والتقوى.

شهدت هذه المدرسة علماء أفذاذ مـثل على بن أبى طالب الذى يعد مدينة كاملة للعلم وزيد بن ثابت وعبـد الله بن عمر وعـبد الله ابن مسعـود وعبد الله بن عـباس وعلى أيدى هؤلاء تخرج الكثيـر من العلماء التابعين، وظلت تلك المدرسـة طيلة القرنين الأول والثانى الهجـرى تمد العالم الإسلامى بالعلوم فيـقصدها العلماء مـن كافة أرجاء المدن الإسـلامية آخذين عنها. بل اتخذها بعض العلماء مقرا له حـتى سميت باسمه فى بعض العصور مثل

مدينة مالك، ويقصد بها المدينة المنورة.

وتختلف مناهج هذه المدرسة عن غيرها من المدارس التى ظهرت تباعا، واتصف علماؤها بالتقوى، فالتقوى هى جوهر الإسلام، ومن أهم المقاييس التى يقاس بها المسلمون ويفضل بعضهم عن بعض بها حيث قال الله عز وجل فى هذا:

«أن أكرمكم عبد الله أتقاكم»(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى»

فالتقوى مقياس للتفضيل ومقياس للكرم، وكما أن هذه التقوى جوهر الإسلام فالعبودية أيضا هى جوهر التقوى. حيث قال رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما سئل:

«أفلا أكون عبدا شكورا»

أشهر المتفوقين فى هذه المدرسة والذين اكتسبوا صفة دائمة فيها (طائفة القراء) التى كان لها الأثر القوى فى حياة المسلمين، فالقراء أتقياء حينما حافظوا على كتاب الله عز وجل، هذه الطائفة معظمها من الأنصار والمهاجرين، درسوا وحفظوا، واستوعبوا القرآن الكريم على يد أستاذ تقى هو «عبد الله بن مسعود».

شاركت هذه الطائفة فى الحياة العلمية من خلال حلقات الدراسة التى عقدت فى المساجد لهم. بل كانوا أتقياء حينما زهدوا فى الحياة وبعدوا عن اللذة والشهوة الوقتية، ولم يكن زهدهم عزلة بل مشاركة فى الحياة العامة للدول الإسلامية، وكانوا زهادا حينما شاركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حروبه وغزواته، ومن بعده خليفته أبو بكر الصديق فى حروبه مع أهل الردة حيث استشهد الكثير منهم.

وبهذا ضرب بهم المثل فى العالم الإسلامى كمعلمين وأساتذة وقواد ومحاربين ورجال سلام وحروب وسياسة وفقهاء فى الدين ومفسرين ومحدثين ومؤرخين وعلماء وزهاد وأتقياء.

أما الطائفة الثانية التى أحرزت تفوقا علميا كبيرا فى مدرسة رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الحجرات: ١٣

وسلم فهم «أهل الصفة» فقراء المهاجرين والأنصار، عاشوا عيشة زهد وتقشف، وتفرغوا للعلم واعتمدوا على صدقات المسلمين الأغنياء، وهم خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاشوا مع القرآن وفى القرآن حفظا وفكرا وتأملا وتدبرا، فتخرجوا كبار الدعاة للإسلام وحربا على الكفر والشرك ومعلمين وفقهاء ومفسرين وزهاد، ومن أشهرهم الصحابى الجليل «أبو ذر الغفارى».

الطائفة الثالثة. وهم طائفة الخلفاء، وهم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام تتلمذوا على يديه، وشاركوا فى الدول الإسلامية فى الحكم. بل كانوا على رأس الدولة فلم يشغلهم الحكم ومظهره عن مشاركة المسلمين فى الحياة العلمية، ونخص بالذكر منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم.

فأبوبكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالخلافة فى نظره تشمل الخلافة فى كافة الجوانب، خلافة فى حكم الدولة، وخلافة فى النواحى الاجتماعية، وخلافة فى العلوم، وخلافة فى السلم والحرب، وبهذا وضع نظاما فى الحكم والحياة الاجتماعية، ويتمثل ذلك فى مبدأين أساسيين هما:

١ ـ العدالة الاجتماعية بين المسلمين

٢ ـ حق الرعية فى المشاركة فى الحكم ومعاونة الخليفة على الحق وعزله إذا انحرف عن جادة الطريق (الشريعة الإسلامية).

ومن هنا ظهرت تقواه، وخلافته فى العلوم بأن شارك علماء المسلمين فى العلوم الإسلامية. فنراه مفسرا لبعض الآيات الكريمة ونراه محدثا عن الرسول، وفقيه لايستهان به، وعالما بأسرار الدعوة فاختارته الجماعة الإسلامية على قمة الدولة. وكان أبو بكر الصديق تقيا حين حافظ على جماعة الصحابة من الزلل والانحراف بأن حرم عليهم «الإمارة وشاورهم فى الأمر فأخلصوا له المشورة وأعانوه على القيام بتبعات الدولة».

ويعد أبو بكر مؤرخا فى العصر الإسلامى الأول فهو نسابة يحفظ أنساب القبائل وتاريخها القديم، ومحاربا فهو الذى جهز الجيوش حنيما ظهرت بوادر الرده، وهو الذى جهز الجيوش ضد أعداء المسلمين فحارب الروم والفرس.

وكـان أبو بكر قدوة حـسنة فى الزهد والتـقشف، واستمـد زهده من رسول الله عليـه الصلاة والسلام.

وبهذا كان أبو بكر خليفة لرسول الله ومؤرخا ومفسرا ومحدثا ومحاربا وفقيها ومعلما ومحبا لله ورسول، وزاهدا فى الدنيا رغم إقبالها عليه.

أما الفاروق عمر فقد اتخـذ من رسول الله قدوة له ومن أبى بكر الصديق منبعا للطريق السوى فى الحكم، لقد كان عمر تقيا حين استل سيفه من جرابه مهددا قريش معلنا هجرته إلى المدينة دون تخوف ولا رهبة، فشهد التاريخ بتقواه حينما تحمل المسئولية كاملة فى أمور الرعية، وتقيـا حينما شارك الجماعـة الإسلامية فى المجاعة فأكل طعـامها. بل أقل من ذلك ولم يخص نفسه بأكثر منها.

فالفاروق عمر بن الخطاب خليفة رسول الله وأميرا للمسلمين ومحارب شجاع وزاهد ومعلمـا ومفرقا بين الحق والبـاطل حتى استحق لقب الفـاروق، وهو أول لقب منح لعربى فى عصره عن جدارة وثقة وصـدق، وعثمان بن عفان مثل الشيخـين السابقين فلم يختلف عنهم فى شئ. فلقـد كان تقيـا حين شارك بـأمواله فى نشر الدعـوة الإسلاميـة وتقيـا حتى اشتهر بقراءة القرآن، وهى من سمات تقواه حياته التى اشتهر بها.

وعلى بن أبى طالب ربيب النبوة، أخذ العلم من منبعـه. فهو عالم لا يسأل عن شئ إلا أجاب عنه، فصـار مدينة للعلم كاملة وزاهدا. بل كـبير زهاد المدينة وتقى الأمة الاسـلامية وكبير لعلمائها.

شاركت المدينة المنورة ومدرستها فى الناحية العلمية بقدر كبير فى الحياة الروحية بصفة خاصة، لقد حمل علماؤها مشعل الحضارة الإسلامية ووضعوا النظام العلمى فى مدارس العالم الإسلامى، ولما سـمحت الدولة لعلمائها بالسيـاحة فى أرجائها أرسوا قواعـد الحياة العلميـة فى الدولة الإسلامية فـانتشرت المدارس وظهـرت العلوم بمفهومهـا الحديث، ومن أهم هذه الشخصيات التى لعبت دورا كبيرا فى الحياة الروحية هم:

«عبد الله بن عمر، وعـبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عبـاس، وعبد الله بن عمرو بن العاص»، هم قادة العلم والتعليم والحـركة الروحية، وأخذ عنهم الكثير فى الفقـة والتفسير

والاحاديث والشريعة، وجاء بعدهم جيل آخر أطلق عليهم التابعون أرسوا قواعد العلم للنهضة العربية الإسلامية التى ظلت قرونا طويلة، ثم نقلت إلى أوربا فأقامت حضارتها ونهضتها على نفس الأسس والقواعد الإسلامية.

المدرسة المكية:

بدأ دور مكة فى المسئولية العلمية بعد الفتح الإسلامى وتكونت مدرستها على يد «معاذ بن جبل» وهو من أفضل شباب المدينة، ومنهج هذه المدرسة هو قراءة القرآن الكريم حفظا وتدبرا واستيعابا مع توضيح الحلال والحرام.

وبعد فترة ظهرت شخصية أخرى اتخذت من البيت الحرام مقرا لها وهو «عبد الله بن عباس» فأقام حلقات الدراسة وكان منهجه التفسير والرواية لأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وشرح الشريعة الإسلامية، وذاع صيت هذه المدرسة فى العالم الإسلامى ويرجع إليه الفضل فى ذلك.

لقد جذبت المدرسة المكية الطلاب من كل فج عميق فى الدولة الإسلامية، وكان بين تلاميذها الإمام الشافعى الذى نقل عنها علوم الحديث والفقة، ثم استكمل تعليمه فى مدرسة المدينة حتى وضحت شخصيته وذاع صيته كعالم إسلامى وفقيه.

ظهور المدرسة الصوفية:

شهدت المدرستان الأحداث الدامية التى مرت على العالم الإسلامى منذ مقتل عثمان بن عفان حتى تولية معاوية بن أبى سفيان.. وعاصرت أيضا ضرب الكعبة، وشاهدت المدرستان الصراعات العديدة التى أغرقت العالم الإسلامى فى بحور من الدماء، وأحستا بموجه غريبة دخيلة على العقلية الإسلامية سمتها الخيانات والأكاذيب والاغتيالات والحروب والأحزان.

بين تلك الأمواج والتيارات التى غمرت العالم الإسلامى ظهرت شخصية إسلامية قوية لعبت دوراً هاماً فى ظهور مدرسة جديدة هى المدرسة الصوفية، هذه الشخصية هى على بن الحسين «زين العابدين».

رأى زين العابدين مقتل أبيه الحسين بن على وإخوته فى معركة كربلاء، وكادت

الدائرة تدور عليه لولا مرضه، وسمع عن مقتل جده وما أعقبه من تيارات دموية شديدة. وقف على تلك الأحداث الدامية التى اجتاحت العالم الإسلامى وتعرف من خلاله على الحاقدين والكذابين فابتعد عن كل هذا، وفعل ما ينبغى أن يفعله كل مؤمن يخشى الله عز وجل بأن ينصرف إلى العلم والعبادة غير مشارك فى أحداث تلك الفترة التى مرت على الجماعة الإسلامية، زهد فى الحياة ولكن لم ينعزل عنها. وتأثرت المدرستان بهذه الأحداث فتغيرت تغيرا شاملا. إذ جدت عليها علوم جديدة لم تكن معروفة فى العالم الإسلامى كعلم الكلام وعلوم المعتزلة، وظهور الصراعات المختلفة بين علماء تلك العلوم أدت فى النهاية إلى قتل العديد منهم، وبينما كانت هذه الجماعات تتصارع فيما بينها من فكر جديد الدم دخيل على المدرستين فى مكة والمدينة اذ ظهرت مدرسة جديدة عرف طلابها وأساتذتها طريقهم إلى الله متمثلة فى قول الله عز وجل.

«يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحا فملاقيه»(١).

أول معلم فى هذه المدرسة هو «زين العابدين» وحوله تكونت الجماعة الصوفية، وعلى يديه بدأت معالم المدرسة الصوفية تتضح وتنأى بعيدا عن الغلو فى الكراهية التى شملت الجماعة الاسلامية وسيطرت عليها، فالغلو كان فى المنهج الذى اتبعته الشيعة، والكراهية التى بذرت فى النفوس من الدولة الأموية سيطرت على الشيعة.

ومن هنا كان دور المدرسة الجديدة صعبا فى رسم منهجها الجديد، فوضعت خطة معتدلة لا غلو فيها تهدف إلى تعميق الحياة الروحية بين طلابها للوصول إلى الله.

كانت سمة هذ المدرسة أن حبذت التخلص من الذنوب. ولا يتأتى ذلك إلا بغسلها، ولا يتم الغسيل إلا بالدموع، وكان منهجها الذكر لله الممزوج بالبكاء معتقدة بأن الصواعق والكوارث، تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولكنها لا تصيب المؤمن الذاكر لله.

ثم ازدادت حركات العنف فى الدولة الإسلامية. سواء كان ذلك على المستوى السياسى أو المستوى الفكرى، وتغيرت المناهج فى المدرسة الصوفية إلى منهج فريد من نوعه يحمل بين طياته العمق ويبتعد عن صراح الأفكار التى لا تزيد المرء إلا تحيرا، ويقوم على أبعاد المسلم وعقله عما كان يدور فى ذلك العصر.

---

(١) الانشقاق: ٦

وقامت طريقة للتدريس فى هذه المدرسة لم تعرفها المدرستان السابقتان هى طريقة التأمل والفهم الباطنى للقرآن الكريم والذكر المستمر للخالق والدعاء بأسلوب معين، وكان المريد «الطالب» يتشرب القيم والأخلاقيات الإسلامية.

واتخذت المدرسة لباسا مميزا لها غير لباس المسلمين العاديين هو لباس الصوف. وهنا يتطرق الى أذهاننا سؤال: لماذا اتخذوا الصوف لباسا لهم؟.

والواضح فى هذه الفترة أن الترف قد زاد على طبيعته. إذ جاءت الفتوح الإسلامية ومعها كل وسائل الترف وأدواته، واتخذ عامة المسلمين ـ بل الخلفاء ـ من الحرير لباسا لهم، كما أن بعض الخلفاء الأمويين اتخذوا من الحرير المنسوج بالذهب لباسا لهم.

ويؤرخ بعض المؤرخين للحركة الصوفية بأن ظهورها بدأ منذ أن اتخذوا من الصوف لباسا لهم عن بقية غيرهم، كما أن لباس الصوف يتفق مع فكرة المعارضة السلبية التى اتخذوها وقام بتعميقها قادة الزهد وعلمائه ضد الحكم الأموى وضد الحياة الماضية التى غرق فيها بعض شباب المسلمين وأدخلها الموالى من الفرس والروم الذين سعوا الى إفساد حياة العرب الذين عملوا على سلب الشخصية القومية منهم.

ومهما يكن من أسباب فقد ظهرت المدرسة الصوفية جنبا إلى جنب مع المدرستين السابقتين فى مكة والمدينة، ولم تنم وهذه المدرسة ولم يتطور منهجها الدراسى إلا بعد انتقال مركزها من الحجاز إلى العراق حيث هيئت لها الظروف والمناخ الملائم لتطورها.

وكما كان لكل قطر إسلامى دوره فى الحكم والقيادة ظهرت الناحية العلمية وتحملت الأقطار الإسلامية دورها الكامل ومسئوليتها العلمية حتى وضحت المعالم الإسلامية التى نقلت عبر المعابر المختلفة إلى أوروبا.

وكانت للحياة الروحية ومدارسها الصوفية نفس الدور السابق فى الأقطار الإسلامية. كما كان لها فس القيادة، واختلفت المناهج الدراسية فى هذه المدارس، وظهرت العلوم الصوفية مع العلوم الإسلامية جنبا إلى جنب وكانت الناحيتان العلمية والروحية أساس الدعوة الأسلامية[١].

(١) انظر كتاب بحور الصوفية: أحمد بهجت ص٦٠ ـ ١٢٠

الفصل الثانى
المدارس العراقية

انتقلت المدارس الصوفية من الحجاز إلى العراق. حيث وجدت المناخ الملائم لانتقالها، ولقد ساهم العراق بنصيب كبير فى نمو هذه المدارس وتطور مناهجها الدراسية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب هامة منها:

قامت الحضارات القديمة فى بلاد الرافدين وبها الكثير من العلوم. ولهذا كان من الضرورى والطبيعى أن يستعيد العراق دوره فى المساهمة العلمية بعد دخول العراق فى الدولة الإسلامية كقطر من أقطارها.

وكان قبل الفتح الإسلامى يقطنها الكثير من اليونانيين الذين أسروا أثناء الحروب التى نشبت بين الفرس واليونان، وفى تلك الفترة كان الأفكار والآراء المختلفة فى الفلسفة والحكمة تغمر الحياة. وحينما تم الفتح الإسلامى تجمدت هذه الأفكار والآراء ولم تجد مكانا لتروج فيه. كما أن المسلمين الأوائل اهتموا بالقرآن والأحاديث. فلما استقر الوضع السياسى فى العراق بعد الفتح الإسلامى بدأت هذه الأفكار فى الظهور مرة أخرى ولكن بصورة مختلفة تماما عن سابقتها حتى تتمشى مع الفكر العربى والإسلامى مع نبذ الأفكار التى تخالف الشريعة الاسلامية.

غمرت الأحداث والصراعات والفتن العراق منذ مقتل عثمان بن عفان وشغلت الحروب الحياة العراقية، وشلت تلك الاحداث والحروب الحياة الفكرية. ثم عادت بصورة واضحة مبالغ فيها بعد مقتل على ابن أبى طالب وطلحة والزبير والحسين بن على وغيرهم من الصحابة وأبنائهم. ولقد تأثرت الحياة الفكرية بهذه الفترة الدامية وبدأت تظهر أسئلة كثيرة تدور حول هذه الأحداث. سواء كان ذلك فى حلقات الدراسة فى المساجد أو فى المناظرات العامة، وكثرت الآراء الجدلية، وانقسم المسلمون إلى مذاهب مختلفة تتناحر فيما بينها. ومن خلال هذا التناحر ظهرت المدارس الصوفية التى انتقلت إلى العراق مع انتقال مراكز القوة السياسية إليها.

وكان الموالى من الفرس واليونان الذين تعلموا اللغة العربية نقلوا جزءاً من الحياة الروحية التى تسود المجتمع الفارسى واليونانى قبل الإسلام إلى البصرة ولهذا سارعت الصوفية الإسلامية الى فتحت مدارسها لتقضى على تلك الحركة الروحية الواردة إلى العالم الإسلامى، ولقد تعددت هذه المدارس ومناهجها الدراسية ومن أهم هذه المدارس:

المدرسة الكوفية:

انتقلت حاضرة الإسلام من المدينة إلى الكوفة فى عهد الخليفة الرابع «على بن أبى طالب» وانتقلت إليها الاحداث والفتن التى غمرت العالم الإسلامى من وراء الصراعات السياسية التى نشبت بعد مقتل عثمان بن عفان. ونزح مع انتقال الحاضرة الإسلامية عدد كبير من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام لأنهم يمثلون الأغلبية فى أنصار على بن أبى طالب. وكان على رأس النازحين أحد أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام «عبد الله بن مسعود».

لقد شغلت الحروب الخيفة على بن أبى طالب كما شغلته الحياة السياسية الجديدة وأبعدته فى تلك الفترة عن المشاركة فى الناحية العلمية، ولم يتفرغ كغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للعلم.

كما شغلت السياسة والحروب على بن أبى طالب، شغلت الحياة العلمية عبد الله بن مسعود، فقد تفرغ لتعليم أبناء الكوفة القرآن الكريم قراءة وحفظا وتدبرا وتفسيرا وتفهما واستيعابا، ولقد لزمه تلاميذه يتعلمون منه ويتأدبون بأدبه، وقد نبغ الكثير فى مدرسة الكوفة التى كان معلمها الأول «عبد الله بن مسعود» ولقد حملت المدرسة مشعل الحركة العلمية الجديدة والفريدة من نوعها. كما أن هذه الحركة قد قامت بدورها فى الحياة الروحية مع الحياة العقلية، ثم تطورت الحياة الروحية كزهد، ثم تطور الزهد إلى تصوف معتدل لا مبالغة فيه وليس له مصطلحات تخرجه عن الشريعة الإسلامية والبعد عن بساطة الإسلام، وظلت المدرسة الصوفية الكوفية تقوم بدورها حتى قيام الدولة الأموية، وكان منهجها الشريعة الإسلامية والتفسير للقرآن الكريم وقراءاته والأحاديث «سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام»، كان نفس الاهتمام، وتخرج العديد من هذه المدرسة التى لعبت دورا

هاما فى الحياة الروحية الإسلامية فيما بعد. ولم تتطور هذه المدرسة. بل ظلت محافظة على التراث مع الاهتمام بالناحية الروحية. وحتى فى فترات التطور والنمو الثقافى التى شملت الحياة الفكرية بعد الترجمة ظلت هذه المدرسة بتراثها القديم محافظة عليه.

ومن الشخصيات اللامعة فى مدرسة الكوفة هم:

١ ـ سلمان الفارسى

٢ ـ حذيفة بن اليمان

٣ ـ على بن أبى طالب

٤ ـ مسروق بن عبد الرحمن الكوفى، ويلقب براهب الكوفة

٥ ـ الاسود بن يزيد

٦ ـ علقمة بن قيس، ويلقب بزين القرآن

٧ ـ الربيع بن الخثم

٨ ـ سفيان الثورى

٩ ـ داود الكائى

المدرسة البصرية:

البصرة مدينة كبيرة من مدن العراق ذاع صيتها بعد حركة النزوح لأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام التى تمت بعد الفتنة الكبرى، والتى أودت بحياة الكثير من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وبعد فترة النزوح هذه استقرت الحياة الطبيعية فى البصرة، وعادت الأمور إلى نصابها وصارت البصرة من أهم المدن العراقية التى شاركت بنصيب كبير فى الحياة الروحية وعملت على تطويرها.

ومن أشهر النازحين إلى البصرة المعلم الأول لمدرستها وهو «أبو موسى الأشعرى» الذى اختير فى عملية التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى نزاعهما المشهور على الخلافة الإسلامية.

ولقد قام «أبو موسى الأشعرى» بدوره كمعلم فى مدرسة البصرة، ومن أشهر العلوم

التى قام بتدريسها علم القراءات. ولم تكن العملية التعليمية وظيفته الوحيدة بل اتخذ القضاء عملا له للفصل فى الخصومات، وأيضا فقيها فى الدين أخذ عنه وتخرج على يده العديد من علماء المسلمين فى تلك الفترة مثل «الحسن البصرى» الذى أسس المدرسة الصوفية الروحية.

ظلت المدرسة البصرية بعد أبى موسى الأشعرى هى المدرسة الأم التى تجذب إليها العديد من الطلاب من أرجاء الدولة الإسلامية للدراسة التى يعتمد منهجها على علوم القراءات وعلوم الحديث والفقة والتفسير والشريعة.

ومن المدرسة الأم هذه ظهرت المدارس الصوفية البصرية مثل مدرسة حسن البصرى التى وضعت منهجا جديدا للتصوف الإسلامى وقتئذ.

وظهرت هذه المدارس المنبثقة من المدرسة البصرية بألوان جديدة فى الحياة الروحية التى طبعت هذه الحياة بما يتناسب مع متطلبات الحياة العامة، والتى تخدم الحياة السياسية وقتئذ ومن أهم هذه المدارس هى:

مدرسة حسن البصرى:

اشتهر حسن البصرى فى المدرسة البصرية بنبوغه عن أقرانه فى الناحية الروحية - المستمدة من الكتاب والسنة، والتى قام بغرسها فى روحه أساتذته وخاصة «زيد بن ثابت».

يعد حسن البصرى المؤسس الحقيقى لأول مدرسة صوفية جديدة من نوعها مختلفة فى مناهجها عن غيرها ذات المناهج التقليدية.

بعد تخرج حسن البصرى من مدرسة البصرة ظهرت شخصيته العلمية التى كانت من ألمع الشخصيات العلمية فى عصره. فهو عالم فصيح شجاع لا يخشى أحدا فى إبداء رأيه، فقيه يستفتى فيما يعرض عليه من أمور الدين فيفتى عن علم. وكان قصاصا صادقا ودقيقا بما يقضى.

لقد احتل حسن البصرى مكانة ومنزلة علمية فى تاريخ الصوفية لم يسبقه إليها أحد من قبل، ولشهرته العلمية ألصقت به العديد من الآراء المتناقضة والنظريات الفلسفية المختلفة ولهذا عده المؤرخون أسطورة عصره.

لقد قامت مدرسته بدور هام فى الحياة الروحية الإسلامية فجذبت إليها الطلاب من كل أرجاء الدولة الإسلامية، وتخرج منها العديد من علماء الصوفية المشهورين.

كان منهج هـذه المدرسة على نمط مدرسـة ابن عباس، فقد نقلت عنه التفسير ورواية الحديث، واختلف منهج مدرسة حسن البصرى فى الاهتمام بموضوع «الجنة والنار» وكانت معظم محاضراته تصب فى هذا الموضوع بصفة خاصة، ويقال إن سبب اهتمامه بالجنة والنار هو خوفه الشديد من عقاب الله عز وجل له. ولهذا ظهرت طائفة إسلامية جديدة أطلق عليها طائفة «الخائفين» وعلى رأسها كان حسن البصرى الذى آلى على نفسه إنقاذ البصرة من الضلال الذى غمر كيانها وفرق أهلها وأوقعها فى المحظور الذى يعرضها للعقاب بالنار. ولم يكن اهتمامه بالبصرة وما وصلت إليه فقط. بل تعرض الى المجتمع الإسلامى ككل. بل أكثر من ذلك حمل نفسه تبعة خطيرة وصعبة هى مسئولية كبرى فى عنقه كمعلم وكداعية لإنقاذ المسلمين من الضلال والوقوع فى المحظور، ويدور منهج الدراسة فى هذه المدرسة حول آراء وأفكار وإحساس معلمها حسن البصرى والتى بدورها قد بلورت المنهج فى عدة نقاط هامة منها.

١ ـ علم الأخلاق، وينحصر فى القدوة الحسنة لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقارن ما هو عليه من عمل وقول فيبكى أسفا على الناس وعلى نفسه.

٢ ـ من عمليات المقارنة بين عصره وعصر الصحابة يظهر الحزن الذى يسود طابع مدرسته، ويشكل نسيج منهجه الدراسى فيكثر من البكاء كبقية السابقين من العباد. بل حرم على نفسه الضحك، وعنه أخذ طلابه حتى ظهرت بعده طائفة تطلق على نفسها اسم «البكائين» نسبة إلى كثرة البكاء معتقدة بأن الذنوب لا يمحوها إلا الغسيل بالدموع.

٣ ـ اعتبر حسن البصرى القرآن الكريم مفتاح الحزن المقيم له فى الدنيا. حيث قال فى هذا الموضوع.

«والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن وآمنت به ليطولن فى الدنيا حزنك وليشتد خوفك وليكثر بكاؤك» ولم يكن حزنه على الخوف من الموت، ولكن على قصر الحياة لديه، ويرى الموت فى حد ذاته مخيفا قاسيا، ويرى الدنيا وهما وسرابا.

٤ ـ صفاء النفس عند حسن البصرى يأتى من إحياء القلب الذى يسيطر على كافة جوانح الإنسان ويطالب تلاميذه بمخاطبة قلوبهم ومراقبة أنفسهم.

٥ ـ يغرس فى طلابه الصبر لفظا وعملا حتى يتخلصوا من الشهوات، ويوضح لهم بأن الصلاة لا تصح إلا بعد التخلص من تلك الشهوات والخطايا.

٦ ـ ويرى الحسن البصرى أن صلاح حال الفرد المسلم يأتى عن طريق مراقبة النفس ومحاسبتها وزجرها.

وبهذه النقاط التى حدد بها حسن البصرى منهجه الجديد فى مدرسته بالبصرة قد وضع علما جديدا وفريدا من نوعه ضمن العلوم الإسلامية هو:

«علم إرادة النفس الإسلامية والذى كان له الأثر الكبير فى منهج كل من الحارث المحاسبى وأبى حامد الغزالى، وعن أحاديثه حول النفس ومحاسبتها والغوص فى أعماقها قد وضح لنا هدف هذا العلم الجديد بين العلوم الإسلامية، وظهر حسن البصرى عملاقا فى علم النفس الإسلامى».

المدرسة العدوية:

أسست هذه المدرسة سيدة الحب الإلهى «رابعة العدوية» التى ذاع اسمها ومنهجها الصوفى فى العالم الإسلامى، ويهمنا كدارسين أن نعرف الكثير عن حياتها السابقة قبل التعرض لمنهجها التربوى.

وقد وصلت إلينا آراء كثيرة عن نسبها وعن أسرتها. سواء كانت هذه الآراء جاءت عبر العصور التاريخية موضوعة عنها فى الكتب والمصادر العربية، أو آراء خاصة بالمستشرقين وتتبلور هذه الآراء فى عدة نقاط هامة وهى:

١ ـ الواضح من هذه الآراء أن هناك محاولات كثيرة وعجيبة موضوعة عن نسب رابعة العدوية. فقد اختلفت المصادر العربية فى نسب رابعة وأسرتها.

٢ ـ يرجع المستشرقون نسبها إلى أصول فارسية وأخرى مسيحية، والهدف من ذلك هى محاولة غير علمية لتشوية التصوف الإسلامى بأنه مستمد من التصوف الفارسى القديم أو من الرهبنة «المسيحية» أو التصوف الهندى.

٣ ـ إن جـميع الآراء التى جاءت عن طريق المصـادر العـربيـة ـ رغم اختـلافـها ـ قـد أجمـعت على أن الأصول فى التصـوف الإسلامى مسـتمدة من الكتـاب والسنة وأن رابعة العدوية من أصل عربى وأن قبيلتها قيسية.

٤ ـ إن محاولات المستشرقين غير موضوعية وقامت على الحـدس والتخمين، وليست على المنهج العلمى السليم المعروف لدينا الان.

٥ ـ تصور لنا المصـادر العربية بأن رابعة العدوية لامـعة الذكاء متـعددة الايمان والحس منذ طفولتـها الأولى، وأنها حفظت القـرآن وحافظت على الصلاة، وقد ذاقت مـرارة اليتم وهى فى سن الشباب وأن أخواتها جميعا بنات.

٦ ـ تتفق المصادر العربية فى قصة رابعة العربيـة وظروف حياتها والمتاعب التى واجهتها منذ المجاعة التى شملت البـصرة وفرقت بينها وبين أخواتها يضربن جمـيعا الأرض تلمسا للقوت، ونتيـجة لهذا القحط انتشرت عـمليات اللصوصية فى الطرق ومعـهم تجار الرقيق بعيدة عن أعـين الناس يلتمسون صيدا ثمـينا، وشاء القدر أن تكون رابعة هذا الصيـد فتقع فى أيديهم كمـا تقع فى العبودية فقـد باعها التاجر الـذى اختطفها بستـة دراهم وهذا مبلغ ضئيل لاى فتاة تعرض فى أسواق العبيد.

٧ ـ نالت رابعة من سيدها الجديد ألوانا كثـيرة من العذاب والقسوة، وكانت رابعة ذات معدن معين مـختلف عن بقية جيلها فى تحمل هذه الألوان المختلفـة. كما أن العناية الإلهية تخصها صفـة يقف العقل والفكر عندها. بدأت تهرب من عذابها وضيق حيـاتها إلى سعة إيمانها الكبير الذى أغرقها فى بحور المناجاة.

٨ ـ أعـتقـهـا سيـدها الجـديد، ولا ندرى لماذا وكـيف. لان المصادر العـربيـة لم توضـح ذلك؟.

٩ ـ كانت رابعـة مغرقـة فى صلاتها سـاجدة تحس بالنور يغمـر كل كيانهـا وهى تقول «إلهى أنت تعلم أن قلبـى يتمنى طاعـتك ونور عـينى فى خدمـتك ولو أن الأمـر بيدى مـا انقطعت لحظة عن مناجاتك، ولكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى».

١٠ ـ كانت فـريضة الحج بالنسـبة لرابعـة من الفرائض الضـرورية فى مستـهل حيـاتها

الروحية، ولا. تستطيع تتبع هذا الجانب فى حياتها لانه قد ضاع فى أعماق الأساطير التى وضعت لحياتها.

وقد وضع دكتور عبد الرحمن بدوى نظرية فى الإيمان من خلال تتبعه لقصة رابعة الدعوية وتتلخص فيما يلى:

١ ـ بأن الانقلابات الروحية الكبيرة جاءت نتيجة العنف والإفراط والمبالغة، وضرب فى ذلك مثلا من الأمثلة بما حدث للقديسين من عنف للشهوات الحسية الى عنف للفكر ذاته أدى إلى الإيمان.

٢ ـ أن الاعتدال شيمة الضعفاء والتطرف شيمة المبدعين الخلاقين

٣ ـ تطرف رابعة فى إيمانها وحبها سبقه تطرف فى فجورها وحبها للدنيا

٤ ـ يقصد بأن الإيمان القوى والسلوك إلى الله لا يأتى إلا بعد الإفراط فى الشهوات والفجور مسبقا، وأن المؤمنين فسقه واقتاتوا بقوت الحواس.

وأرى فى نظريته ما يلى:

١ ـ نسى دكتور عبد الرحمن أن الإيمان بالله لا يأتى إلا عن طريق الاقتناع والمعرفة بالخالق، وكلما ازدادت المعرفة بالله ازداد الإيمان وازداد الحب لله.

٢ ـ لا يأتى الاقتناع والمعرفة إلا عن طريق العلم بالكون والمخلوقات، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى:

«إنما يخشى الله من عباده العلماء»[(١)].

والخشية هى أعلى درجات الإيمان ولا يصل إليها إلا العلماء الذين أغرقوا أنفسهم فى المعرفة، ولا تتم المعرفة إلا عن طريق الحب، والإيمان لا يأتى عن طريق الإغراق فى شهوات الحسن واللذات.

٣ ـ قصد بنظريته هذه أن علماء المسلمين الذين عرفوا الله حق المعرفة كانوا ملاحدة وفسقة، وأن إيمانهم بالله سبقه الإغراق فى الشهوات والحس.

٤ ـ إن نظريته ليس لها سندا أو أدلة تؤيدها، وإنما اعتمد على التخصيص والاستنتاج.

---

(١) فاطر: ٢٨

المنهج الدراسى للمدرسة العدوية:

عاشت رابعة العدوية فى فجر الانبثاق العلمى الإسلامى، فقد بلغت موجة الفتح العربى غايتها فى القرن الأول الهجرى، وهيمن عالم القرآن والسنة على الأمة الإسلامية وبدأ العالم الاسلامى يلتفت إلى الجوانب الثقافية والفكرية والعلمية والتنقيب عن الآراء الفلسفية والجدلية، والبحث عن التراث القديم للأديان السماوية.

أخذت مدارس المنطق ومعاهد الجدل تأخذ طريقها إلى أبواب الفقة الإسلامى وإلى ساحات التفسير فترسى قواعدها التى لم تكن معروفة فى الصدر الأول للإسلام.

وكان لابد من حركة مقاومة سريعة للوقوف في وجه هذا التيار. فجند رجال الحديث أنفسهم لقيادة الجماهير الإسلامية التى كانت فى حاجة إلى من يخاطب قلبها ويوقظ روحها ويلمس المفاتيح التى تحرك أحاسيسها وتشعل وقود الإيمان فى جوارحها للتصدى لهذا التيار المدمر.

جاءت رابعة ومدرستها على ميعاد فى تلك الفترة لتحول الزهد إلى محبة، والرهبة والخوف والبكاء إلى خشية والعقيدة إلى بساطة، والفلسفة الى إيمان، والفقة إلى تعبد وأخلاق.

جاءت رابعة لترسى قواعد مدرسة فريدة جديدة من نوعها فى الإسلام هى مدرسة الحب الإلهى. فجعلت من الحياة أنشودة سماوية تهتف بحب الله، وجعلت الطاعة عملا ذا روح، وجعلت من الرضا صورة مشرفة باليقين فيها جنة الرجاء.

جعلت رابعة من خلال الحب الإلهى الحب للكون بكل ما فيه، وتلك أعلى وأسمى ذروة الحب فى تذوق الحياة، وتسلسل من كل هذا حبها لكل ما يجرى به القضاء والقدر لأنهما من أمر الله، وكل أمر من عند الله سبحانه وتعالى فهو خير لو فهمة الناس واستوعبوه.

جعلت رابعة التقوى وحب الله طريقها للتفاهم بين الناس وما يجاورهم ويحيط بهم من جماد ونبات. فمن اتقى الله خضع له كل شئ، ومن أحب الله سخرت له الحياة.

وتعد رابعة أستاذة علم النفس الصوفى بلا منازع. اذ عرفت النفس البشرية وطبيعتها وعوامل اعتلالها وعوامل شقائها إذا مرضت، وعوامل صفائها وتقاء معدنها ومراحلها

وذلك عن طريق المنهج الذى وضعته لمدرستها. وخطة الدراسة التى وضعتها سيدة الحب الإلهى وأستاذة علم النفس الصوفى تتلخص فى عدة نقاط مشتملة على مضمون النسيج الصوفى الذى قررته مناهج المدارس الصوفية فيما بعد. ومن أهم تلك النقاط هى:

١ - التوبة:

أسلوب إسلامى يتمثل فى الرجوع إلى الله، وبه يبدأ الصوفى صفحة جديدة فى حياته الدراسية فى المدرسة الصوفية، ويطبق هذا الأسلوب بطريقة نظرية وعملية فى آن واحد. فالنظرية مزيج من الاستغفار والشوق إلى الله، ويأتى من داخل العبد ذاته يحس به إحساسا قويا. أما العملية فهى قيام الليل فى الصلاة وقراءة القرآن واستذكار الموت وما بعده من عقاب وثواب، وتذكرة للموت بحيث على الدراس فى هذه المدرسة أن يعد «أكفانه» ويضعها أمام نظره متذكرا أن الموت فى كل لحظة، وقد يثير هذا التذكر الإحساس بالخوف الذى يؤدى إلى البكاء والاستغفار والابتهال والصلاة لله.

والتوبة فى المدرسة العدوية مقام وحال. لأنها صفة دائمة للمؤمنين فهى مقام أعد لاتصالهم بالله فى كل لحظة استجابة لقول الله عز وجل.

«وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون»(١).

وشرط هذه التوبة الصدق النابع من القلب، وعدم العودة الى الذنوب مرة أخرى. والدارس فى المدرسة العدوية مؤمن إيمانا قويا بالخالق، ويعتبر إيمانة أول درجات الدراسة الصوفية حتى يدخل فى التسليم المطلق الكامل لله سبحانه وتعالى فيغمره الله جل وعز بالعزة والثقة بالنفس.

٢ - الرضا:

عن طريق درجات الإيمان التى يصل إليها الدارس فى المدرسة ينشد العبد الرضا من الله. فإن وصل إليه لا يبالى بأحداث الحياة فيرتقى إلى أعلى درجات الرضا. فيستوعب أن كل شئ فى الوجود كان من قضاء الله، وقدره وتعد هذه الدرجة العلمية من كمال العبودية للخالق سبحانه وتعالى.

فالرضا بكل أمر واقع فيه حكمة. وعسى تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا.

(١) النور: ٣١

فالرضا من أسرار الحياة للمؤمن.

٣ ـ المراقبة:

أسلوب من الأساليب التى صارت به المدرسة العدوية فى خطة دراستها، وهذا الأسلوب مستمد من الكتاب والسنة يدرب الدارسون عليه بطريقتين هما:

١ ـ مراقبة النفس والقلب مراقبة دقيقة ومحاسبة شديدة.

٢ ـ الاحساس بمراقبة الله لمخلوقاته لانه يراهم فى كل تحركاتهم أينما حلوا وأينما ارتحلوا.

٤ ـ المحبة:

تعد العمود الفقرى للمدرسة العدوية. فالدارسون فيها يحبون الله حبا شديدا. ليس خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته. ولقد قالت رابعة حينما سئلت عن الجنة فقالت: «الجار ثم الدار» أى تنشده قبل أن تنشد جنته.

وسئلت عن حقيقة إيمانها فأجابت: «ماعبدته خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته فأكون كالأجير السوء بل عبده حبا له».

ويقول دكتور محمد مصطفى عن الحب الإلهى: «إن لفظة الحب ظلت مختفية من معظم مصطلحات الصوفية حتى كانت رابعة».

يوضح المنهج الدراسى للمدرسة العدوية بأنها كان رائدة المدارس الصوفية التى رسمت طريقا جديدا للتصوف الإسلامى فاندفع تياره بسرعة خاطفة كما أن رابعة تعد أستاذة لعلم النفس الصوفى وسيدة الحب الإلهى فى عصرها.

وعلى نمط هاتين المدرستين السابقتين مع طلابهما وزمن ظهورهما ومن خلال هذه المدارس ظهرت الشخصيات الصوفية اللامعة فى الفكر الإسلامى الروحى وأهم هذه الشخصيات.

١ ـ عامر بن عبد قيس صاحب الثورة الروحية الأولى فى البصرة.

٢ ـ الاحنف بن قيس منهجه العلمى مبنى على محاسبة للنفس والصبر.

٣ ـ فرقد بن يعقوب السنجى الزاهد الأرمنى المسلم.

٤ ـ حبيب العجمى الصوفى الفارسى.

٥ ـ مالك بن دينار ومحمد بن واسع وثابت بن أسلم البنانى وأيوب السختياتى وهم من الوعاظ العباد فى مدينة البصرة.

٦ ـ عبد الواحد بن زيد أول محب عفيف وهو من الزهاد.

٧ ـ عينة الغلام المحب الشهيد.

٨ ـ رباح بن عمر العيسى نظريته الخله.

المدرسة البغدادية:

تعد هذه المدرسة امتدادا لمدرسة رابعة العدوية فى البصرة. فقد انتقل عامل الحب الإلهى إلى صوفية بغداد. لكنه بطريقة مخالفة عما كان فى مدرسة رابعة. إذ قام أئمة الصوفية بمزج عامل الحب الإلهى مع عامل الولاية وجعلوا منهما عاملا واحدا.

أما من ناحية التصوف الإسلامى كعلم له منهجه بين العلوم الإسلامية فقد قامت المدرسة البغدادية بعدة محاولات فى هذا الشأن.

فالتصوف فى رأى المدرسة البغدادية ظاهرة دينية فريدة من نوعها لتربية المسلمين تربية ذوقية وجدانية تمس القلب والروح قبل الجوارح. كما أنها من الناحية العلمية علم تطبيقى لأنه يرتبط بمجاهدة النفس. كما أنها علم يمس الحياة فى الآخرة ويضفى على بعض المفاهيم الفقهية الجامدة روحا جديدة ممتزجة بالعاطفة الدينية التى تمس القلوب وتؤثر فى النفوس.

وتنحصر أعمال الصوفية فى عدة مفاهيم. منها التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والشوق والوجد والورع والخوف والصبر وغيرها من ـ مجموعة الأنسجة الصوفية.

لقد بدأ هذا العلم الجديد بمفهوم جديد للعبادات والأحكام هو المفهوم الباطنى الذى استمده من الكتاب والسنة.

حاولت هذه المدرسة بكافة الطرق إلى توحيد علوم الفقة مع علوم الصوفية فى علم واحد، ولكن المحاولة لم تتم لأن الفقة قائم منذ بدايته على الرواية الصادقة. أما التصوف

فقائم على التذوق الوجدانى والدراية والإحساس.

ويدور المنهج الدراسى فى المدرسة البغدادية حول النقاط التالية.

١ ـ الزهد

٢ ـ الحب ممتزج بالولاية

٣ ـ الانقطاع لله

٤ ـ محاسبة النفس ومراقبتها

٥ ـ التبغيض فى الكبر والحسد والشماته

٦ ـ الأخلاق وتدور مباحثها فى:

(أ) النفس والأمراض التى تصاب بها وطرق علاجها.

(ب) القلوب وأسرارها.

(جـ) الأخلاق التى يتصف بها المريد فى هذه المدرسة.

٧ ـ التقوى وغايتها المعرفة والفهم، ولا يتم الوصول إليها إلا عن طريق العلم والعمل.

٨ ـ الموت وما بعده من عقاب وثواب

٩ ـ الصبر وقوة الاحتمال

١٠ ـ الذكر والدعاء لله سبحانه وتعالى.

وقد ظهر العديد من علماء الصوفية فى هذه المدرسة وتخصصوا فى بعض العلوم الصوفية، ولقد أضافوا إلى الحياة الروحية الكثير من المفاهيم الجديدة، ومن ألمع هذه الشخصيات:

١ ـ أبو هاشم الزاهد: وهو أول من لقب بالصوفى ولباسه الصوف

٢ ـ منصور بن عمار: اهتم بالأخلاق والكرامات

٣ ـ معروف الكرخى: منهجه الحب ممتزجا بالولاية

٤ ـ بشر بن الحارث الحافى: منهجه التصوف والزهد مع العمل

٥ ـ الحارث المحاسبى: الاعتماد فى منهجه على الكتاب والسنة والقدوة بأصحاب رسول الله ومحاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها.

٦ ـ سرى السقطى: منهجه الحب وعلاماته الانقطاع لله.

وقد انبثقت من هذه المدرسة جماعة من العلـماء اتخذوا من الفلسفة والأفكار الفارسية والبوذية أفكار جديدة، وحاولت أن تصبغها بالـصيغة الإسلامية، وقد أطلق على أفكارهـم الجديدة اسم «شطحات». وقـد تعرضوا من خلال تلك الأفكار الى التـعذيب والقتل. هذه الأفكار التى ظهـرت من جراء فكرهم المستـورد قد عـرضت الفكر الصوفى كله للهـجوم الذى لا مبرر له. فالفكر الصوفى كما ذكرت فى الفصـول الأولى من كتابى استمد نسيجه من الكتاب والسنة. وهذين المصـدرين فيهما مـا يغنى الصوفى أو الزاهد بأن يقيم مـدرسته ومناهجها والخطة الدراسية فيها[1].

(١) انظر كتب الدكتور عـبد الحليم محمود، وهى فى معظمـها تبحث فى التصوف، ويعد الدكـتور عبد الحليم محمود أحد مؤرخى الصوفية فى مصر فى العصر الحديث.

الفصل الثالث
المدارس الشامية

الشام ذات الأرض الخصبة والمياه الوفيرة والمناخ المعتدل، وعلى أرضه هبطت الديانات السماوية فانتشرت تعاليمها فى أرجاء المنطقة كلها، وأكثر من ذلك قامت الحضارات القديمة على ضفاف أنهاره. فصارت الشام منطقة جذب لكل سكان البحر المتوسط وشبه الجزيرة ومصر.

ساهم السكان الجدد الذى نزحوا إلى الشام فى إقامة نهضة علمية ومدارس ـ لعبت دورا هاما فى تاريخ المنطقة كلها، وبين جدران هذه المدارس ظهر العلماء العظام الذين أثروا العالم القديم بأفكارهم وقادوا المنطقة إلى منطقة علمية لعبت دوراً هاما فى تاريخ الإنسانية فى العصور القديمة.

على أرض تلك المنطقة ظهرت المراكز العلمية، وخاصة فى صور وانطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص.

فى تلك المراكز ظهرت المذاهب الفلسفية اليونانية والنظريات الفقهية الرومانية. فأثر ذلك فى العقلية الشامية تأثيرا كبيرا، ولعب السريانيون دورا كبيرا فى العلوم القديمة، فكان لهم دورا هاما فى الحركة العلمية فى بلاد الشام وسكان شبه الجزيرة المجاورين لها زحفوا إليها طمعا فى خيراتها فتأثروا بأفكار المنطقة وأثروا فيها بأفكارهم.

ولما تم الفتح الإسلامى لهذه البلاد انتشرت اللغة العربية بين سكانها، ولم تقف الدولة الإسلامية فى وجه أهل الشام من التفقه فى الدين. بل أرسلت اليهم ثلاثة من كبار أساتذتها ومعلميها. هم «معاذ ابن جبل، وعباده بن الصامت، وأبو الدرداء».

لقد بذل الثلاثة جهودهم لإقامة أول المدارس الإسلامية فى تلك المنطقة، وقاموا بالتدريس فيها، وعرفوا فيها بأنهم فقهاء ومعلمين وقراء مشهورين، ولم يكتفوا بذلك. بل تولوا منصب القضاء فى المدن التى وفدوا إليها، ومن بعدهم جاءت وفود المعلمين إلى تلك المدارس.

ونقل الأمويون مركز خلافتهم إلى دمشق، وكان من الطبيعى أن ينتقل العلماء الى

مركز الخلافة، وللأسف لم يشجع الأمويون الحركة العلمية. لأنهم مشغولين بالقضاء على معارضيهم فى المنطقة العربية كلها. فالمدارس التى ظهرت فى تلك المنطقة قامت على جهود ذاتية، ونتيجة للحماسة الدينية التى غمرتهم، وزادت بعد ذلك حاجة الناس إلى معرفة الشريعة والأحكام الإسلامية.

ومع هذه المدارس ظهرت الحركة الروحية فى بلاد الشام، وبدأ الناس يتعرفون على منهجها.

ويوضع الباحثون المستشرقون فى بحوثهم التى نشروها بأن هناك عنصرا خارجيا قد اتصلت به الحياة الروحية الإسلامية واتهامهم زورا وبهتانا بأن المسلمين أخذوا دليل الصوفية عن البوذية أو المسيحية أو الفارسية أو اليونانية. ذلك أن منطقة الشام كانت تموج بالفرس واليونان، وبالمسيحية والهنود والسريانيين قبل الفتح للشام، وعنهم نقلوا حضارتهم وحياتهم الروحية، وأن العرب الذين جاءوا من الصحراء استولو على الحكمة فى تلك المنطقة.

نسى الباحثون أن التصوف الإسلامى له أصوله الكثيرة فى الكتاب والسنة، وأنهما منبعان صافيان لكل زاهد أو متصوف يرغب فى حياة صوفية.

المدرسة الدمشقية:

هى أولى المدارس التى أنشئت فى بلاد الشام، واتخذت من المساجد ركنا لها حيث كانت تقام حلقات الدراسة، ولقد وضعت هذه المدارس منهجا دراسيا جديدا يتلاءم مع طبيعة ونوعية التصوف فى بلاد الشام، ولقد درست هذه المدرسة مواد التفسير والأحاديث والقراءة الصحيحة. وأشهر الرواة للحديث هو «معاذ بن جبل». واعتمد منهج هذه المدرسة على عدة نقاط هامة هى:

١ ـ الجوع:

لقد اتخذت هذه المدرسة من الجوع شعارا خاصا بها، وأطلق على مريديها الجوعة نتيجة لعدم اقبالهم على تناول الطعام إلا ما يقيم أودهم. متخذين من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة قال: «بحسب أبن آدم لقيمات يقمن صلبه» ولقد رأت

الصوفيية أن الإكثار من الطعـام يكون بمثابة حاجز قوى يؤدى إلى الكسل والخمول، ويمنع الفرد المسلم أن يفكر تفكيرا علميا، ويمنع النفس أن ترقى إلى مدارج الصفاء.

ويرى أبو سليـمان الـدارانى وهو أحد شـيوخ الـصوفـية بأن كـثـرة الأكل تجلب اللذة الجنسيـة وتبعـد الفرد المسلم عن العـبادة. حـيث قال: «الجـوع يحارب اللذة ويوجـه الفرد الصوفى إلى العبادة والتفرغ لها».

٢ـ الخوف والدموع:

اتصفت هذه المدرسـة بالخوف الشديـد على نمط مدرسة حـسن البصرى. فـالخوف فى قاموس هذه المدرسة هو الخشية من الله.

ولكن الخوف فـيها ظهـر ممتزجا بالبكاء الشـديد، ويرى صوفية المـدرسة الدمشقـية بأن الدموع تغسل الفرد المسلم من أدران الذنوب، ولهذا كثر بها البكاء، وعرف أصحابها بهذه الصفة حتى ترى تأثير الدموع الكثيرة على وجوهم.

٣ـ الشريعة الإسلامية:

قامت هـذه المدرسة على دراسـة الشريعة الإسلاميـة. فالشـريعةِ فى نظرها ليـست من أعمال الحكام فـى الدولة الإسلامية، وهى تطبق على الحكام والمحكومـين سواء. فليس فى نظرهم حاكم من حقه أن يشرع للناس، ولا يعتـبر بحال من الأحوال ما يصدره الحاكم من أمر أو نهى مبدأ قانونيا يعمل به كسابقه إلا إذا كان اجتهادا فى حدود الإطار العام للشريعة الإسلامية التى مصدرها كتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فإذا كانت الشريعة الإسلامية مرنة تستجيب لحاجات الناس المتجددة. فليس معنى هذا أنها تخرج عن إطار القرآن الكريم والسنة.

وإنما تستخرج لكل مسألة طارئة قيـاسا فى إطار أصولها، ويتم ذلك عن طريق ما عرف فى العصور السابقة وعصورنا بالاجتهاد.

ولما كانت الأمـة لا تستطيع بكليتـها أن تقوم بهذه الواجـبات أوجد الإسلام مـا يسمى «الاكتفاء أو النيابة» أى إذا قام بها بعض من الأئمـة سقطت عن بقية المسلمين، وقد أطلقوا على هذه المهمة الاجتهـاد «كغائبه» وأطلقوا على أصحابها اسم «أصـحاب الاجتهاد» وهم

أصحـاب العلم والبصـر بكتاب الله وسنة رسول الـله صلى الله عليه وسلم مع اتصـافهم بصدق النظرة وقوة الرأى وحـسن الإسلام وتقواه، ولـم يكن هناك نظام معـين يختارون به هؤلاء أو يتخذونهم لسلطانها أو تأثيرها فمهمة الخليفة أو الحاكم مهمة تتغير به ولا يسمح للحـاكم أو الخليفـة أن يكون فى داخل هذه الهيـئة «أهل الاجـتهـاد» إلا إذا انطبقت علـيه شروطهم.

مدرسة «أبو الدرداء الأنصارى»:

أتيح للصحابة فريضة السـياحة فى الأقطار الإسلامية فى عصر الخليفـة الثالث «عثمان بن عـفان» فكان أبو الدرداء عـويمر بن زيد الأنصارى من المهـاجرين إلى الشـام. دخل مع الذين دخلوا الإسـلام، وكان عمله وقـتئذ الـتجارة. فلمـا فهم الإسلام واسـتوعـبه أراد أن يتفرغ للعبادة.

فتـرك تجارتـه وإن كان لا يحـبذ ذلك إلا أنه فـعل هذا تفرغـا للدعوة الاسـلاميـة، ولـم يحض فى دعـوته الناس على ترك أعـمالهـم. وعند وصوله بلاد الشـام قـام بتأسـيس أول مدرسة لـه، وإن كانت تغلب عليها التـصوف فاستـمد أصولها من الكتـاب والسنة، وكان مدرسة مثل المدرسـة الدمشقية، لكنها تختلف عـنها فى التأثير الكبير الذى لعبـته فى الحياة بكافة جوانبها فى بلاد الشام.

وكان من أهم سمـات هذه المدرسة أنها قامت على عـدة تقسيمات هى: عـالم ومتعلـم وعامة المسلمين.

والسمـة البارزة فى منهج هذه المدرسة تعليـم أبناء المسلمين قراءة القـرآن الكريم قراءة سليمة وتدبر آياته فهما واستيعابا، وفى نظر هذه المدرسة أن قراءة القرآن عبادة.

شهدت المدرسـة الأحداث السياسية فى الدولة الإسـلامية من قبل عثمـان بن عفان الى تولية علـى بن أبى طالب. شهدت أيضـا الحروب الدائرة بين مـعاوية والعلويين. شـهدت حروب صيفـين وعملية التحكيم بين الطرفين. شهدت مـقتل على بن أبى طالب. شهدت قيام الدولة الأمـوية. فلم يشارك تلاميذها فى هذه الأحداث، ولـم يبـدوا آراءهـم فى الفئات المتحاربة. لقد ابتعدت عن الأحداث السياسية ولهذا كتب لها البقاء.

درست فى حلقات الدراسة علوم الصبر والرضا والتوكل. حيث وضح ذلك فى قول أحد شيوخها:

«إن دور الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدرة، والإخلاص فى التوكل، والإسلام للرب عز وجل».

قامت هذه المدرسة على قواعد علمية كمثيلاتها فى الشام، واتخذت من الجوع سمة مميزة، ويوضح أحد شيوخها:

«اللهم أبعد عنا الشبع فى الطعام وعدم الجوع فى العلم»

وهذه المدرسة كمثيلاتها فى بلاد العراق والحجاز قام منهجها على تفسير القرآن الكريم ورواية الأحاديث والصيام والقيام فى الليل للصلاة، وقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، والذكر والحزن لما وصل إليه المسلمون والتمسك بالقليل من الطعام لإقامة صلب الإنسان المسلم، ولم تظهر علوم الصوفية التى تبلورت على النحو العلمى فى مدرستها.

مدرسة أبى سليمان الدارانى:

كان لابد من أن تتطور الحياة الروحية فى تلك المدرسة من فكرة العبادة وأساسها الجوع الى أساس روحى أعمق وأكثر معرفة بالنفس الإنسانية، وتختلف الحياة الروحية فى هذه المدرسة من التصوف، أو بمعنى أكثر من علم جديد فى النفس يطلق عليه «علم إرادة النفس وأخلاقها» وأن تجمع هذه المدرسة كل ما ورد عن الجوع وتنسقه فى شبه نظرية من النظريات والعلم. كما ظهر الفقة فى بقية المدارس السابقة.

صاحب هذه المدرسة هو عبد الرحمن عطشه المشهور بأبى سليمان الدارانى الذى توفى فى ٢٠٥هـ وهو من أهل الشام وينسب إلى مدينة داريا وهى مدينة قريبة من دمشق، ولكن يرجع أصله إلى العراق. ففى العراق كان يعمل ويكد ويكدح ويدرس. حيث طريق السلوك الصوفى، وفى الشام فقد عرف وتوصل إلى المعرفة بكامل جوانبها. حتى ظهرت علوم الفتوحات الربانية.

لقد تتلمذ فى المدرسة الكوفية ونقل عنها الحديث، وكان أستاذه فى هذه المدرسة سفيان الثورى. وفى المدرسة البصرية التقى بأستاذه صالح عبد الجليل، ودرس على يد معروف

الكرخي، وقد تفوق في الحكمة. يعده مؤرخو الصوفية بأنه صوفي سني. ولقد اتخذ تصوفه من الكتاب والسنة، وأصبح له أسلوب مميز عن غيره من مشايخ مدرسته في المجاهدة وفي السلوك الصوفي، ويوضح لنا بأنه تلقى الفيض الرباني في الليل، واتخذ من هذه الآية قاعدة أساسية لمنهجه العلمي حيث يقول عز وجل:

«أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفه من الذين معك»(١) ويقوم الليل ليذكر الله كثيرا هو وتلاميذه، وقد اتخذ هذه الآية قاعدة له «أمن هو قانت آناء الليل، ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة الله»(٢) وقد قام سليمان الدراني والأحزاب كابدوا الليل بعملهم.

١ ـ جماعة يقطعهم الليل: وهم تلاميذه الذين يقرأون الأوراد والأحزاب. كابدوا الليل بعلمهم.

٢ ـ جماعة قطعوا الليل: وهم العلماء قطعوا الليل بالصبر والمصابرة فغلبوه بذكر الله.

٣ ـ جماعة قطع الليل بهم: أي يمر بهم الليل سريعا، وهم في حالة يقظة كاملة، ولم يعرف النوم جفونهم وهم يذكرون ويناجون الله، وهم الذين عاشوا في نعيم الله، وأن الله عز وجل قد رفع نومهم فهم في مناجاة دائمة.

ومن أهم العلوم التي درست في هذه المدرسة في:

١ ـ التأمل: التفكر في الحياة وفي الآداب والسلوك.

٢ ـ الجوع: وهذا علم عملي يقوم على مجاهدة الجسد، وحتى لا يكون الأكل حافزا على الفكر.

٣ ـ علوم المعرفة: معرفة القلب والنفس.

٤ ـ علوم المقامات: الرضا ـ الورع ـ التوكل ـ الحب.

٥ علوم الأجوال: المحاسبة ـ الصدق.

الدارس لفكر صاحب المدرسة يرى أنه قد وصل بالحياة الروحية الى تكوين حزب صوفي كامل، ولقد تخرج من مدرسته العديد من علماء الصوفية والذين كونوا مدارسهم

(١) المزمل: ٢٠

(٢) الزمر: ٩

فيمـا بعد، ولعبوا دورا كبـيرا فى الحياة الروحيـة من أهم تلاميذه ولهم شهـرة فى التصوف هم: أحمد بن والى الحوارى وقاسم الجوعى.

لقد تفوق أحـمد بن والى الحوارى فى مدرسـة الدارانى حتى أطلق عليه أهل الصـوفية لقب «ريحانـة الشام» فلقد كـان الحوارى امتداد لأستـاذه الدارانى وصورة واضـحة عنه - ويقال إن أستـاذه قد عرض عليه دقائق حـياته وأخباره ورحلاته ومـقابلاته. ولقد ردد آراء أستاذه فى الصوفية والزهد.

أما قاسم بن عثمان الجوعى فهو الشخصية الثانية لمدرسة الدارانى فى الشام، وقد أطلق عليه لقب الجوعى الكبير، ولقد خطا الجوعى خطوة كبيرة فى التصوف حيث قام بعمليات مزج بالمقامات فمزج الجوع بالمحبة، ومزج المحبة بالمعرفة والطاعة بالتصديق وبالمحبة. ومن تلاميذ مدرسة الـدارانى العديد. منهم منصور بن عمر وأبو كريمة العبـدى، وبشير الطبرى وأبن عباد الشامى وأبن الفتح الجلى(١)

وأشهر ما قيل فى هذه المدرسة من شعر فى المحبة

أنت سـؤلى وبـغـيـتى وسـرورى   قـد أبى الـقلب أن يحـب سـواكـا
ياحـبـيب القـلب من لى سـواكـا   ارحم اليـوم مـذنبـا قـد أتـاكـا
يا منـاى وسـيـدى واعـتـمـادى   طال شـوقى - مـتى يكون لـقـاكـا
ليـس سـؤلى من الجـنان نـعـيم   غـيـر أنـى أريدهـا لأراك

(١) انظر كتاب نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على النشار فى العصر الحديث.

الفصل الرابع
المدراس المصرية

كانت مصر مهدا للحضارة القديمة والوارثة لحضارة اليونان والرومان، وبها المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية وملتقى الآراء الشرقية والغربية، وكان يقطنها المصريون ومزيج من أمم عديدة كاليهود والرومان. وحين الفتح الاسلامى أقبل إليها العرب لخصوبة أرضها فاختطوا الفسطاط لتكون حاضرة إقليم مصر وانتشروا فيها حسب التوزيع القبلى لهم ونزلوا مستقرين فى مدنها وأريافها، ودخل كثير من المصريين فى الإسلام حبا فيه فاختلطت الأنساب بينهم نتيجة التزاوج.

أصبحت مصر وهى صاحبة الحضارة ورائدة للثقافة القديمة مركزا علميا فى الدولة الإسلامية، وحركتها العلمية صارت إسلامية وليست فلسفية ولا دنيوية. وهى مثل جميع المراكز العلمية، وأكبر شئ فى هذه الحركة النامية هو الدين، ولذا كان طبيعيا أن تنتشر علوم الدين فى ذلك العصر. وليس معنى ذلك أن الآراء الفلسفية والآراء الشرقية والغربية قد أبيدت إبادة تامة، وانما أصابها شئ من التجمد نتيجة الفتوحات الإسلامية والآراء الإسلامية التى تخاطب العقل والروح، ثم عادت تلك الفلسفات والآراء تستعيد نشاطها وقدرتها بعد أن صبغت بالتعاليم الإسلامية وأخذت منها ما يتناسب مع الإسلام ويتفق مع مبادئه، وبترت بقية الآراء المتعارضة معها، ولم يظهر النشاط منذ بداية الفتح وإنما ظهر فى أواخر العصر الأموى وبداية العصر العباسى الأول.

وقد وصل إليها العلماء الذين قاموا بدور عظيم وشأن جليل فى مدرستها وأشهرهم «عبد الله بن عمرو بن العاص» فقد اشتهر برواية أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويؤرخ له علماء التاريخ بأنه كان كثير الاطلاع فى غير الحديث. حيث كان يجيد لغة التوراة، ويقرأ بالسريانية، وقد نقل عنه الكثير من رواة الأحاديث، وقد تولى ولاية مصر بعد وفاة أبيه ثم خرج إلى الحجاز ثم عرج إلى الشام، ثم عاد حيث استقر بمصر، وله بها دار

وقد مات ودفن فيها.

وهو المؤسس الحقيقى للمدرسة الأولى المصرية، وكما ذكرت أخذ عنه كثير من أهل مصر، ومن تلاميذه الذين اشتهروا فى هذه المدرسة هم «يزيد بن أبى حبيب» وهو من النوبة، وقد عمل على نشر العلم فى مصر، ودراسته قامت على توضيح الحلال والحرام ومسائل العفة المختلفة. واشهر تلاميذه هو «عبد الله بن لهيصه والليث بن سعد» أما عبد الله بن لهيصه فهو من حضرموت، وقد التحق بمدرسته بمصر الكثير من علمائها وأخذ عنهم، وكان يدون ما يسمع وقد نقل إلينا الكثير من الحوادث التاريخية التى حدثت فى مصر فى تلك الفترة، وقد تولى القضاء فى مصر فحكم بين الناس بالعدل.

أما الليث بن سعد فأصله مولى من أصفهان فى فارس، وأنه ولد بمصر وقد طاف بالكثير من الأقطار الإسلامية لأخذ العلم بعد تخرجه من المدرسة الأولى فى مصر، وقد قابل الكثير من علماء المسلمين التابعين فأخذ عنهم الحديث والتشريع، وقد قال فيه الشافعى لتلاميذه.

(الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه «أى تلاميذه» لم يقوموا به) (أى لم يحفظوا تراثه العلمى).

واتصف بمنزله عالية ورفيعة بين قومه، ويعتبر حجة فى عظائم الأمور، ومن الثقاة الذين لايتطرق إلى روايته الشك، وكون بعد ذلك مدرسته الخاصة التى ضيعها تلاميذه ولم تصل الى إيدينا، وله مذهب خاص مثل الشافعى ومالك وابن حنبل وأبو حنيفة، وقد اتبعه معظم المصريين فى مذهبه، وقد ضاع مذهبه كما ضاعت مدرسته العلمية التى لعبت دورا هاما فى الحياة المصرية وقتئذ.

وتعد مصر من أكثر الأقطار الإسلامية إثراء فى الحياة الروحية. سواء كان فى العصور السابقة قبل الفتح الإسلامى. فقد فتحت ذراعيها لتحضن كل المهاجرين إليها من العالم ليجدوا من اعتدال جوها وخيراتها الكثيرة. كل هذا أدى إلى نشر دعوتهم كما أن استقرار أهلها وعدم وجود اضطرابات سياسية بها جذب إليها المهاجرين وخاصة من المغرب العربى. وقد كونوا مدارسهم الصوفية فى أقاليم مصر فلا نجد مدينة إلا وكانت مهبطا

لشيخ مهاجر إليها يقيم مدرسته الروحية، وبصفة عامة أن التصوف المصرى يعد أحسن أنواع التصوف المعتدل الذى لاتشوبه شائبة، ويستمد أصوله من الكتاب والسنة، وكل فكرة بعيدة عن المصدرين السابقين مرفوضة تماما مع المصريين. لأن الحياة الروحية تتمشى مع الطبيعة المصرية الهادئة المستقرة، وتتلاءم مع النفسية المصرية التى ورثتها عن الأجداد منذ القدم. فالنفسية المصرية تهفو دائما إلى حياة روحية طيبة مستقرة تركن إليها وقت المصاعب. كما أن الزراعة قد غرست فى أهل مصر الصبر والجلد والهدوء. فلما جاءت إليها الحياة الروحية وجدت أرضا خصبة لتنمو فيها، ولذا انتشرت مدارسها فى كافة المدن المصرية، وسنعرض أشهر هذه المدارس فى مصر من أهمها:

المدرسة الرفاعية:

رائدها ومؤسسها الأمام أحمد الرفاعى بن صالح بن أحمد يحيى الدين بن عباس وقد شهدت جزيرة عبيدة قرب واصل فى البصرة، مولده فى عام ٥١٢هـ وينسب إلى جده رفاعة الذى هاجر من مكة عقب اضطهاد العلويين إلى المغرب حيث استقر مع قبيلة مغربية. سافر والد الإمام أحمد مكة لقضاء فريضة الحج، وظل بمكة لفترة قليلة ثم تركها إلى موطنة الأصلى البصرة حيث تزوج، واستقر بها وأنجب الإمام أحمد الرفاعى.

تردد الإمام منذ طفولته على الكتاب لحفظ القرآن الكريم فأجاده وحفظه، ثم أخذ مكانته بين حلقات الدراسة منذ السابعه من عمره فدرس الفقة وتفسير الأحاديث. فلما شب وبلغ أشده بحث عن عمل يرتزق منه، ولم يعطله كسب الرزق عن التردد على حلقات الدرس ومجالس العلم. وبعد وفاة شيخه بايعة أتباعه بالمشيخة.

منذ تلك اللحظة صار الإمام أحمد الرفاعى أستاذاً يلتقى فى المسجد الكبير بتلاميذه. وأهم الشروط لقبول التلميذ فى مدرسته أن يكون له عمل يعتمد به على نفسه فإن لم يجد له حرفة يقتات منها حرم عليه دخول مدرسته لأنه من العاطلين.

وشعاره فى مدرسته بقوله:

«طريقى دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة» واتخذ علوم الشريعة أساسا فى مدرسته. فهو يرى أن كل حقيقة خالفت الشريعة

فهى خروج عن الدين وزندقه.

وعبر أكثر من مرة أمام تلاميـذه بأن تجارته العمل، ورأسماله الإخلاص، وزاده التقوى، وأن الرياء وترك العمل يجلبان التدمير ويورثان الكسل. وقد قسم الرفاعى تلاميذ مدرسته إلى:

١ ـ المريدين: لكل مجموعة من المريدين شيخ يعلمهم ويوجههم إلى الطريق.

٢ ـ الشيوخ: لكل مجموعة من الشـيوخ شيخ سلك الطريق من قبل أن يوجههم الى ما وصل اليه.

٣ ـ الخلفاء: ولكل مجموعة من الخلفاء خليفة

والمريد (التلمـيذ» لا يصل إلى ما تهـفو إليه نفسه حتى يـخرج عن كل ما ألفـه ويترك جمـيع الشهـوات والمباحـات ـ أى بمعنى آخر يجـاهد نفسـه فى الحلال، وقـد وضع الأمام أحمد الرفاعى منهجا فى مدرسته، وتدور أفكار هذا المنهج حول هذه النقاط التالية:

١ ـ الكتاب والسنة

٢ ـ عدم مجاراة موتى القلوب

٣ ـ موافقة السلف على ما هم عليه

٤ ـ ترك الدنيا وشهوات النفس وقهرها وبغض الرياسة

٥ ـ الصبر على البلاء والاستسلام له

٦ ـ الوفاء والإخلاص واجتناب الجفاء

•واشترط فى المريد عند قبوله فى المدرسة أن يكون:

١ ـ ترك الماديات وحب الدنيا

٢ ـ الصبر ولا ييأس من رحمة الله

٣ ـ كتمان السر ولا يشكو إلى مخلوق مثله

٤ ـ أن يهرب من الناس إلى الله عز وجل

٥ ـ أن يعمل لله تعالى ولا يرى أنه يعمل شيئا

٦ ـ أن يظهر الغنى فى الفقر

٧ ـ أن يلتزم المريد جانب شيخه

ويشترط فى الشيخ مايلى:

١ ـ أن يلزم الكتاب والسنة ويبتعد عن البدع

٢ ـ أن يكون مع مريده كالأب مع أبنائه

٣ ـ أن يتحمل مسئولية كبرى فى تعليم المريدين، ومسئوليته ليست فى الدنيا فقط بل تتعدى للآخرة

ويشترط فى الإمام ما يلى:

١ ـ أن يدعو إلى الحب والخير والمؤاخاة

٢ ـ أن يكون مخلصا مبتعدا عن الغرور والرياء

٣ ـ أن يكون قلبه محتويا على الخوف، وعقله على الذكر، وروحه على الشكر، ولسانه على الصمت، ووجهه على العبادة

٤ ـ أن يترك الدنيا وخواطرها

٥ ـ أن يخالف النفس ويجاهدها بالصبر والاستقامة والتسليم

٦ ـ أن يخدم بأدب ويصدق فى كلامه

٧ ـ أن يكون حديثه موافقا للشرع

٨ ـ لا يكون مثل العبد السوء يؤدى الخدمة وينتظر الجزاء

٩ ـ أن يبتعد عن الغفلة ويدخل إلى اليقظة

١٠ ـ أن يقطع نفسه الى الله وأن رزقه مضمون

ويشترط فى الخليفة مايلى:

١ ـ أن يغض نظره عن أعراض الناس

٢ ـ أن يمسك لسانه عن الخوض فى سيرة الناس

٣ ـ لا يحاسب الناس بمظاهرهم وإنما بميزان المؤمنين

٤ ـ لا يظن فى أحد السوء

٥ ـ لا ينظر إلى عيوب الآخرين

٦ ـ لا يستصغر أحدا ولا يسخر من قول أحد، ولا يبخس حقوق الناس

٧ ـ إذا سئل لا يستعجل جوابه، ولا يدلى به إلا بعد تأمل وتفكر عميق

وقد اهتمت المدرسة الرفاعية بنظافة مريديها وحسن مظهرهم والخشوع لله، وثبتت فى روحهم الاعتزاز بالنفس وعدم الخضوع إلا لله سبحانه وتعالى، ولا يؤخذ علمهم الا من الكتاب السنة، ويوضع ذلك قول الإمام الرفاعى وهو ينصح مريديه بقوله: «لا تتواضع للأغنياء ولابناء الدنيا، ولا تنهض لهم ولا تقرب منهم وأن دعوك. إن أبناء الدينا إذا أكرمتهم أهانوك وأن أحببتهم أبغضوك».

وحين وفاة الإمام الرفاعى كان تعداد مدرسته قد بلغ ١٠٠,٠٠٠ مريد ومكتبته التى تركها لنا تحتوى على العديد من كتب الفقة، ومن أشهر كتبه كتاب النهجية وشرح البنية فى الفقة، وكتابه الطريق إلى الله، وكتابه المجالس الأحمدية، والكثير من الأشعار التى بلغت فوق عشرات الألوف وما يقرب عن ٦٣٢ حزبا ووردا ودعاءً وقد وصلنا كل هذا عن طريق تلاميذه.

المدرسة البدوية:

مؤسسها السيد أحمد البدوى فى مدينة طنطا. فقد ولد أحمد البدوى فى مدينة فاس عام ٥٩٦هـ من أسرة عربية يرجع نسبها إلى الإمام على بن أبى طالب، وقد هاجرت أسرته على أثر الاضطهاد العلوى فى الشرق.

حفظ القرآن فى سن السابعة، وبدأ فى دراسة الفقة والتفسير حينما كان يتردد على مجالس العلم فحفظ كل ما يقال. وقد رحلت الأسرة من المغرب إلى مكة ومرورا بمصر ويقال إن الأسرة استقرت بمصر عامين، وقد رحلوا إلى مكة وتعلم البدوى الفقة على يد الشافعية بينما كان تعلمه فى المغرب على المالكية، وتردد ما بين مدارس مكة والمدينة، وكان إصراره على أن يكون متعلما لا معلما، واختلف عن بقية الصوفية فقد تعلم الفروسية وفنونها، وعكف على العبادة وعزف عن الزواج، وبدأ فى الاعتزال عن الناس، وخلال رحلته العلمية فقد والده ـ فى عام ٦٢٧ هـ وأخيه ٦٣١ هـ وكان لهذا أثر كبير فى حياته العلمية فازداد تعبدا وتلثما واعتكافا، وكف عن الحديث بتاتا، ولا يتكلم إلا إشارة واعتزل

عن الناس فى مغارة فى جبل أبى قيس فى مكة يتعبد فيه.

بدأ رحلته فى الفكر والتأمل فى الأمة الإسلامية وما وصلت اليه ومراجعة ما وصل اليه من علوم ومعرفة وزيادة التقرب الى الله. ثم بدأ رحلته العلمية فى التزود من العلوم الرفاعية والجيلانية، ثم رحل إلى العراق، وقد لاقى فى رحلته المصاعب والمتاعب فزار قبر الحسين ثم منصور الحلاج والشيخ عبد القادر الجيلانى، ثم كان يدرس ويحضر حلقات العلم فى بغداد، ويتعرف على أفكار علمائها. فلقد كانت رحلته عبادة وعمل وتجميع للفكر واتصال روحى بالمتصوفين، وقد نظم مدرسته ووضع لها منهجا دراسيا بعد أن استقر فى طنطا، ويدور المنهج حول هذه النقاط التى طبقها على مريده ومن أهمها:

١ ـ أن يكون عارفا بالله مراعيا لأوامره

٢ ـ أن يتمسك بسنة النبى صلى الله عليه وسلم وكتاب الله

٣ ـ أن يكون دائم الطهارة وراضيا عن الله

٤ ـ أن يترك ما فى أيدى الناس ويتحمل أذاهم

٥ ـ أن يكون متواضعا للناس

٦ ـ أن يكون عالما بأن الشيطان عدوه كما أخبره الله عز وجل

ويقول الله عز وجل «أن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا»[١] وفى الأخلاقيات دار منهجها حول:

١ ـ عدم حب الدنيا لأن حبها يفسد العمل الصالح

٢ ـ التقوى

٣ ـ الشفقة على اليتيم

٤ ـ الإكثار من الذكر والصلاة فى الليل

٥ ـ البعد عن النميمية والأذية للآخرين وعدم ظلم الناس

٦ ـ صلة الأصدقاء والإخوة والأقارب

٧ ـ الإحسان إلى من أساء اليك

٨ ـ التصوف لدى المدرس البدوية أخلاق. حيث قال البدوى «من زاد عليك خلقا زاد

(١) فاطر: ٦

عليك تصوفا»

٩ ـ الصبر أن ترضى بحكم الله ونسلم لأمره وتفرح بالمصيبة كفرحك بالنعمة

١٠ ـ الزهد بمخالفة النفس وترك الشهوات

١١ ـ التوبة ندم على الذنب

أما اسلوبها التعليمي فقد استفادت من أسلوب المدرسة الرفاعية وأئمة التصوف، وأهم ما نقل عن الرفاعية في التدريس أن حلقات الدرس تتم على السطح حتى أطلق على بعض اتباع البدوى أسم «السطوحية».

أما الجانب العلمي في التربية: تقوم المدرسة بتدريب تلاميذها تدريبا عسكريا وترسلهم إلى ساحات القتال حيث انتصرت مصر لأول مرة في حروبها مع الصليبيين إذ كان المعروف أن الجيوش المقاتلة من المماليك، وقد أظهر تلاميذ المدرسة بطولات ويشهد لها في ذلك الوقت حيث كانوا يأسرون الصليبيين في حروبهم مع مصر.

والكتب الدراسية التي تركها لنا صاحب المدرسة البدوية هي مجموعة من الأدعية والصلوات، وخضعت للتلاميذ، وقد تم نشرها تحت عنوان «فتح الرحمن» وكذلك مجموعة من الوصايا والعظات موجه إلى أحد تلاميذه. أما الكتاب فهو «الاخبار في حل الألفاظ في غاية الاختصار» وهو كتاب يحتوى على شروح طويلة في الفقة والمعاملات والاحوال الشخصية على مذهب الإمام الشافعي.

المدرسة القنائية:

أنشأها عبد الرحيم القنائي بمحافظة قنا. ولد عبد الرحيم في قرية ترغاوى من مقاطعة سبتا في المغرب الأقصى عام ٥٢١هـ. تعلم القرآن الكريم وحفظ الأحاديث وتلقى العلم في المسجد الكبير، وحضر حلقات الدرس على كبار العلماء. وكان معلما وواعظا، وقد جمع بين ثقافة المغرب والشرق، وقد غادر موطنه الأصلي إلى الحجاز ووصل إلى مكة فأدى فريضة الحج، وظل يتنقل من مكة والمدينة متاجرا ليكتسب قوته، وعكف على الدراسة والعلم على أيدى علماء مكة والمدينة، ووصل عبد الرحيم إلى قوص إحدى مدن قنا حيث التقى ببعض الطلاب، وظل يلقى بعض محاضراته عليهم، ثم رحل بعد ذلك إلى

مدينة إسنا فاستقر بها يعمل تاجرا بهـا، ويقوم بالتدريس فى مساجدها حتى صدر قرار من والى مصر بتعيينه شيخا لقنا.

ونظريته فى تعليم تلاميذه تتخلص فيما يلى:

١ ـ الدين علم وعمل وأخلاق. فمن ترك واحدة منها ضل الطريق.

٢ ـ العلم مصدر أحاسيس تربطه أرتباطا وثيقا بالعمل والإرادة.

٣ ـ العلم أصل العقائد الدينية، وهو العلم الواقعى والعلم الطبيعى يرتبط ارتباطاً وثيقا بالدين. فيبحث العلماء فى الكون والنفس فيصل إلى الخالق ويظل سائرا فى طريقه إلى الله حتى يبلغ المرتبة العليا من هذا العلم.

٤ ـ العمل: تدعو المدرسة قبل الانخراط فيها أن يكون المريد له عمل يكسب منه قوته. فالإنسان يجب أن يستغل طاقاته التى زوده الخالق بها.

٥ ـ اهتمت المدرسة بدراسة الفروق بين ماهية الروح والنفس وضرورة الفصل بينهما.

(أ) فالروح فى نظر المدرسة القنائية هى الجوهر الأعلى من النفس لاتصالها بالله سبحانه وتعالى. فهو الذى يعرف ماهيتها وتكوينها فهى سر من أسرار رب العالمين. أما النفس فهى فى الجسد تستمد كيان حياتها من وجود الروح بينها وبين الجسد، ولذلك فالروح باقية برجوعها إلى الله، والنفس هى التى تذوب فى الجسد كما قال الله تعالى «وتزهق أنفسهم»(١).

(ب) الروح مؤمنة ولا تطلب إلا الخير، والنفس مبعث الأهواء والشر والنزعات والوساوس.

وقد قسمتها المدرسة إلى عدة أقسام:

١ ـ النفس الراضية هى المتصلة بالروح

٢ ـ النفس المرضية هى مقام الاستنارة

٣ ـ النفس اللوامة هى فى مقام الاطلاع

٤ ـ النفس الأمارة هى فى مقام الظلم والظلمات

٦ ـ علم الأخلاق لدى المدرسة القنائية. فقد أقامت التصوف على أنه ركن من أركان

---

(١) التوبة: ٥٥

الأخلاق واهتمت بذلك بالأخلاق حيث قال عبد الرحيم القنانى: «نبع من مزيج من العلم الظاهر والباطن والعمل المنتج والمثمر تطويه الروح فترسله إلى النفس الأمارة فتغسلها من أدرانها، وبهذا يحصل النقل إلى الإدراك الصحيح والمعرفة فيخلص البدن فيتجه الكل الى الله» وهذه تسمى الأخلاق الزاكية، وهى أعلى درجات الكمال، وبها اتصف النبى صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى «وانك لعلى خلق عظيم»[1].

ولقد قامت المدرسة القنائية بدورها الكبير فى المدن المجاورة. فعملت على نشر الأخلاق بين المسلمين وأقامت حياة روحية تختلف اختلافا كبير عن بقية المدارس الأخرى.

المدرسة الشاذلية:

وقد أقام صرحها أبو الحسن على الحسن الشاذلى الحسينى ابن عبد الله، ولد بقرية عمارة فى بلاد المغرب سنة ٩٥٣هـ ولما شب أخذ يدرس العلوم الدينية، وقد تتلمذ على كبار الفقهاء وأئمة الصوفية، وقام بجولة علمية الى العراق فأخذ يتردد على اساتذته ودرس الفقة ثم عاد بعد جولته العلمية من العراق إلى بلاده مرة أخرى، وكان استاذه ابن بشبش فى المغرب، وكان متمسكا بالكتاب والسنة، وقد رسم ابن بشبش حياة أبو الحسن الشاذلى العلمية ثم رحل بعد ذلك الى تونس، وكانت سياحته عبادة وفى سبيل الله، ثم ذهب الى جبل زعوان للتفرغ للعبادة والاستجمام الروحى والعلاج النفسى حتى يرقى إلى مدارج السالكين ـ ثم اتجه إلى تونس مرة أخرى، ثم رحل إلى مصر فوصل الإسكندرية حيث أقام بها فتزوج وأنجب أولاده: الشيخ شهاب الدين أحمد وأبو الحسن على وأبو عبد الله محمد وبناته زينب. وبعد ذلك أقام مدرسته حيث قال البوصيرى فيه بانه «بحر العلم».

أما الشاعر فقال فيه:

لقد كان بحرا فى الشرائع راسخا

ولا سيما على الفرائض والسنن

ومن نهل التوحيد عب وارتوى

(١) القلم: ٤

فلله كم روى قلوبا بها محسن

وحاز علوما ليس تخص لكاتب

وهل تخص الكتاب ما حاز من فنن

ومنهج المدرسة يدور حول هذه النقاط:

١ ـ الإخلاص: وينقسم إلى قسمين. أخلاق الصادقين، وأخلاص الصديقين

٢ ـ التوبة يبدأ بها السالك إلى الله

٣ ـ النية: ولابد لكل عمل ياتيه الإنسان من النية والإخلاص فيها

٤ ـ الطريق إلى الله: أن يتبع السنة والكتاب

(أ) الذكر وبساطته العمل الصالح وثمرته النور

(ب) التفكير وبساطته الصبر وثمرته العلم

(جـ) الفقر وبساطته الشكر وثمرته المزيد فيه

(د) الحب وبساطته بغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصل بالمحبوب (الله).

٥ ـ الخلوة: أن يخلو الإنسان إلى ربه ولو فى فترة قصيرة

٦ ـ الجهاد: جهاد العدو

٧ ـ النفس: وقد اهتمت المدرسة بتعليم النفس، وركزت ها فى:

(أ) النفس مركز الشهوة فى المخالفات

(ب) النفس مركز الطاعات

(جـ) النفس مركز فى الميل الى الراحات

(د) النفس مركز العجز عن أداء المفروضات

٨ ـ الدنيا: نبذ الدنيا

٩ ـ العبودية: العبودية لله

١٠ ـ الطاعات: المحافظة على الطاعات

١١ ـ علم اليقين: معرفة الله معرفة يقينية

١٢ ـ الذكر: ذكر الله، وللذكر صيغ كثيرة. فذكر بالقلب واللسان

١٣ ـ الورع: العمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الكامنة

١٤ ـ الزهد: فراغ القلب مما سوى الله

١٥ ـ التوكل: صرف القلب عن كل شئ إلا الله

١٦ ـ الرضا: الرضا عن الله

١٧ ـ المحبة: حب الله لا يشغلك عن حب غيره

وبهذه النقاط الهامة قد أوضحت لنا المدرسة الشاذلية منهجها الدراسى، وعلى أساسه تخرج العديد من علماء الشاذلية ومريدوهم.

وقد ترك لنا الشاذلى العديد من الكتب والكثير من الأحزاب والأوراد، وتعد مدرسته من أكبر المدارس الصوفية فى مصر. بل هى المدرسة الأم فى العالم الإسلامى، وقد لعبت دورا هاما فى حياة المصريين الروحية، وما زال نورها يصل إلى آفاق العالم الإسلامى وعنها نقلت المدارس الصوفية الأخرى كل المبادئ والقيم والمناهج الصوفية.

الفصل الخامس
مدارس الصوفية فى المغرب والسودان

ساهمت مدارس التصوف الإسلامى فى المغرب بنصيب بالغ الأهمية فى نشر الإسلام فى داخل القارة الأفريقية كلها، ولم يقتصر دور هذه المدارس على الدعوة الإسلامية فى حد ذاتها. بل وضعت فى رقبتها مسئولية كبرى تحملتها فى تجهيز الجيوش الإسلامية لمقاتلة الغزاة والوقوف فى وجه الأفكار الوافدة إلى المنطقة. وقد ضحى الكثير من علماء وفقهاء ومريدى الصوفية بأنفسهم فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين.

سجل التاريخ الإسلامى لهذه المدارس فى المغرب العربى صفحات من نور عن كفاحها المرير والطويل ضد موجات الغزو العابثة المدمرة لكافة جوانب الحياة. ورغم ضربات المستعمر القوية، والتى أدت الى سقوط الشهداء من الصوفية فى ساحات المعارك فإن المدارس الصوفية لم تستسلم ولم تغلق أبوابها. بل نشطت نشاطا كبيرا وواصلت جهودها فى سبيل النصر الذى نالته ومن أهم تلك المدارس.

المدرسة القيروانية:

مقرها مدينة القيروان التى أسست فى بداية الفتح الإسلامى للمغرب العربى فى عهد القائد العربى عقبة بن نافع. وفى أثناء عمليات الفتح قام العلماء من الصحابة والتابعين بفتح أول مدرسة لهم فى المدينة الجديدة. وقد درس فيها علوم الدين كالفقة والشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية والتفسير والأحاديث وقراءة القرآن على أسس علمية سليمة مع علوم التصوف من زهد وصبر وورع وحب ـ وخوف وخشية من الخالق.. إلى آخره وقد ذاع صيت هذه المدرسة حتى غطى الآفاق الإسلامية وجذب إليها الكثير من رواد الفكر الصوفى لينهلوا من هذا النبع الصافى. ولعب الأدارسة والأغالبة دورا كبيرا فى النهوض بهذه المدرسة فى عهودهم

المدرسة المرابطية:

أول مدرسة قامت على مبدأين. مبدأ دينى وعملى. المبدأ الدينى يقوم على دراسة

العلوم الصوفية والعلوم الدينية التى تشتمل على الفقة والحديث والتفسير. وقد اتخذت من المدرسة القيروانية نمطا متشابها فى منهجها الدراسى، وأما العملى فى هذه المدرسة فهو العمل على تكوين دولة تقوم بإعداد المكان للجنود وهو ما يطلق عليه الرباط. فهو مكان أعد للعبادة، ومكان أعد ليكون مقرا للجنود الذين يرابطون فى هذه المنطقة ويحافظون على حدودها. وأخيرا أنشأت الدولة العديد من المساجد التى تقام فيها حلقات الدرس. ثم قامت هذه المرابط المختلفة فى إقامة الدولة التى أطلق عليها دولة المرابطين.

ونتيجة لهذا الجانب العملى تحملت المدرسة فهو الكفاح ضد الغزاة القادمين من بلاط الأندلس، ومؤسس هذه المدرسة هو «عبد الله ياسين» جمع بين التصوف والسياسة وقد نال تعليمه فى مدرسة القيروان وأظهر تفوقا فى العلوم الدينية، وساهم فى إقامة دولة المرابطين.

المدرسة البشيشية:

مؤسس هذه المدرسة العالم الفاضل الجليل القدر «عبد السلام بن بشيش» فى المغرب وكان متحمسا للدين وعاملا على نشره، وسار على منهج الشريعة الإسلامية لا ينحرف عنها. كما كان زاهدا فى الدينا شجاعا. ولقد سلك الطريق إلى الله منذ كان عمره لا يتجاوز السبع سنوات. واتخذ من السياحة رحلة علمية ليحصل على درجته العلمية، واعتبر السفر والتنقل عبادة. إذ إن الإنسان فى وطنه تشغله مشاغل كثيرة، ولابد له من خلوة مع الله لتصفو نفسه، وقد تعلم السياحة من ذى النون المصرى فلقد كانت رحلاته الدينية تقوم على شواطئ الانهار أو على مشارف الصحراء. وكانت الدولة الإسلامية توفر للسائحين من العلماء كل ما يلزمهم من مآوى ومآكل ومشرب حتى يتفرغوا للحياة العلمية.

وقد رأى ابن بشيش أن التصوف ليس عملا عمليا ولا بحثا نظريا ولا يتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية. بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية ما هو إلا حافز للتأمل والقراءة لا يؤدى إلى التصوف، وإنما يجب أن يكون هناك معلم أو شيخ يسترشد به المريد

فى طريقة الى الله، وكان أستاذ ابن بشيش «عبد الرحمن بن الحسين المدنى الشريف».

ويشتمل المنهج الدراسى فى المدرسة على:

١ ـ الشريعة الإسلامية تلزم الدارس بالعمل بها

٢ ـ قراءة القرآن كما كان الصحابة والتابعون يقرؤونه

٣ ـ التفسير للقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف حفظا وفهما

٤ ـ الصلاة والتقرب إلى الله بالنوافل

٥ ـ الورع: حسن النية والإخلاص فى العمل ومحبة العلم

٦ ـ البعد عن الشهوات والنساء وحب الجاه. حيث قال «من طلب الرياسة وكله الله لها».

٧ ـ القناعة فى كل الأمور بما قسم الله تعالى، فى إطار الشرع من الرزق الحلال.

٨ ـ الزهد فى الدنيا أصل فى الأعمال

٩ ـ التوكل على الله فى الأحوال كلها

١٠ ـ الله: والحديث عن الله سبحانه وتعالى كثير متعدد الجوانب، والحديث من الله سبحانه وتعالى لدى الصوفية منحة القلوب إلى محبته، وللصوفية فى ذلك كثير من النفائس. فحب الله سبحانه وتعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم هو مركز كل شئ فى مدرس ابن بشيش.

١١ ـ الطهارة: وليست طهارة الجسم وإنما طهارة النفس من دنس الدنيا. حيث يقول ابن بشيش فى هذا الصدد.

حيث الزم الطهارة من الشرك. كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، وكلما مالت الى الشهوة أصلحت بالتوبة النصوحة التى لا عودة مرة أخير الى دنس الدنيا.

١٢ ـ العبادة فى المدرسة البشبشية: أداء الفرائض واجتناب المحارم والرضا بالقضاء، والتفكر فى أمر الله والتفقه فى دين الله والزهد فى الدنيا.

وعلى منهج هذه المدرسة قامت المدرسة الشاذلية. لأن الشاذلى أحد تلاميذ ابن بشيش.

المدرسة الجيلانية:

لقد قامت هذه المدرسة بدور هام في العالم الإسلامى بصفة عامة وفى المغرب بصفة خاصة. فقد ساهمت فى الجهاد فى سبيل الله حينما جاءت التيارات المدمرة للحياة الروحية فى المغرب.

لقد أسس هذه المدرسة أحد شيوخ الصوفية الكبار هو عبد القادر الجيلانى، وهو أحد الأربعة العظام فى التصوف «الرفاعى ـ الجيلانى ـ البدوى ـ الدسوقى».

وجذور المدرسة امتدت إلى العراق واليمن والهند وتركيا ومصر، وقد قامت المدرسة بدور كبير وبالغ الأهمية فى نشر الدعوة الإسلامية فى أفريقيا.

ومنهجها الدراسى يقسم الدارسين الى فئتين هما:

١ ـ الفئة الأولى: أبناء المسلمين يتعلمون القراءة والكتابة

٢ ـ الفئة الثانية: كبار السن يتعلمون علوم الصوفية مع علوم الفقة وعلوم الحديث والتفسير.

وقد ساهمت المدرسة فى إقامة المراكز الإسلامية التى قامت بدورها فى نشر الإسلام فى أفريقيا. ووقفت المدرسة بدورها فى وجه المد الأوربى الزاحف إلى المغرب العربى.

المدرسة المختارية:

مقرها مدينة فاس. حيث استقر بها كبار الصوفية، وقام بتأسيس هذه المدرسة أحد الصوفية هو «أحمد بن محمد بن المختار» الذى ساهم فى نشر الإسلام فى غرب أفريقيا ووسطها. كما استجلب العديد من الطلاب الأفارقة إليها.

قامت هذه المدرسة على منهج شامل لحياة التصوف بمعناه الحديث، وأهم العلوم الصوفية التى درست: «الصبر ـ الخوف ـ الحب ـ الورع ـ التقوى.

كما درست العلوم الدينية التى تشمل: «الفقة ـ التفسير ـ الحديث ـ الشريعة الإسلامية».

وقد عملت المدرسة على تخريج الكثير من أبناء أفريقيا وإرسالهم الى معاهدها فى موطنهم ليقوم كل منهم بتعليم أبناء وطنه، وقد دربتهم كدعاة فى الإسلام فى تلك المناطق.

لكن بعض هذه المعاهد استخدمت السيف فى نشر الإسلام، وهذا يتنافى مع التعاليم الإسلامية التى تحض على الإقناع بالحجة، ويرجع ذلك إلى سوء فهم بعض المعلمين المبعوثين من الافارقة للمبادئ الإسلامية وقوة الحجة الروحية فى الإقناع.

المدرسة السنوسية:

مقرها ليبيا وقد ظهرت على شكل زوايا تقام فى الصحراء. هذه الزوايا بها مسجد ومدرسة وقطعة من الأرض للزراعة. حتى يصير اكتفاء ذاتى للمنطقة التى بها زاوية. ولقد لعبت تلك الزوايا دورا هما ضد الاستعمار الأوربى.

مؤسس هذه المدرسة «السيد محمد بن على السنوسى» الذى ينتسب إلى ادريس مؤسس دولة الأدارسة فى بلاد المغرب.

لقد هام بدراسة العلوم الدينية فى جامعة القرويين فى فاس وهى أقدم الجامعات فى شمال أفريقيا.

ويؤرخ له مؤرخو الصوفية بأنه كان محبا للعلم. حريصا كل الحرص على طلبه. وقام منهجه العلمى على السياحة فطاف معظم البلاد الإسلامية والتقى بمشاهير علماء المسلمين وقتئذ، وزار المدرسة الشاذلية والناصرية.

وقد قام بإنشاء أول مدرسة فى جبل أبى قبيس، وهذا أول عمل تعليمى له دور بالغ الأهمية فى نشر منهجه الجديد[1] ثم نقلت المدرسة بعد ذلك الى ليبيا.

ومنهج هذه المدرسة فى الزوايا السنوسية له جانبان. أولهما قائم على أساس دينى هو تدريس علوم الفقة والشريعة والتفسير والحديث. ثم قامت المدرسة بتطهير العقيدة الإسلامية مما ألصق بها من أوهام وشوائب. كما درست علوم التصوف (التوبة ـ المحبة ـ الصبر ـ الورع ـ التقوى).

وكان للكتاب شأن كبير فى الدراسة فقررت المدرسة السنوسية الكتب التالية:

١ ـ بغية القاصد وخلاصه المقاصد

٢ ـ إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن

---

(١) دكتور محمد فؤاد: السنوسى الكبير ص٧٨

٣ ـ السلسبيل المعين فى طريق الأربعين
٤ ـ الدور السنية فى أخبار السلالة الأدريسية
٥ ـ المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الحقائق.

والجانب الثانى: تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة والعمل على تربيتهم تربية إسلامية تشمل الشجاعة وفنون القتال، وتحفيظ بعض الآيات القرآنية وتنشئتهم على نمط أخلاقى إسلامى. والواضح من هذا المنهج الفريد من نوعه وطبيعة الحياة فى ليبيا أن المدرسة السنوسية ربطت الجانب الدينى بالجانب التربوى ربطا وثيقا وأنها ساهمت فى تخريج العديد من علماء المسلمين الذين ساهموا بدرجة كبيرة فى نشر الإسلام فى غرب أفريقيا.

واختيرت الزوايا فى أماكن بعيدة عن الأنظار لتكون فى أمان ضد أى اعتداء من جانب المستعمر الأوربى. وفى كل زاوية يقوم شيخ الزاوية بتعليم الصغار القراءة والكتابة وشيوخ الصوفية السنوسية يقومون بتدريس علومهم وتدريبهم العملى لمريدهم.

لقد قامت الزوايا بدور هام فى تاريخ ليبيا ضد الاستعمار الإيطالى حيث إنها وقفت فى وجهه ومنعته من التوسع السياسى والاقتصداى فى داخل أفريقيا.

ولها دور آخر فى حرب الاستقلال ضد المستعمر الأوروبى منذ احتلال أراضى ليبيا فى عام ١٩١١م وقد أعدت جميع الزوايا بمدارسها أبناء الشعب الليبى لمقاومة هذا العدو الزاحف إليها عن طريق البحر لاحتلال أرضها وإخضاعها تحت نفوذه والاستيلاء على خيراتها والقضاء على مقاومتها.

تركت الدولة العثمانية الشعب الليبى وجها لوجه أمام الاستعمار الإيطالى بدون سلاح، ولكن الزوايا تمكنت من إيقاف الزحف ولو بعض الشئ. وقد أرسلت المنشورات التى اشعلت نار المقاومة فى نفوس شيوخ القبائل فجهزوا شبابها بالأسلحة والمؤن ودارت الحرب بين الطرفين وفى النهاية وقع قائد المقاومة الأمير عمر المختار فى أيدى أعدائه وفقدت المقاومة ركنا كبيرا كانت تعتمد عليه.

ورأى الإيطاليون أن تنفيذ حكم الإعدام فى الزعيم الليبى عمر المختار اخماد للمقاومة

والقضاء على الحياة الروحية واستكانة للزوايا والرضى بالاستعمار الإيطالى بديلا عن الدولة العثمانية.

لقد أخطات السياسة الايطالية فى حساباتها. فالشعب والزوايا لم تستكن بل ظلت فى حربها حتى قامت الحرب العالمية الأولى، وبعدها نفضت تركيا يدها من ليبيا وتركتها وحيدة تعانى الاستعمار الإيطالى. لكن مقاومتها ظلت ساهرة يقظة توالى ضرباتها بقوة فى وجهه.

اندلعت الحرب العالمية الثانية وانضمت إيطاليا مع أعداء انجلترا. ونتيجة لهذا هزمت إيطاليا فى الحرب فاشتدت المقاومة فى ليبيا، وتكونت الفصائل العسكرية التى قاتلت حتى نالت ليبيا استقلالها وانحسرت الموجة الإيطالية إلى الأبد.

المدرسة السودانية:

أطلق المصريون على بلاد الجنوب اسم السودان، ومعناها أرض السود أو أرض كوش[1].

ويوضع لنا المؤرخون أن هناك صلات قامت بين طرفى النيل فى السودان ومصر، والدليل على صحة ذلك أن ذا النون المصرى قد استقر فى مصر وأصله سودانى. كما أن هناك صلات أيضا بين المنطقة العربية وبين السودان والأحباش، وأن ذلك قبل الفتح الإسلامى، والدليل على ذلك وجود بلال بن رباح مؤذن الرسول وسعيد بن جبير فى مكة.

وأن الحدود السودانية لم تعرف إلا فى العصر الحديث. إذ إن هذه الحدود لا أثر لها فى عهد البطالمة والرومان والعهد المملوكى، وحتى فى عصر محمد على ظل السودان تحت راية واحدة ووحدة متماسكة تعرف باسم وحدة وادى النيل[2].

وفى بداية الدولة الإسلامية نشأت عدة صلات بين الدولة السودانية. هذه الصلات ثقافية واجتماعية. وأهم عامل له أثره فى الناحية الثقافية هو الموقع الجغرافى. فهو يقع جنوب مصر ومجاورا للمغرب ولهذا كان السودان فى عهد الدولة الإسلامية وفى عصر

(١) دكتور عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان ص١٠٣

(٢) دكتور محمد عوض: السودان ووادى النيل ص٢١

من عصورها مهبطا للهجرات الكثيرة من الدعاة والمتصوفين جاوءا إليها نتيجة الظروف السياسية الصعبة التى اضطرتهم إلى الفرار بحياتهم ودينهم. معظم هؤلاء المهاجرين من مصر والعراق والشام وشمال أفريقيا.

استقبلت تلك الأرض الخصبة هذه الأفواج الضخمة النازحة إليها فنمت فيها بذرة التصوف وأفكارها. فالأرض بكر، وأى بذرة تنمو فيها نموا سريعا.

تدفقت الأفكار الصوفية إليها من المدارس المختلفة فى مصر والمغرب والعراق والشام وغيرها من الدول الإسلامية المجاورة نتيجة الهجرات التى وفدت إليها.

والمدرسة التى لها تأثير كبير فى الأفكار الصوفية فى السودان هى المدرسة الشاذلية التى تعد امتدادا للمدرسة الغزالية «الإمام الغزالى» ولم تكن السودان وحدها التى وصلتها الأفكار الشاذلية وإنما امتدت إلى مراكش فى القرن الخامس عشر.

والمدرسة الأخرى التى لها تأثير فى السودان هى المدرسة السنوسية التى امتدت دعوتها عبر الحدود السودانية إلى الصومال.

أما العامل الآخر الذى له تأثير فى الحياة الصوفية بالسودان فهو البعثات الطلابية إلى جامعة الأزهر. فقد جاء المبعوثون ومعهم عصارة الفكر الإسلامى من علوم التوحيد وعلوم الشريعة وعلوم الصوفية، وقد نزل على أرض السودان علماء التصوف من ذوى الثقافة المغربية والحجازية والعراقية، وكان السودان أكثر البلاد الإسلامية استجابة للحياة الروحية لسلامة فطرتها وصدق طبيعتها، وأن أهله فى غنى عن الصراع ويرغبون فى الانطلاق.

والفكر الصوفى بدأ فى السودان ساذجا فى مدح البطولة الشخصية للمعلم الصوفى، ثم تأثر بأنتقال علماء التصوف مثل عبد القادر الجيلانى مؤسس المدرسة الجيلانية، وإلى هذه المدرسة ترجع كل الاتجاهات الوافدة من العراق والحجاز. ثم انتقل الفكر الصوفى السودانى إلى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى المرحلة الثانية بعد مدح البطولة للمعلم الصوفى.

إن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تجردهم من كل ما هو دنيوى سواء كان خيرا أو شرا. لأنها صلاة حب الرسول عليه الصلاة والسلام لذاته. فهى محبة خالصة

لله، وهذه المحبة تتصل بالمدرسة العدوية التى وضعت بذور الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى.

وللمدرسة السودانية منهج له طابعه الخاص ويتخلص فيما يلى:

١ ـ الزهد: يكون الزهد فى متاع الحياة. ثم تطور إلى تصوف له علمه الباطنى.

٢ ـ الجوع: وضحت المدرسة الصوفية أركان الجوع «بالعزلة ـ والسهر ـ وقلة الكلام» ويروى فى ذلك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول «الصمت ويورث معرفة الله ـ والعزلة تورث معرفة الدنيا ـ والجوع يورث معرفة الشيطان، والسهر يورث معرفة النفس» ولذا لم يحبذ الجوع فى مدرستها.

٣ ـ التوبة: ترى المدرسة الصوفية السودانية أن التوبة لله سبحانه وتعالى التى تلزم الفرد المسلم بطاعة الله والخوف منه والصبر على مراد الله والزهد فيما سوى الله، والتوبة لها معنى خاص هو أنها تؤدى إلى ثبوت الوحدانية وافتقار المذنب لله والندم خوفا من الوقوع فى عقوبه الله.

وعندها أن الذنب نوعان: أولهما الظاهر الذى يشتمل على الغيبة والنميمة ـ الكذب ـ الزنا ـ ترك الصلاة ـ الربا ـ والثانى هو الذنب الباطنى ويشمل: الكبر ـ العجب ـ الحسد ـ الهم ـ الحقد ـ البخل ـ الطمع.

٤ ـ أخلاق: وفى تراث المدرسة الصوفية نرى الأخلاق فيها يغلب عليها «الأخلاق الشرعية» التى يتأدب فيها الصوفى بأدب فى الاقتداء واتباع الاستقامة ـ وعدم الانحراف. فالمدرسة السودانية هى أحدى المدارس الصوفية الكبرى التى ظهرت فى العالم الإسلامى، وكان لها دور كبير فى الحياة الروحية، ومازالت حتى الآن مدارس الصوفية بالسودان تؤدى دورها فى التربية الإسلامية[١].

---

(١) انظر «رسالة الماجستير فى الصوفية وأثرها فى الدعوة إلى الله» المقدمة من الأستاذ محمد يوسف حمودة ـ جامعة الأزهر.

الخاتمة

وفى النهاية. هذا قليل من كثير للصوفية ومناهجها تحتاج إلى تحليل وإرجاع إلى أصولها وذلك يثقل على القـارئ، ولذا آثرت أن أنقل إليه هذه القلييل لعله يتعرف على الصوفية وأهلها.

وفى النهاية أسأل أن ينتفع بهذا الجهد جميع المسلمين

إنه نعم المولى ونعم النصير

المراجع العربية

١	القـــــــرآن الكـريـم:	
٢	ابـن قـــيم الجـــوزيـة:	زاد المعاد ـ القاهرة ـ طبعة ثانية ـ مكتبة الأزهر «بدون» ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ مكتبة عاطف «بدون».
٣	ابـــن خـــلـــدون:	المقدمة ـ تحقيق دكتور على عبد الواحد وافى ـ أربعة اجزاء ـ الطبعة الأولى ٦٠ ـ ١٩٦٣م نشر لجنة البيان العربى ـ القاهرة.
٤	ابـن عـطـاء الـسـكـنـدرى:	التنوير فى إسقاط التدبير ـ تاج العروس
٥	ابو نعـيم الاصـفـهـانى:	حلية الأولياء من ١ الى ١٠
٦	ابو حـامـد الـغـزالى:	إحياء علوم الدين جزء من ١ الى ١٦ ـ المنقذ من الضلال ـ مكاشفة القلوب
٧	ابـو طـالـب المـكـى:	قوت القلوب جـ١، جـ٢
٨	الحـلـبـى ابـن الـنـديـم:	الدوارى فى الذرارى: طبع القسطنطينية ١٢٩٨م ـ الفهرست طبعة مصر سنة ١٣٤٨هـ.
٩	ابـن ســيـنـا:	القانون ـ القاهرة ـ مطبعة بولاق ١٢٩٤م
١٠	ابـن مـسـكـويـة:	فى أعماق النفس: سلسلة الثقافة الاسلامية ١٣٨٠هـ.
١١	ابـن تـيـمـيـة:	أثر التصوف فى الإسلام ـ منهاج السنة أجزاء من ١ ـ ٤ ـ موافقة صريح المعقول

		بصريح المنقول.
١٢	السلمى:	حاشية على محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازى.
١٣	الطوسى:	طبقات الصوفية تحقيق الأستاذ نور الدين شريبه ١٩٥٣م
١٤	القفطى:	أخبار الحكماء بأخبار الحكماء
١٥	الشيرازى:	الأسفار الأربعة
١٦	ابن الأثير:	الكامل فى التاريخ أجزاء من ١ ـ ١٢ بولاق ١٢٧٢هـ
١٧	أحمد أمين:	ظهر الإسلام أجزاء من ١ ـ ٤ ـ دار المعارف القاهرة
١٨	إخوان الصفا:	رسائل إخوان الصفا ـ اجزاء من ١ ـ ٤ القاهرة ١٩٢٨م
١٩	الاشعرى:	أبو الحسن على بن إسماعيل: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين أجزاء ١ ـ ٢ استمبول ١٩٢٠م
٢٠	ابن حزم:	الفصل فى الملل والنحل أجزاء من ١ ـ ٥ القاهرة ١٢٤٧هـ
٢١	أبو حيان التوحيدى:	الإشارات الإلهية ـ تحقيق نشر البدوى ـ القاهرة ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول جـ٢ ١٩٥٠م
٢٢	د. أحمد إبراهيم الشريف:	دراسات فى الحضارات الإسلامية: دار الفكر العربى «بدون» ـ العالم الإسلامى فى العصر العباسى ـ طبعة ثانية ـ دار الفكر

		العربى: ١٩٧٣م
٢٣	إبراهيم بسيونى:	الأمام القشيرى: مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٢
٢٤	أحمد الشرباصى:	الغزالى والتصوف الإسلامى: دار الهلال
٢٥	أحمد فؤاد الأهوانى:	الكندى فليسوف العرب: طبعة مصر ١٩٦٤م ـ التربية الإسلامية «دراسات إسلامية» دار المعارف ١٩٧٥م
٢٦	أحمد بهجت:	الله فى العقيدة الإسلامية ـ المختار الإسلامى فى ٧٧ ـ بحار الصوفية ـ دار المعارف.
٢٧	أسماء فهمى.	مبادئ التربية الإسلامية ـ القاهرة «بدون».
٢٨	إسماعيل بن كثير:	تفسير القرآن الكريم جـ٢ ـ ١٣٦٧هـ.
٢٩	السهروردى:	كلمة الإشراق طبعة طهران ١٣١٦هـ ـ هياكل النور: تحقيق دكتور محمد على الوريان ١٩٦٠م
٣٠	السلمى:	طبقات الصوفية الخانجى ١٩٥٣م
٣١	بسهى السديسن زيان:	الغزالى ولمحات عن الحياة الفكرية الإسلامية «الكتاب العاشر من سلسلة قادة الفكر فى الغرب» مكتبة النهضة بمصر ١٩٥٨م
٣٢	جسيند عبد العزيز:	إخوان الصفا ـ الكتاب رقم ٧ من سلسلة نوابع الفكر العربى ـ طبعة سادسة ـ

		دار المعارف بمصر ١٩٧٠م
٣٣	جولد تسهير:	العقيدة والشريعة فى الإسلام ـ ترجمة محمد يوسف ـ دار الكتب الحديثة ١٣٧١هـ
٣٤	جلال الدين السيوطي:	الجامع الصغير ـ تأييد الحقيقة
٣٥	جمال الدين أبو المذاهب:	قوانين حكم الإشراق
٣٦	د. حسن إبراهيم:	تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ـ القاهرة ١٩٤٨م
٣٧	د. حسن عبد العال:	التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ دار الفكر العربى ١٩٧٧م
٣٨	الخازن:	لباب التأويل فى معانى التأويل ـ مطبعة مصر ١٣٣١هـ.
٣٩	زكي مبارك:	التصوف فى الإسلام ـ طبعة بيروت «بدون تاريخ».
٤٠	فتحية سليمان:	التربية عند الغزالى ـ دار الفكر العربى
٤١	د. فوقية حسين:	الإمام الجوينى ـ سلسلة أعلام العرب ١٩٦٥م
٤٢	د. سعيد عبد الفتاح:	المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية طبعة أولى ـ دار النهضة العربية ١٩٦٣م
٤٣	سعاد ماهر:	الأزهر وأثرة وثقافته ـ المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية ـ وزارة الأوقاف ١٩٥٨م
٤٤	سيد قطب:	العدالة الاجتماعية فى الإسلام ـ دار المعارف

		١٩٧١م ـ السلام العالمى والإسلام ـ دار المعارف ١٩٧٤م ـ فى ظلال القرآن من ١ ـ ١٨ دار المعارف ١٩٧٧م ـ مشاهد القيامة فى القرآن ـ دار المعارف ١٩٧٩م
٤٥	طه السراوي:	بغداد مدينة السلام: دار المعارف ١٩٤٥م
٤٦	عائشة عبد الرحمن:	القرآن وقضيتا الانسان ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٩٢م
٤٧	د. بنت الشاطئ:	تحقيق رسالة الغفران للمعرى دار المعارف ١٩٦٠م
٤٨	عبد الحكيم عبد الغنى قاسم:	الأيديولوجيا والتربية بين المسيحية والإسلام ـ دار الفكر العربى «القاهرة».
٤٩	د.على سامى النشار:	مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ـ دار الفكر العربية ١٩٤٢م ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام: أجزاء من ١ ـ ٤ دار المعارف
٥٠	د. عثمان أمين:	الرواقية «تاريخ وفلسفة الرواقين»
٥١	عبد الرحمن بدوى:	الآراء الطبيعية ـ دار المعارف ـ رابعة العدوية دار النهضة المصرية «بدون» ـ أفلاطون عند العرب ١٩٥٥م
٥٢	عبد الكريم الجبلى:	الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر ـ اجزاء ١ ـ ٢ طبعة ١٨٨٦ القاهرة
٥٣	عبد الوهاب عزام:	التصوف وفريد الدين العطار الحلبى ـ القاهرة

		١٩٤٣م ـ محمد اقبال سيرته ـ دار القلم ١٩٥٤م
٥٤	عباس العقاد:	الشيخ الرئيس ابن سينا ـ دار المعارف ٦٧ ـ الفلسفة القرآنية دار الإسلام «بدون» ـ الله ـ مطابع الأهرام التجارية ٧٢ ـ حقائق الاسلام وأباطيل خصومة ـ دار الإسلام ٥٧ ـ التفكير فريضة إسلامية ـ درار الهلال «بدون».
٥٥	عبد القادر الجيلاني:	القبة ـ الفتح الربانى والفيض الرحمانى ـ فتوح الغيث
٥٦	عبد المجيد النقشبندى:	الأنوار القدسية تحقق وتقديم محمد الرخاوى
٥٧	عبد الحليم محمود:	المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلى ـ دار الكتاب الحديث جـ٢ «بدون» ـ القرآن الكريم والنبى ـ دار المعارف «بدون» ـ عبد السلام بن بشيش ـ دار الشعب «بدون»
٥٨	عبد الرؤوف المأوى:	الكواكب الدرية
٥٩	عبد العزيز الدباغ:	الإبريز
٦٠	د. عبد الفتاح بركة:	الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية
٦١	عبد العزيز عبد المجيد:	التربية فى السودان
٦٢	عمر فروخ:	تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٢م
٦٣	د. عبد الغنى عبود:	الإسلام والكون ـ دار الفكر العربى ١٩٧٧م ـ

		الانســان فى الإســلام ـ دار الفكر العــربى ١٩٧٨م ـ اليــوم الآخـر ـ دار الفكر العــربى ١٩٧٨م ـ الأسرة المسلمـة ـ دار الفكر العربى ١٩٧٨م ـ فى التـربية الإسـلامـيـة دار الفكر العــربى ١٩٧٧م ـ الله والإنـسـان دار الـفكر العربى ١٩٧٧م
٦٤	عـبـد الكريم الخطيب:	الله والإنسـان ـ دار الفـكر العربى ١٩٧١م ـ الله ذاتا ومـوضـوعـا ـ دار الـفكر العـربى ١٩٧١م
٦٥	عـبد الرحـمن عـميـره:	الفلسـفـة الإسـلامـيـة بين التـقليـد والابتكار «بدون».
٦٦	مـحـمـد الصـاوى:	الموسوعة فى سماحـة الإسلام ـ سجل العرب ١٩٧٢م
٦٧	محـمـد أسعـد طنطاوى:	رسـالة المسجـد والإمـام ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤م
٦٨	محـمد إسمـاعيل إبراهيم:	القـرآن وإعجـازه العلمى ـ دار الفكر العـربى ١٩٧٧م
٦٩	محـمـد حسنين مخلوف:	حكم الإسلام فى التوسل بالانبياء والأولياء
٧٠	د. محـمـد على أبو ريان:	أصول الفلسفة الاشرافية ١٩٥٩م
٧١	د. مـحـمـد غـلاب:	هذا هو الإسلام
٧٢	د. محـمـود قـاسم:	فى النفس والعـقل ١٩٤٩م ـ مناهج الأدلة فى عـقـائد أهل الله ١٩٥٦م ـ الفليـسـوف المفـتـرى عليـه ابـن

		رشد ١٩٥٦م
٧٣	محمد الخضيري:	المعانى الافلاطونية عند المعتزلة مايو ١٩٦٢م
٧٤	محمد أبو زهرة:	محمد رسول الله جـ٢ دار الفكر العربى ١٩٧٧م ـ الإمام أبو حنيفة ـ دار الفكر العربى ١٩٧٦م ـ الإمام ابن حنبل دار الفكر العربى ١٩٧٧م ـ الإمام مالك ـ دار الفكر العربى ١٩٧٧م
٧٥	محمد أبو الفيض المنوفى:	جمهرة الأولياء فى أعلام التصوف طبعة مصر ١٣٨٧هـ
٧٦	محمد الدسوقى:	الاجتهاد فى الفقة الإسلامى: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٣م
٧٧	محمد جمال الدين:	الله والكون: الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦م
٧٨	د. محمد جواد رضا:	العرب والتربية والحضارة ـ المنهل الكويت ١٩٦٩م ـ مصدر المعرفة عند الإمام الغزالى ـ المنهل الكويت ١٩٧٨م ـ الفكر التربوى الإسلامى «مقدمة فى أصول الاجتماع والعقلانية دار الفكر العربى» «بدون»
٧٩	محمد جلال اشرف:	التصوف فى مدرسة بغداد ـ دار المعارف ١٩٧٥م ـ الله والعالم والإنسان دار المعارف ١٩٧٥م
٨٠	محمد عزت إسماعيل الطهطاوى:	النصرانية والإسلام ـ دار الانصار

		«بدون»
٨١	محمد عبد الله عنان:	تاريخ جامعة الأزهر لجنة التأليف والترجمة ١٩٧٢م
٨٢	محمد عبد الرحيم:	الجامعات الإسلامية الكبرى ١٩٥٣م ـ دار الطباعة العربية
٨٣	محمد عطيه الإبراشي:	التربية الإسلامية وفلاسفتها: الحلبى القاهرة ١٩٦٠م
٨٤	محمد فاضل الجمالى:	نحو توحيد الفكر التربوى الإسلامى ـ تونس ١٩٧٢م
٨٥	محمد غلاب:	المعرفة عند مفكرى المسلمين ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٩م
٨٦	د. محمد مصطفى حلمى:	الحياة الرحية فى الإسلام ـ دار النهضة «بدون تاريخ».
٨٧	مدكور إبراهيم:	الفلسفة الإسلامية «منهج وتطبيق» دار أحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٧م
٨٨	د. مصطفى جواد:	عصر الغزالى ـ المجلس الأعلى ١٩٦١م
٨٩	محمد فؤاد شاكر:	السنوسى الكبير
٩٠	مصطفى محمود:	الماركسية والإسلام ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٥م
٩١	مناع القطان:	مباحث فى علم القرآن ـ طبعة من دراسات الشئون الإسلامية ١٩٧٧م
٩٢	د. محمد عوض:	السودان وادى النيل
٩٣	محمد يوسف حموده:	الصوفية وأثرها فى الدعوة الى الله تعالى ـ رسالة ماجستير ـ كلية أصول الدين ـ جامعة

		الأزهر ـ تحت اشراف دكتور أحمد أحمد عليش وكيل كلية الدعوة الإسلامية.
٩٤	نيكسون:	في التصوف الإسلامي وتاريخه: ترجمة دكتور أبو العلام عفيفي ـ طبعة مصر ١٣٨٨هـ
٩٥	وائل عشمان:	حزب الله في مواجهة حزب الشيطان تقديم فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ـ طبعة ثانية نهضة مصر ١٩٧٥م
٩٦	وحيد الدين خان:	الإسلام يتحدى «تقديم دكتور شاهين» المختار «بدون».
٩٧	هاني عبد الرحمن صالح:	الخصائص العامة للإسلام ـ وهبة ١٩٧٧م
٩٨	وليم بجلي:	تربية المعلمين ـ ترجمة الاستاذ عبد العزيز أحمد ـ مطبعة العصرية بمصر ١٩٤٥م
٩٩	هيوبرت همفري:	في سبيل البشرية ـ ترجمة أحمد شناوي ـ مكتبة الوعي العربي ١٩٦٤م
١٠٠	هيوسيتون واطسون:	ثورة العصر ـ بحث في فلسفة السياسة والاجتماع ـ الكتاب الأول من سلسلة «كتب القاموس» ترجمة محمد رفعت ـ مكتبة الأنجلو المصرية «بدون تاريخ».
١٠١	والدمسار كسمفرت:	فتوحات علمية ـ ترجمة يوسف مصطفى

		الحارونى ـ مراجعة الدكتور عبد الفتاح إسماعيل ـ مؤسسة سجل العرب ١٩٦٤م
١٠٢	وليم كليـاتريك:	المدينة المبعثرة والتربية ـ ترجمة دكتور عبد الحميد السيد وآخرين ـ مكتبة مصر ١٩٥٨م
١٠٣	ايـفلـيـن ديـوى:	مدارس المستقبل ـ ترجمة عبد الفتاح المنياوى ـ مكتبة النهضة المصرية «بدون».
١٠٤	يوسف كـرم:	تاريخ إلفلسفة اليونانية القاهرة ١٩٤٣م ـ تاريخ الفلسفة فى العصور الوسطى ـ دار الكتاب ١٩٤٦م ـ تاريخ الفلسفة الحديثة المعارف ١٩٥٧م

المصادر الأجنبية

1 - Arnold Sir Thomas W.

2 - The Preaching Of Islam 3d - Edition, Ed, Reynlld A - Nicholson, - (London, 1935)

3 - (Arabi Before Muhammad) - (London, 1927).

4 - Literary History Of Persia - From, The Earliest Times Until Firdawsi.

5 - Mohammad And The Rise Of Islam. 3rd, Ed, - (London, 1932).

6 - History Of Egypt under Roman Rule - (London, 1913).

7 - De Gaury Gerald: Rulers Of Mecca, London, Gearge G. Harrap & Co. Ltd.

8 - Muir Sir William: Ihedaliphate 1925.

9 - Heyd: Pistoire Du Commerce De Lvanet au Moyenage 2 Vol. Leipzig - 1885 - 1886.

10 - Levy: The Social Structure Of Islame.

11 - Gaulhier: Introduction a l etude de La Philosophie Musulmane.

12 - Munk: Melanges de Philosophie arab et Juive.

13 - Brehier: Histore de Philosphie T. I.

14 - Leclere: L' histoire De La Medecine Arabe.

15 - Asin Palacios: Sens de Moi, Tchafot Dans Les Oeuvers D, El-ghazali.

16 - Report Of The Conferene On Christian Education, In Chang-

ing Africa, O U P 1963.

17 - Final Report Of The Conference Of African States On The Development Of Education In Africa E C A Unesco, 1961.

18 - Hailey Lord: An African Survey Univ. Press, 1936.

19 - Makulu, H. F. Education, Development And Nation Building In Independen, Africa S C M Freas, London, 1971.

20 - Outline Of A Plan For African Educational, Development Unesco, Paris 1961.

21 - An Historical Inquiry Concerning The Origin Developmnt Of Sufism Journal Pf, The Royal Asiatic Society: 1906, P. 203- 248.

22 - Asceticism (Muslim) Ency Of Religion and Elhics, Vol. 2, 1909, 2 nd Ed. 1930 P. 99 - 105.

23 - (SuFis) Ency Of Religion And Ethics,1921, 2 nd, 1934. Vol. 12

24 - (The Goal Of Mohammmedan Mysticism) Journal, Of The Royal Astatic Society, Jan, 1913.

25 - (The Idea Of Personality In Sufism) Cambridge University Press, 1923.

فهرس

الموضوع	الصفحة
الله	٦٢
الكون	٦٥
الانسان	٦٩
اليوم الآخر	٧٣
الأسرة	٧٤
أنبياء الله	٧٩
العلم الإسلامى	٨٢
عوامل تطور العلم الإسلامى	٨٦
الفصل الثانى:	
المذاهب الصوفية	
التوبة	٨٨
الذكر	٩٢
الخوف	٩٥
التوكل	٩٨
الولاية	١٠١
الحب الإلهى	١٠٤
الذوق	١٠٩
الصبر	١١٠
الباب الثالث	
الفصل الأول:	
فلسفة التربية الصوفية وأهدافها	١١٤
الفصل الثانى:	
منهج التربية الصوفية	١٢١
طرق التدريس فى الصوفية	١٢٣
ألقاب التلاميذ الصوفيين	١٢٤

الموضوع	الصفحة